

كتاب الساعة

عبور المحنة

احمد اسماعيل صبح



كتاب الســاعة

عـــبور المحنــة

مشاهدات عيانية ودراســة نفسية للانســان المصرى فى حرب أكتوبر

بقلم : أحمد إسماعيل صبح

تقديم : لواء أركان حرب حسن البدرى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٦

عبور المحنة

- كان قبل أكتوبر
- الجوهر
- الاستثناء
- وماذا بعد ؟
- القرار
- وعادت الحياة
- التكيف
- مواقف انسانية
- مع الفلاحين

الإهداء

الى الانسان المصرى الذى عبر القنـاة ظهـر السادس من أكتوبر بصدره ، ثم عاد فواجـه دبابات العدو وطيرانه حينما أراد احتلال مدينة السويس ، ثم استمر وصمد ليحـافظ على كل شئ ... أهدى هذا الكتاب ...

المؤلف

تقديم

عندما تدفقوا على فلسطين مع مطلع القرن العشرين ، اعتمد الصهاينة على الأهالى العرب فى حمايتهم والدفاع عن المستعمرات التى راحت طلائعهم تقتطعها من جسم فلسطين ، لتقيم فوقها مواقع استراتيجية فى طول البلاد وعرضها .

وكان الأمر المثير للعجب أن تعتمد حركة اغتصاب فلسطين على أصحابها العرب ليحرسوا ما اغتصبته الصهيونية من أراضيهم وحقوقهم !

ولهذا بادرت المنظمة الصهيونية بانشاء الهاشومير ، فأقامت لها بذلك جيشا قبل أن تقيم الدولة .

ثم أعلن فلاديمير جابوتنسكي أن « السبيل الوحيد لتحـــرير البلاد لن يكون الا بحد السيف » ٠

وعندما وصلت الأسلحة الى أيدى المغـــامرين ، تفشت فى صفوفهم غطرسة القوة ، وظلوا ضحيتها وما زالوا ٠

ووصف دافيد بن جوريون ـ أحد أفراد مستعمرة الشجرة ـ مشاعره فى تلك اللحظة من عام ١٩٠٧ قائلا ٠٠٠ « كنا ننتظـــر مجيء الأسلحة ليلا ونهارا ، ولم يكن لنا من حديث سوى الأسلحة٠ وعندما وصلت لم يكن لسعادتنا حدود ، فأخذنا نلهو بها كالأطفال الصغار ، ولم نرغب فى تركها لحظة واحدة ، فكنا نقرأ ونغتســل ونأكل ونتحرك والبنادق فى أيدينا أو على أكتافنا » ٠

على هذا النحو اعتنقت الصهيونية العنف منذ البدايةأسلوبا لا بديل له لتحقيق أهدافها الجائرة ، التى اســـتفحلت مع مرور الأيام من مجرد اقامة « وطن قومى » أو « موطيء قدم » لليهـــود فى فلسطين ، الى اقامة « اسرائيل الكبرى » فوق سرة الدنيا ، والمعبر الاستراتيجى بين القارات القديمة الثلاث ٠

وبالتالى ، تحول شعار الصهيونية من ٠٠٠ « بالدم والنــار سقط المعبد الثانى وبالدم والنار سوف يقوم المعبـــد الثالث من جديد » ، وذلك قبل ميلاد الدولة ، ليصبح بعد أن ولدت عصر يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ ٠٠٠ « اذا وقع السيف من يد اسرائيل فســوف تموت » ٠

لهذا امتشقت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية الحســـــام لتفرض به السلام الصهيونى الجائر فى أرض العـــرب ، فتوالت اعتداءات أجيال اسرائيل التى تحولت مع الزمن الى مجتمع عسكرى فاشى استحوذت على أفراده مجموعة من الطباع المنحرفة ، كالقوة

الغاشمة ، والعنصرية والتعصب والاستعلاء والجنوح الغريزى الى الاعتداء ٠

ووضع لهم كبيرهم الذى علمهم الافك دافيد بن جوريون شعار العمل لجيش اسرائيل فكان ٠٠٠ « جنود موسى ويوشع وداود لم يكفوا عن القتال حتى فيما بينهم ، وكذلك جنود صهيون لن يتوقفوا عن الحرب » ٠

ثم كانت صدمة النصر فى يونيو ١٩٦٧ التى أدارت رؤوس المؤسسة العسكرية الصهيونية فراحت تؤكد انه لم يكن أمام العرب الا الرضوخ ، وان التخلف الحضارى والفجوة التكنولوجية لن تدع لهم سبيلا الا الاستسلام غير المشروط ٠

ثم أهاب دافيد بن جوريون بصقور المؤسسة « أن يتخذوا من الفتوحات العسكرية أساسا للاستيطان ، وواقعا يجبر العرب على الرضوخ له ، والانحناء أمامه ٠ »

وراح موشى ديان يخاطب لفيفا من الصحفيين فى منتصف يونيو ١٩٦٧ قائلا ٠٠ « ان العرب يعرفون رقم تليفونى ، وها نحن ننتشر من قناة السويس حتى مرتفعات الجولان ، ونتقدم من مرحلة الى أخرى نحو تحقيق أهدافنا الواسعة ، وليس علينا أن نتم كل المهمة ، كما لا يمكننا أن نقول أن هذا هو خاتمة المطاف ٠ »

وعاشت اسرائيل أيامها الباسمة ، وظنت أن الأمل قد تحقق حتى وقع زلزال عصر السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، فأزال الغشاوة عن بصيرة اسرائيل بما أجبر ديان على الاعتراف « بأن حالة التفوق الاسرائيلى قد دحضها وأثبت بطلانها قتال أكتوبر المرير ٠ »

ثم خرج ابراهام كاتزير رئيس الدولة يقول لشعب اسرائيل المشدوه من هول الهزيمة ٠٠ « لقد كنا نعيش فيما بين ١٩٦٧

و ۱۹۷۳ فى نشوة لم تكن الظروف تبررها ، بل كنا نعيش فى عالم من الخيال لا صلة له بالواقع ، اما هذا الواقع فقـــد كان فى الخطوط الأمامية أقوى من أن يحتمله جنود اسرائيل الذين سقطت معنوياتهم الى الحضيض بسقوط أسطورة الجيش الذى لا يقهر ، فاستلزم من الأركان العامة أن تدفع بمستشفيات العلاج النفسى الى المنطقة الأمامية لتعالج نحو ۹۰۰ حالة من حالات الاكتئاب وعصاب الحرب التى انتشرت بين جنود اسرائيل بمجرد نجاح العبـــــور المصرى ·

وعلى الطرف المقابل ، كان الانسان المصرى يجد ذاته بعـــد طول معاناة ، وكان يغسل عار الهزائم السابقة التى كان ضحيتها وليس صانعها ، كما كان يغير خريطة المنطقة سياسيا واجتماعيـــا وعسكريا ومعنويا ·

وكان أروع ما أثبته الانسان المصرى عصر السادس من أكتوبر أنه صمد أمام الدعايات الخبيثة والاتهامات البـــاطلة التى كالتها له أبواق الصهيونية فى مشارق الأرض ومغاربها ، على امتداد ست سنوات لتحط من شأنه بين الناس ، وتبذر اليأس فى قلبه ، وتشككه فى ذاته ·

فلما أتاحت له قيادته الرشيدة فرصة المعركة المتكافئة عصر السادس من أكتوبر انطلق يثبت للعالمين أنه خير أجناد الأرض ·

ولفت الانسان المصرى أنظار الدنيا عصر السادس من أكتوبر الى أمر عظيم فقد أثبت أنه قادر على أن يهزم الهزيمة ، وأن يقهـــر الجيش الذى لايقهر ·

وكان الأستاذ أحمد اسماعيل صبح واحدا من جنود مصر الذين صمدوا وقت الصمود ، واقتحموا لحظة الاقتحام ، وهو بذلك

خير من يلقى الضوء ـ بهذا الكتاب الذى تفتقر المكتبة العربيـــة الى مثله ـ بهذه الدراسة عن نفسية الانسان المصرى فى حـــرب أكتوبر ، وحقيقة معدنه ، عندما كان يواصل معه الصـــمود فى السنوات العجاف ، ثم يخوض معه العبور فى عام النصر ، فيشارك زملاءه من جنود مصر الأوفياء جهادهم ليحققوا المعجزة لمصـــــر ، وللعرب أجمعين ٠

لواء أركان حرب

حسن البدرى

استاذ التاريخ العسكرى وفن الحرب

اكاديمية ناصر العسكرية العليا

مقدمة المؤلف

منذ ربع قرن أو يزيد بدأت عملية البناء ، وكلما مر عام ارتفع البنيان ذراعا ، وكل عشر سنوات تقريبا تحدث طفرة انتصار تجعل البروج أكثر شموخا ، وفى يونيو سنة ١٩٦٧ ارتفعت العمارة ارتفاعا شاهقا ، بينما تضاءلت عمارات وبروج الأحياء المجاورة فى الشرق الاوسط .. حتى بنيان السد العالى فى جنوب الوادى أصبح أصغر حجما وأقل انخفاضا أمام أسطورة التفوق الاسرائيلى على العرب عامة والمصريين بصفة خاصة .

وصدق العالم ما رأى ، وانبهر الناس من عظمة البنيان ، والعالم كله معذور ، والناس جميعا على حق ، ذلك لأن عوامل

التصديق كانت متوفرة والمظهر الخارجي يدل على قوة العمـــارة وصلاحيتها ٠٠ لم يكن البناء وهما أو خداعا وانما كان حقا رائع التخطيط والتأسيس ٠

استوعبت اسرائيل حضارات العـــالم الغربي ، وانتقت في الهجرة اليها أفضل العلماء والمتخصصين ، وجاء اليهـــا الأقوياء وذوو الطموح والمتأمركون ٠٠ وتحولوا جميعا الى خـدمة أغراض الحرب فأصبح التجمع الاسرائيلي مجتمعا ديموقراطيا في شكله ، عسـكريا عدوانيا في مضمونه ٠

والرأى العام يميل الى التبسيط ، والناس لا يحبون التحليـل وتقصي الأسباب ، فالعبرة عندهم بالنتائج ، ولا داعي للتفاصيل ٠٠ اقتنعت شعوب العالم بأن دولة اسرائيل الصغيرة تفوق العالم العربي كله ، وأن مليونين ونصفا في ميزان الكيف الاسرائيـــلي يفضلون مائة مليون في ميزان الكم العربي ، ذلك لأن الانســـان في اسرائيل متحضر يساير العصر بينما العرب جميعا قوم بدائيون ومتأخرون حضاريا ،وعددهم الهائل لن يغنيهم عن تمدن الاسرائيليين وثقافتهم شيئا ٠

وصدق الناس جميعا النبوءة ٠٠ بأن من غلب مرتين سيغلب في المرة الثالثة ، وبالتأكيد من غلب المرة الثالثة سيغلب أيضـــا في المرة الرابعة ، استنتاج تلقائي يميل اليه الناس ، فقد علمتهـم روتينية الحياة صفة الاعتياد وعادة الاستطراد ٠

اذا كانت اسرائيل قد هزمت العرب في حربين فلتكن لهـــا صفة الانتصار ، واذا تكرر لها ذلك فلتكن هي صـــاحبة اليـــد الطولى وجيشها أعظم من أن ينهزم ٠

اذا انهزم المصريون فى حربين متتاليتين فهم جديرون بذلك، واذا حاولوا الدخول فى مغامرة أخرى فالويل لهم .

وغرست وسائل الاعلام الاسرائيلى هـذا المنطق فى عقـول الناس ، وبالتالى فقد أصبحت مقولة يتغنى بها المقاتل الاسرائيـلى أينما كان .. وفى داخل اسرائيل حيث التنشـئة الاجتماعيـة والتربية القومية ، وفى مخطط الاعـلام الخارجى ، ونشـاط الوكالة اليهودية والمنظمات الصهيونية وفى البرامج الاعلاميـة الموجهة الى اليهود فى الشتات أو المنفى كما يظنون .

وتم تخطيط المنطق الاسرائيلى بذكاء وعلم بطبائع الناس على نحو أو آخر بأن الشعب اليهودى متميز عن بقية شعوب العالم ، متفوق عن سائر البشر فى مقومات الحياة ثقافيا ، اقتصاديـا ، تاريخيا ، شعب اختاره الله ليسود العالم ، جنوده لا يقهرون أبدا .

وجاءت نكسة ٦٧ وكشفت عيوبنا بوضوح للعالم كله ولنا أيضا ، وأظهرت نواقصنا للعالم المتحضر ولنا أيضا ، وفجعتنـا الصدمة بشدة ، كدنا معها أن نفقد الثقة فى أنفسنا ، وأصابتنـا حمى من الضيق والقلق وخيبة الأمل ، وهذا شعور أليم اذا انتـاب الرجل فى أسرته سرعان ما تنتقل عدواه الى بقية أفراد الاسرة ، وسرعان ما تحول الضيق والقلق الى شعور دفين بالخزى والمرارة أصابتنا جميعا ، حتى لقد كنا نشعر مرارة مذاقه فى حلوقنا .

وكانت نكسة ٦٧ خيرا وبركة لنا فقد هزتنا وجعلتنا ندرك النقص والحاجة الى استكماله ، وكأن مشاعر الألم هى الوقـود أو البواعث التى دفعت الانسان المصرى الى أن يعمل من أجل هـدف محدد هو محو العار ...

وتم بناء القوات المسلحة باصرار وعناد عظيميين · وتعلمنا كثيرا عن العدو ، ليس فى حضارته وتمدنه ، ولكن فى تفكيره وأسلوبه ، فى استراتيجيته العسكرية وتكتيكاته الحربية ·

وأثناء اعادة البناء والتغيير والمعرفة العميقة بالعدو تعلمنا أشياء واخطأنا فى أشياء ، ومن من البشر لا يخطىء ، لقد اكتشفنا فى أنفسنا عيوبا ، عالجنا بعضها ، وأحيانا أيضا كنا نعطى لعدونا أكثر مما يستحق من تقدير ·· فقد كانت دعاية الجندى الأسطورة ما زالت تؤثر فى نفوسنا وتفكيرنا ·

واكتشفنا فى أنفسنا أمورا كنا قد نسيناها ، فقد علمتنا الأيام من هم الأصدقاء ، ومن هم الأعداء ، وخلصنا الى حقيقة هامة تجرى على لسان رجل الشارع العادى وهى (ما حك جلدك مثل ظفرك فتول انت جميع أمرك) ··· الأرض أرضنا ، والقضية قضيتنا ،والحياة حياتنا ، والمستقبل ملكنا ، والشهداء شهداؤنا ·

ومن هذا المنطلق تعلمنا أيضا أن المسألة ليست عن شعوب عدوة وأخرى صديقة ، وانما هى اجابة على سؤال : ماذا نكون فى العالم ؟ وبقدر ما نكون عليه ، تصادقنا شعوب العالم أو تعادينا ···

ثم توكلنا على الله ·

وكان لى شرف العمل بالقوات المسلحة مكلفا منذ بدء عملية اعادة البناء ، واشتركت فى كثير من المشروعات والبيانات العملية التى قام بها جيشنا للتدريب ، تمهيدا لليوم العظيم · عشت مع

الانسان المصرى الجندى ، فى حياته اليومية وأحسست بآلامه وآماله .

وكان عملى يقتضى أيضا أن أواجه وأرى دائما ضباط وجنود العدو الرابضين فى مواقعهم على الضفة الشرقية من قناتنا . واستمرت المواجهة حتى السادس من أكتوبر حيث ولوا بعدها الأدبار .

وجاء العبور عظيما ورائعا ...

وتغير التاريخ ، وانقلبت الآراء رأسا على عقب ، وتحولت القيم والمفاهيم التى سادت فترة طويلة من الزمن .. وأعاد العالم النظر فى أمر الجيش الاسطورة والفكر العبقرى والقوة الجبارة، واسرائيل التى لا تنهزم .

تم العبور فعلا لا قولا ، وكان هزة عنيفة نبهت العالم كله فحطمت عاداتهم وما ألفوه من استنتاجات تلقائية علمتها لهم روتينية الحياة ، وفجر العبور أفكارا جديدة ومفاهيم واضحة بأن : من انهزم ثلاث مرات قد ينتصر فى المرة الرابعة ، ومن انتصر ثلاث مرات قد ينهزم فى الجولة الرابعة .

ومثلما تيقظ الانسان فى تل أبيب من غفلته واعتياده على معتقدات منطقية راسخة ، نشأ عليها ، وعاش فى أوهامها سنوات طويلة .. حدث أيضا للانسان المصرى فى كل مكان .. أفاق الأول على واقع أليم اهتزت له نفسه بأن اسرائيل يمكن أن تنهزم ، وتنبه الثانى الى أمر عظيم هو أن جيشه قادر على الانتصار ومحو العار مهما طالت السنوات ورغم ما عاناه من هزائم سابقة .

ومرت أيام مجيدة ·

والتفت بعض قوات العدو غرب القناة من ثغرة فتحتها له الدولة المغيثة ، وتورطوا وزاد تورطهم عندما حاولوا اقتحام مدينة السويس ، فسحقهم الانسان المصرى سحقا عنيفا ·· ثم هرعت بقية القوات مختبئة داخل حصونها خارج المدينة ، تحميهم قوات الطوارىء الدولية ·

لقد كنت مع الانسان المصرى فى عبوره ، وكنت معه أيضا حينما حاول العدو سلب ما استرده من حقوقه ، وكان عظيما وعملاقا ·

وعندما تساوت كفتا ميزان السلاح والمعدات القتالية أو كادت ، وتوفرت لدى الفريقين كافة المتغيرات العسكرية التى يمكن قياسها بمعايير العلم العصرية . والمقاييس التنبؤية ، أصبح أمامنا عنصر آخر يستعصى على القياس ، ومتغيرا لا يخضع لكافة أدوات الحساب العلمى الدقيق ·· انه الانسان ·

وموضوع هذا الكتاب هو الانسان المصرى فى ملحمة العبور ومعركة الصمود ·· وقد حاولت أن أتخلص تماما من المؤثرات الخارجية ، وأن أعتمد فى معظم ما أسجله على مشاهداتى وتجربتى الشخصية ، واجتهادى فى التحليل والدراسة · وسردت أيضا ما سمعت عنه من زملاء مصدقين فى معلوماتهم ·

لعلى بذلك العمل أضيف الى المكتبة العربية زاوية جديدة لرؤية الانسان المصرى ونظيره الاسرائيلى · ولعل هذه الدراسة تكون نواة لدراسات أخرى تعتمد على أدوات البحث العلمى الدقيق لتكمل النقص ·

والله الموفق ·

المؤلف

الباب الأول

كان قبـل أكتوبـر .

- يا مصرى يا فلاح
- الانصهار
- خواطر ما قبل العبور
- ساعة الصـــفر

كان قبل أكتوبر

تعلمت أن حضارة مصر تمتد الى خمسة آلاف عام قبل الميلاد، وتعلمت أيضا أن جيش مصر قد هزم جيوش الأعداء عبر التاريخ ·· هزم الهكسوس والتتار والصليبيين ·

ولكن الذى تعلمته شيء والذى أراه الآن أمـــامى شيء آخر ، عملى يقتضى أن أواجــه القــوات الاسرائيلية المرابطة على الضفة الشرقية للقناة ·

ماذا أرى ·· ؟

مشهد يندى له جبين كل مصرى حر ·· جنود الجيش المحتل تظهر ما بين الصباح والمساء ، الزهو يغلب عليهم ، والثقة بجيشهم القوى المسيطر تزداد بمرور الأيام وتلاحق السنوات ·· ما بالهم يمرحون وكأنهم فى نزهة خلوية ، لا يتقيدون بالتقاليد العسكرية المتعارف عليها ·· منهم من يطلق لحيته ، ومن يرسل شعره فــلا

نعرف ان كان رجلا أو امرأة ، يرتدون القمصان الملونة والشورتات المشجرة ، يخرجون من مواقعهم ليسخروا منى ومن كل مصرى يظهر أمامهم ، وكأن لسان حالهم يقول : ان وجودنا هنا منذ أكثر من ست سنوات دليل واضح على قوتنا وقدرتنا .. ووجودكم على الضفة الأخرى علامة ظاهرة على عجزكم وقلة حيلتكم !! .

لقد علمهم قادتهم أنهم متفوقون على المصريين ، وزرعوا فى نفوسهم الغرور ، وأفهموهم أن جيشهم فاق جيوش العالم ، انهم هناك فى الضفة الاخرى من قناتنا مسترخون . فهم يعرفون أن الأمان قد ساد الجبهة ، يحتمون بخط بارليف المنيع ، وهو كفيل بأن يصد أى هجوم مفاجىء قبل أن تتم عملية استدعاء الاحتياطى بوقت كاف ثم يرد الضربة ويسحق المصريين ، ألم يقل بارليف نفسه فى التلفزيون الأمريكى عام ١٩٧٠ ان المصريين لا يعرفون أى جحيم سينصب عليهم بمجرد أن يضعوا أقدامهم خارج الضفة الغربية للقناة . ألم يقل موشى ديان بأن خط بارليف أكثر تحصيناوتنظيما من أى خط مشابه ، وأنه منيع لدرجة تسمح بالاحتفاظ به الى الأبد !

لقد أقام اليهود على صفة قناتنا أبراجا عالية يرتفعون فوقها بسلالم وفى أعلا البرج يجلس الجندى المتحضر فى غرفة زجاجية دائرية تلف به وهو فوق مقعده فى جميع الاتجاهات ، ويرتبط بالمقعد منظار تلسكوب يستطلع به مواقع قواتنا وتحركات جنودنا، وربما شاهدوا أيضا ما يأكلونه ويشربونه ، وينزلقون من أعلا الى أسفل حول عامود يشبه ذلك الذى يستخدم فى تدريب رجال المطافىء ، علموهم أنهم أعلا من جنودنا وأن مدى رؤيتهم لنا بعيد ...

ونما زرع الغرور فى نفوسهم وترعرع الى أن طال وحجب عنهم الرؤية الصحيحة · حتى اذا رأوا من هناك صاحبنا الجنـــدى المصرى يقوم ببعض التجهيزات الهندسية أو اقامة أحد الســـواتر نادوه من خلف السواتر ساخرين (يا مصرى يا فلاح ايش بتعمل عندك ؟) ·

ويحمل هذا النداء معنى الاستهانة ،فكأن لسان حالهم يقول : (وماذا تصنعون من تجهيزات هندسية ، انكم مهما فعلتـــم لن تستطيعوا اعداد ما يوازى ربع خط بارليف) ينادون من هناك ·· يا مصرى يا فلاح ·· ثم سيل متدفق من السب والكلمـــات البذيئة ·· اعتقدوا أن كلمة فلاح سبة وقذف للجندى المصـرى وفاتهم أنها كلمة يتغنى بها صاحبنا ويعتز بمعناها ·

وسوف تكشف الأيام بعد ذلك ماذا سيفعل هذا الفلاح ·

·· ·· ··

وماذا أيضا عن سلوكهم أمامنا ؟

لقد بلغ من شدة زهوهم بأنفسهم واستهانتهم بجنودنا ، أنهم كانوا يخلعون ملابسهم معرضين أجسامهم لدفء الشمس ، وكثيرا ما فعلوا ذلك أثناء الزيارات المدنية حيث يقضون أوقاتا هانئـــة مع الفتيات والنساء ، يبالغون فى مرحهم ، لا بل خلاعتهم أمـــام جنودنا الفلاحين ، وحينما تشتد حرارة الجو ينزلون الى مياه قناتنا يستحمون واذا اشتهوا ما فى البحر من خيرات ألقوا أجهزتهـــم يصطادون بها وكأنهم فى نزهة بحرية ·

أصابهم الغرور اصابة مزمنة فأصبحوا لا يرون غير قوتهم ولا غير قادتهم ولا يثقون فى غير ساستهم ·

وما الذى في هذا الخط المنيع جعلهم واثقين هكذا لدرجة بلوغ قمة الزهو والغرور ؟

هذا الخط جعلهم محصنين فى مواقع لا يمكن تدميرها بنيران المدفعية ، أو باستخدام الطيران لأنه على مسافة قريبة من قواتنا ، واستخدام الطيران ضده قد يصيب مواقعنا أيضا ، وأن هذا الخط عبارة عن نقطة قوية حصينة تقدر بحوالى ٢٧ موقعا على طول القناة ، أى نقطة كل ٤ كيلو مترات ، وهذه المواقع الحصينة ربطت بساتر ترابى يصل الى متوسط ارتفاع ١٥ مترا وكأنه حائط حاجز مانع ٠ أما التحصينات السبعة والعشرين فقد أقيمت فى المناطق الصالحة لعبور قواتنا وتبلغ مساحة كل نقطة قوية حوالى ٢٠٠ × ٣٥٠ مترا ، والأسلاك الشائكة من كل جانب ، أما حقول الألغام فتصل الى مسافة ٢٠٠ متر فى العمق ، وحولها وداخلها توجد جميع الأسلحة المختلفة من رشاشات ومدفعيات وهاونات ودبابات فى شكل دائرة لها فتحة واحدة ٠

ومن أجل هذا كانوا آمنين مطمئنين

فاذا دخلوا ملاجئهم التى كانوا يحتمون بداخلها ازدادوا أمنا واطمئنانا ، فهى مكونة من ثلاثة طوابق مجهزة وقائيا وللاعاشة المريحة ، مزودة بأسلحة تدمير شامل ، وبها وحدات انارة وتكييف هواء ، وأجهزة تهوية وتنقية ضد الغازات السامة ، وبها مولدات كهرباء ومرشحات لتحويل ماء البحر الى مياه صالحة للشرب ، وبها مرافق صحية ٠

وقد تكلف خط بارليف ٢٣٨ مليون دولار ٠ وساعدهم على غرورهم أيضا أن هذا الخط المنيع كان يرتكز على مانع مائى (القناة) يكسو جانبيه أحجار ٠ كل ذلك جعلهم يحسبون أنهم فى مأمن من

الخطر) طابت لهم الحياة هناك ، ولكن هل كانوا يستطيعــون البقاء دون هذا الحصن المنيع ؟

رأيت الساتر الترابى على الضفة الأخرى من قناتنا يعــلو كثيرا ويمتد طويلا ، والدشم العريضة البارزة فوق الساتر تضــم وراءها تحصــينات ودبابات ومدفعيـــات وتجهيزات تحول دون الوصول اليها ·· وبين الحين والآخر تلوح فوهــات الدبابات من الخلف وكأنها النذير لكل من يفكر فى العبور بأن يراجع نفســه ويأمن شر المخبوء وراء السور العظيم ·

يا مصرى يا فلاح :

.. ويخرج صاحبنا ليسمع بأذنيه سخف القول وليرى بعينيه بذاءة الاشارات .

كنت أتساءل هل هذا السلوك الوضيع يدخل فى خطط الحرب النفسية الموجهة ضد قواتنا بقصد خفض الروح المعنوية للجنود ، أم أنه سلوك تلقائى نتج عن تأمينهم ورفاهيتهم ، أم أن وسائل التنشئة الاجتماعية والتربية والاعلام ونتائج حروب سابقة جعلتهم يسلكون هكذا ؟ وأى حضارة ومدنية تستبيح هذه التصرفات ؟

ومهما كانت الأسباب والدوافع فقد كانوا مخدوعين ومضللين الى حد بعيد .

وقد أتاحت لى ظروف عملى أن أقوم بدراسة عن المجتمع والرأى العام الاسرائيلى من خلال لقاءات مع الأسرى ، معظمهم كان من الطيارين والملاحين الذين وقعوا فى الاسر أثناء حرب

الاستنزاف · وقد خلصت من هذه الدراسة ببعض النتائج عن وجهة نظر هؤلاء الأسرى فيما يتعلق بعقيدتهم في الدولة ،والأسس النفسية والاجتماعية التى تشكل انتمائهم بالارض وفق رأيهم فى العرب والمصريين ·

وبعد حرب أكتوبر وما أحرزه المقـــاتل المصرى من بطولات وأمجاد ، لاحظت عن قرب وبعمق مدى المفاجأة التى وقع فيهـــا المقاتل الاسرائيلى ، والى أى حد بلغت صدمة المباغتة الى حد هـــز العقائد الراسخة التى شكلتها سنوات طويلة من التنشئة الاجتماعية ووسائل التربية والتعليم والاعلام الموجه الى الداخل ·

الانصهار

هنا على الضفة الغربية للقناة ٠٠ رأيت الجندى المصـــرى الشاويش عتريس وقد تعدى الأربعين ، كنت كلما ذهبت الى موقعة رحب بى وأصر على أن يصنع لى بنفســه كوب شـاى ثقيل ، انه نموذج حى أصيل لأبناء مصر ، أنبتته الأرض الطيبة ، ارتوى من ماء النيل ، أصبح جزءا لا ينفصل من مال وتراب وهواء مصر ، له ابن على امتداد بضع عشرات من الكيلو مترات عسكرى مجند بالجيش الثانى ٠٠٠ تجد مثل الشاويش عتريس ومثل ابنه آلافا على طول القناة ، يشعر أن الضباط والجنود من حوله اخوته وأبناؤه ٠٠ كان ينظر الى الضفة الأخرى والدم يغلى فى عروقه ، وكلما لاح له جندى اسرائيلى ازداد غضبه وحميته وأصبح مثل صـــعيدى يشـــتاق الى الأخذ بالثأر لشىء أصاب كرامته ٠

وما دام الجندى الاسرائيلى قد وصف نظيره المصرى بأنه فلاح، فقد شرفنا هذا الوصف وسوف نستخدمه كلما ذكرنا الجنـــدى المصرى ٠

رأيت الجندى المصرى الفلاح هنا على الضفة الغربية من قناتنا المصرية ، رأيته قابعا فى مكانه مواجها الجندى الاسرائيلى المتحضر ٠ انه هنا منذ ثلاث سنوات أو يزيد ، يرتدى زيه العسكرى وغطاء الرأس ، ولا يخلع حذاءه ذا الرقبة الطويلة الا عندما ينام ، فهو ملتزم بالتقاليد العسكرية ، مطيع للأوامر ، يخشى أن يظهر أمام قائده بمظهر غير لائق،وهو ليس ساذجا أو غافلا فعنده ذكاء فطرى، هو يعلم تماما أن الاسرائيلى هناك متحضر ومتمدن ، ألم يره بالمنظار المكبر وهو يأكل الشيكولاته ويمضغ اللبان ويشرب الكولا ثم يلقى بالزجاجة الفارغة فى قناتنا ٠

الجندى المصرى الفلاح هنا منذ أكثر من ثلاث سنوات والجندى الاسرائيلى المدلل هناك منذ أقل من ثلاثة أشهر ، وسوف يأتى بديله بعد أيام ليتسلم موقعه خلفا عنه ، انهم فى رحلة حقا ٠

•• •• ••

وأنقل بصرى الى الضفة الغربية لأرى قوافل الزيارات المدنية ، زيارات للجبهة ، ولكنها من نوع آخر غير التى نراها عند الاسرائيليين ٠٠ رجال ونساء وأطفال ٠ هيئات حكومية ومدارس وقطاعات مختلفة من الشعب ، يجيئون هنا دائما ترقرق فى عيونهم العبرات ٠ قلوبهم مملوءة بالحسرة ، يبكون بصدق عند ما يشاهدون العلم الإسرائيلى ذا النجمة السداسية الزرقاء يرفرف هناك ٠

يأتون هنا دائما ٠٠ ليس للترفيه ، ولكن للتشجيع ، ليس للعناق والمرح ، ولكن لقصد آخر يختلف تماما عما هناك ٠٠ قصد يحمل كل معانى الجدية ، ان مشهد العدو الاسرائيلى على الضفة الأخرى للقناة كفيل بأن يشحن نفس كل مواطن مصرى بالغضب والتحفز ٠

رأيت الجندى الفلاح يتصرف بتلقائية مصرية ، يسلك

بعاداته وتقاليده الريفية ، يرحب بقوافل الزيارات المدنية ، انهم ضيوفه فى موقعه وواجبه هو أستقبالهم والترفيه عنهم ، وكأنهم يزورونه فى بيته أو حقله ، يعد لهم الطعام ويحتفى بهم ·· يقدم لهم طعامه وشرابه طواعية ، ويود لو استطاع أن يكرمهم أكثر من ذلك ، وقد يحل موعد الزيارة فى وقت نزوله أجازته الميدانية فيؤجل الأجازة من أجل استقبال الزائرين والاحتفاء بهم ·

ما هو شعور صاحبنا المصرى حقا ؟

انه يرى الحزن فوق وجوه الزائرين رجالا ونساء فيعرف سببه ، ويشعر ان واجبه هو العمل على ازاحة الكابوس الضاغط فوق الصدور ، واجبه القضاء على العدو الرابض هناك ، المستهتر ، الساخر ، المغروز · ان صاحبنا يشعر بالحرج كلما رأى الزائرين ينقلون أبصارهم بين الضفتين ، ينظرون هناك ثم ينظرون اليه وكأنهم يسألونه الى متى سيستمر الحال هكذا ؟ هم يشجعونه · وهو يعدهم بأن الزيارة القادمة ستكون فى الضفة الأخرى ان شاء الله ·· ولسان حاله يقول : لقد طال الوقت ، متى يكون العبور ، وازالة العار · صاحبنا المصرى الفلاح يشعر بمسئوليته الرهيبة ، ويحس أنه سبب رئيسى فى حزن الزائرين وضيقهم ، وان عمله وواجبه أن يقضى على على الحزن فيجتهد فى تدريباته ويصبر ويتحمل مشاق جمة من أجل يوم الخلاص ·

يودع الزائرين ويشد على أيديهم بقوة ورجولة ، فقد اعتاد خشونة الحياة سواء فى عمله المدنى أو فى وحدته العسكرية ، انه هنا ملتزم بدوره العسكرى لا يعرف المرح والمزاح الا مع رفاقه وقت راحته وليس وقت زيارات الوفود المدنية ·

رأيت الجندى المصرى الفلاح يشترك فى عشرات المشروعات والبيانات العملية ، والمشروع عبارة عن عمليات تشابه الدور الذى سيقوم به وقت الحرب ، عبور مانع مائى مع تسلق ساتر ترابى ،

وفى المشروع تتم كل التوقعـات العسكرية المضـادة مع اسـتخدام الزخيرة الحية ٠

وقبل البدء فى هذه المشروعات يتلقى الجنود تعليمات بأن هذا المشروع قد يتحول أثناء أدائه الى عمليات حربية حقيقية ٠ لذلك فان جنودنا كانوا كلما اشتركوا فى مشروع هيأوا أنفسهم للعبور الفعلى للقناة ٠

ويدعو صاحبنا ربه فى كل مرة أن يتم ذلك ، ثم ينتهى المشروع ويعود مرة ثانية الى وحدته ومكانه أمام العدو الرابض هناك ، وفى نفسه مرارة وحزن عميقين ٠ ولكن كثرة المشروعات وعدم تحولها الى عمليات حقيقية علمت صاحبنا الصبر والتانى ، وعودته كيف يقاوم الملل مع وجوده،ويدفع عن نفسه اليأس ، لقد تعلم الجنود المصريون فى محنتهم الكثير ، انصهروا فى بوتقة نكسة ٦٧ ، وتخلصوا فى ست سـنوات من شوائب التخلف العسكرى وشحذوا كل قوتهـم استعدادا ليوم آت لا ريب فيه :

متى هذا اليوم ٠٠ لا أحد يعلم

وكيف سيكون قليل يعلمون

خواطر ما قبل العبور

ومثلما يحدث كل مرة ، كان على الجنود المصريين أن يستعدوا لمشروع جديد ، وصدرت الأوامر والتعليمات لجميع التشكيلات والوحدات بالتأهب لعمل تعودوا عليه كثيرا ، وكالمعتاد تلقنوا العبارة المشهورة التى سمعوها عشرات المرات ، بأن المشروع قد يتحول الى عمليات عبور حقيقية ٠

وكان هذه العبارة قد فقدت دلالتها ، فقد سمعها الجنود كثيرا وتأهبوا ثم عادوا الى وحداتهم بعد نهاية المشروع دون عبور حقيقى ، الا أن حالة التأهب أصبحت ضرورة لازمة ، وأخذ الموضوع مأخذ الجد ما زال قائما منذ المشروع الأول حتى المشروع الأخير ، ذلك لأن نتائج المشروع توضع فى الميزان - ويقوم جماعات من المراقبين والمتخصصين فى الشئون العسكرية بتقييم عمل كل وحدة مشتركة فى المشروع ، وعلى هذا تحول أمر المشروع الى واجب عملى له أهمية بالغة ، ويمكن أن يرفع شأن وحدة أو تشكيل ويقلل شأن وحدة

أخرى ، وقد أثبتت نتائج المشروعات بالدراسة الاحصائية المقارنة ارتفاع معدل الكفاءة القتالية للضباط والأفراد ارتفاعا مطردا .

كان هذا فى الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٣ ، وقد سئم المقاتلون تكرار المشروعات دون أن تتحول الى عمليات فعلية. ومثل كل مرة تمنينا أن يتم العبور ، أصبحت كلمة عبور بالنسبة للمقاتلين أملا عزيزا غاليا يودون تنفيذه ويشتاقون الى تحقيقه .

رجونا من أعماقنا أن يتحول المشروع الجديد الى عمليات هجومية،وجاءت تصرفات القيادةالعسكرية المصرية على أعلى مستوى من الدقة فى تضليل العدو عن نوايانا وفى سرية التحضير للهجوم والمحافظة على سرية فكرة الأعمال المقبلة .

وبدأ الشك يدب فى نفوس المقاتلين عن النوايا الحقيقية فى هذا المشروع ، وخرج الجنود المصريون الى المشروع الجديد مستبعدين امكان تحوله الى عمليات عبور حقيقية ، ولم يقلل ذلك الاستبعاد شيئا من كفاءتهم وتأهبهم وانما أفاد فى تضليل العدو ومفاجأته .

وبلغت دقة الخطة النفسية لتضليل العدو عن نوايانا ذروتها حين صدرت تعليمات من بعض القادة بأن المشروع سوف يتحول الى عمليات حقيقية ، ثم أفادوا هم أنفسهم وفى مواقع أخرى بأن الأمر لا يتعدى مشروعا ضخما لن يتحول الى عمليات عبور . وأفاد هذا التخطيط الذكى فى تشكك استطلاعات العدو وأجهزة مخابراته إذ أعطى لعنصر المفاجأة بعدا جديدا لم يستخدم من قبل وهو عنصر نشر الشك بين الأطراف المتحاربة جميعا وحصر معرفة الموعد المحدد وساعة الصفر فى نطاق ضيق لأعلى المستويات العسكرية .

وفى جنح الليل ، وأثناء تنقلاتنا فى محاور وطرقات الجبهة شاهدت آلاف العربات بمقطوراتها مغطاة بشباك التمويه ، عربات

ضخمة جديدة ، وأسلحة ومعدات تأتى هنا لأول مرة وأطقم دبابات ومدرعات . وأصبح كل جندى يؤدى واجبه المكلف به ومن حوله آلاف التحركات والأدوار التى يقوم بها المقاتلون فى الأسلحة المختلفة، ولم يجد أحد وقتا لكى يهتم بما يفعله الآخرون ، يكفيه ما بين يديه من مهام وأعباء.وبدأ المشروع ، ولكن شيئا جديدا يبدو فى الأمر.. التحركات اليوم تختلف عن تحركات المشروعات السابقة .. الوجوه من حولى أكثر جدية وصرامة .. المعدات القتالية جديدة فى نوعيتها واستخداماتها .. حتى الجنود ، وجوه جديدة لم أشهدها فى الجبهة من قبل،ثم اختلطت المعدات الجديدة مع ما تعودنا عليهھنا منمعدات وأجهزة ، واندمج المقاتلون ، الصامدون هنا منذ أكثر من ثلاث سنوات مع مقاتلين قادمين من مواقع أخرى ، وكأن الجميع على موعد لقاء .

علينا أن نستعد لجديد قادم .

كثيرا ما سرحت بخاطرى وتخيلت وحدتى تتحرك صوب قناتنا .. وتصورت أسراب الطائرات المصرية متجهة نحو الشرق ، وكثيرا ما تمنيت أن أعبر القناة ، والذى يعيش فى هذه المنطقة فترة طويلة ويرى بعينيه كل يوم العدو الاسرائيلى هناك والعلم ذا النجمة السداسية الزرقاء (يرفرفه هواؤنا حتى يتمزق ،فيستبدلونه بآخر جديد ، وكم من أعلام استبدلوها) والذى يرى جنودهمالمدللين المرفهين الساخرين ولو مرة واحدة يتمنى هذا وذاك لو عبر القناة ليشفى غليله ثم يموت بعدها ، انه شعور لا يدركه الا من يعانون مشاهدتهم على الضفة الأخرى من قناتنا .

لقد راودتنى أخيلة جنونية ، مثلما راودت آلاف المقاتلين غيرى، أن أعبر القناة سابحا ، وأن أتسلق الساتر الترابى مقتحما السور الشاهق العظيم ، ان المسافة بيننا وبين الضفة الأخرى من قناتنا ،

المسافة من هنا الى هناك تكاد تكون أقرب من المسافة بينى وبين زميل لى كان معى منذ بضع دقائق ، ولكن الوصول الىهذه الضفة يبدو أنه أبعد من الوصول الى القمر ٠٠ لست وحدى فى هذا التصور المتشائم ، فقد صورت الدعايات وأجهزة الاعــلام والحرب النفسية المعادية أن العبور أصعب من الوصول الى القمر ، حتى كدنا أن نصدق هذه الأكذوبة ٠

وفى مساء الخامس من أكتوبر ، صـــدرت الأوامر بالتأهب وانتظار تعليمات أخرى ، وكانت مواعيد توزيع الطعام تتناسب مع وقت السحور والافطار ، فأصبحت عادية صباحا وظهرا ومســاء ، والتعيين قتاليا ٠

وعلمت أن غدا يوم حافل ٠

وقضيت الليل ومن معى منتبهين ، نقـــوم باعداد ما سوف ننجزه غدا من أعمال ، وشعر الجنود بأنهم قادمون على عمل عظيم غير عادى ، لقد تدربوا على استخدام الأسلحة المختلفة ، واشتركوا فى عشرات المشروعات ، وجاء اليوم الذى يقومون فيه بواجبهم ، ان كلمة التأهب هنا ، تعنى أحاسيس ومشاعر يصعب وصفها أو شرحها ٠ فالجنود الذين يسمعون ويعرفون عن قدرات العدو وزراعه الطويلة ، والذين يرونه أمامهم شامخا بأنفـــه من فرط احساسه بقدرته وقوته واعجابه بنفسه ، والذين يعلمون ان العدو يملك زمام المبادرة دائما ، وأن قوته خارقة ، وأن ، وأن ، معارف ضخمة عن قدرات العدو وامكاناته العسكرية ٠٠ هؤلاء الجنود اذا قيل لهـم استعدوا وتأهبوا لملاقاة العدو ، فمعنى ذلك أنهم سيشحذون كل قدراتهم وينتبهون بكل ما أوتوا من يقظة وصحوة ، لابد أن تكون أجسامهم كلها عيون وآذان ، ونفوسهم مشحونة بالارادة القـــوية والتصميم وأرواحهممشبعة بالايمان بالقدرة الالهية الجبارة ،يعملون

منذ ست سنوات من أجل هذا اليوم، ورغم التدريب والسلاح والكفاءة القتالية يتوكلون على الله فى كل تحركاتهم ، المصاحف الصغيرة فى جيوب ستراتهم ، آيات قرآنية مكتوبة داخل خوذاتهم ، والمسيحيون منهم يتبركون بالأناجيل ، وقد جاء غبطة بطريرك الأقباط منذ بضع أسابيع وأهدى كل واحد منهم انجيلا صغيرا ٠

وجاء الصباح بنوره الوضاء ، مباركا ليس كمثله أى صباح ، الجميع يعملون بهمة ونشاط ، وكنت أتساءل ٠٠ أين العدو الآن ، ماذا يفعل قادتهم ، وما هى توقعاتهم ، اليوم سبت وهو عيد عندهم وسوف تصل اليهم عربات الزيارات المدنية وبها النساء والفتيات ، وعربات الترفيه ٠

كانوا السباقين دائما للحرب ، يبادرون بالضربة الأولى ، أين مخابراتهم واستطلاعاتهم المشهورة ؟ كانوا وكأنهم يقرأون أفكارنا، يسبقون الزمن ، كانوا وكأنهم يعلمون عنا أكثر مما نعلم عن أنفسنا فماذا يعلمون عنا الآن ؟ هل أخبرتهم أجهزة مخابراتهم بما أراه الآن ؟ أين الأقمار الصناعية التى ترصد لهم التحركات العسكرية وتصور لهم أدق التفاصيل ، هل غفلوا عما يحـــدث هنا أم نحن الغافلون ؟

ومرت الدقائق ، الدقيقة الواحدة لها ألف حساب ، والتأخير عن تنفيذ مهمة واحدة قد يترتب عليه ضياع عدة ساعات ، كل فرد يعمل فى موقعه على الجبهة الغربية لقواتنا المصرية أو فى اتجـاه الوصول اليها ، كان المشهد وكأنه يوم الحشر ٠

ساعة ثم ساعة ٠٠ وفى منتصف النهار كنت ومن معى نقوم بتنفيذ أوامر القائد ، تعليمات وأوامر صـــدرت بالتسلســـل القيادى ٠٠ أقصد كان الجيش المصرى كله يقوم بتنفيذ أوامر عليا موحدة كل فى موقعه ٠٠

وتساءلت ، وماذا لو تلقف العدو زمام المبادرة الآن ؟ ما هو دورنا لو انقلبت فوق رؤسنا طائرات الفانتوم ، وقام العدو بضربة مفاجئة ٠٠ ؟ أليس من حقنا أن نتساءل ونتوقع الاحتمالات ، أليست لدينا تجربة مريرة فى هذا الصدد ، الموقف يكاد يكون متشابها ، وتهديد العدو الاسرائيلى منذ أيام قليلة يرن فى أذنى حينما صرخ أحد كبار العسكريين الاسرائيليين بأن اسرائيل تمتلك زراعا طويلة تستطيع أن تصل بها الى عمق مصر اذا فكرت فى أى عمل عسكرى ؟ تذكرت على الفور التعليمات المشددة التى صدرت الينا ، تعليمات واضحة وصريحة ولا تقبل المساومة : لا انسحاب ، التشبث بالأرض ، التقدم الى الشرق بصدورنا من ينسحب يعتبر خائنا للوطن ، وينفذ عليه الحكم فورا ، وحتى لو لم تصدر هذه التعليمات فان الشعار الذى نسمعه صباحا ومساء بل فى كل لحظة ، هو : (النصر أو الشهادة) ، ولا بديل لذلك ، فاما أن ننتصر على عدونا أو نستشهد ٠ كلمات واضحة وصريحة ٠ هيأنا أنفسنا لتنفيذها ، فقد شبعنا من الكلام ونريد العمل ٠

ما هو دورنا ؟

الشرف أو الموت ، استرداد الحق أو الفناء ، كلمات بسيطة لا تقبل الحلول الوسط ٠ انها حتمية تاريخنا المصرى بكل ماتحمله من معانى سامية من أجل شرفنا وعزتنا وكرامتنا من أجل مستقبل أبنائنا ، من أجل اعادة أمجادنا وتصحيح صورتنا أمام شعوب العالم ٠

قد تبدو هذه العبارات وكأنها شعارات أو كلمات انشائية ، ولكنها كانت فى يوم السادس من أكتوبر عبارات ذات معانى حقيقية ، لها ما يقابلها من قيمة ، مثل العملية الورقية المغطاة

بما يساويها ذهبا في البنك ٠٠ ذلك لأن الجندى الذى يواجه تحديات العدو وسخريته وقوته الهائلة هو فى الواقع صانع التاريخ ومحـول مجرى الأحداث العـالمية والفنان والمهندس الانشائي الذى سيبنى صرح الحضارة المصرية عاليا شامخا ٠ انه يضع روحه فوق كفيه ، ويتقدم بكل ما أوتى من عزيمة وارادة لاسترداد حق مغتصب ، يعطى ما فوق كفيه راضيا ، لتعيش مصر من بعده أجيالا بغير عار أو مهانة ، الجندى المصرى يحـول الآن هـذه العبارات بارادته وبدمه وبروحه الى واقع ينبض بالحقيقة ٠

ماذا أرى ؟

نحن الآن في محازاة الضفة الغربية لقناتنا المصرية ، حشـد ضخم من آلاف العربات والمصفحات والدبابات ، وعشرات الآلاف من الرجال ، كل واحد يعرف دوره جيدا ، لقد تدرب عليه عشرات المـرات ، القوات المصرية من المشـاة ينتشرون يمينا ويسـارا فى صفوف وخطوط منتظمة ، انهم على موعد ، وأى موعد ذلك الذى يتحدد فيه مصير مصر حاضرها ومستقبلها ٠

لسنا وحدنا هنا فى الجيش الثالث الميدانى ، لا بد أن يكون الجيش المصرى كله على موعد لقاء ، الجيش الثانى ، القوات الجوية، القوات البحرية ، قواتنا في العمق ، سماؤنا ، بحارنا ، بل هواؤنا المصرى يشترك فى المعركة ، أنها سيمفونية موسيقية رائعـة ، تتجاوب نغماتها مع متطلبات العصر من ألحان ٠ ولابد أن تكون النوتة الموسيقية متكاملة ، درس كل عازف دوره فى اللحن حتى أتقنه ، متى يبدء ، ومتى يتوقف ، الآلات الموسيقية المشـتركة فى العزف تؤدى عملها معا وفى نفس الوقت ، كافة أسـلحة الجيش ووحداته تقوم بدورها المحدد فى ملحمة العبور حسب خطة كبرى ٠

رأيت أمامي كتائب المدرعات فى صفوف منتظمة تنتشر فى كل مكان .. أفراد المشاه يقومون بمهام سريعة دقيقة استعدادا للعبور داخل قوارب من المطاط ، أشفقت عليهم ، كنت داخل عربة مدرعة أتخذ مكانى بين الحشد العظيم ، أخرجت رأسى من العربة لأرى الجنود الذين سيعبرون بعد قليل لأرى وجوههم عن قرب ، أردت أن أشاهد وجوه الرجال قبل لقاء الموت ، ماذا ستكون تعبيراتهم ، انهم من غير شك يقدرون ما يقدمون عليه من أعمال ، انهم يعلمون تماما أى جحيم من النيران سيواجهونه بعد قليل ، لحظات ويبدأ كل شىء لينتهى كل شىء .. يا الهى .. ما هذا الذى أراه ؟ عيون الرجال تفيض بالحياة ، تعبيرات وجوههم ملؤها البشر والاطمئنان ، حركاتهم البدنية تتسم بالثبات والقوة ، انجازاتهم العملية تتم فى سرعة ويقظة . ومازالت الخواطر تدور فى ذهنى مثل شريط سينمائى تزاحمت لقطاته وتداخلت وتكثفت حتى أصبحت مثل مشاهد حلم فى ليلة صيف ، دقيقة واحدة بها عشرات الأفكار والرموز ، خاطر سريع عبر فى ذهنى بأن هؤلاء الرجال سيصبحون أشلاء متناثرة بعد دقائق ، والا فما فائدة مئات الآلاف من الألغام التى بثها العدو على طول القناة ، وتلك الفوهات التى سينهمر منها النابالم والبترول والغازات التى ستقلب سطح ماء القناة الى جحيم من النيران تحرق وتخنق وتقضى على كل العابرين السابقين منهم واللاحقين .

ليتنى ما قرأت عن نقط الانذار الالكترونى ، وعن استعدادات العدو لمواجهة أى محاولة عبور من جانب قواتنا . اننا والحمد لله واثقون من قدراتنا البشرية والمادية ، وكفاءتنا القتالية عالية ، والتدريب على استخدام الأسلحة بلغ حد الاعتياد ، ودوافعنا لاسترداد الأرض لا يماثلها أى دافع ، ولكن ما نعلمه عن قدرات العدو وامكاناته واستعداده العسكرى جعلنا أكثر ميلا الى التشكك فى قدراتنا ، ولم

نكن وحدنا فى ذلك التشكك ،فقد كان أعداؤنا وأصدقاؤنا كذلك وان تفاوت حجم الثقة فى قدراتنا بين جماعات وجماعات •

ما زلت أذكر برامج الاذاعة الاسرائيلية باللغة العربية التى كانت تنهج بهدف واضح ومحدد بأن المصريين أصبحوا غير قادرين على خوض أى معركة حربية ، كان الجندى المصرى الفلاح يكتشف بنفسه وبدون توعية من متخصص أكاذيب ومهاترات العم حمدان ، وقد أفادتنا الدعايات الاسرائيلية بدون قصد منهم فقد جعلت جنودنا يشحذون قدراتهم من أجل ذلك اليوم •
لحظات من التشاؤم مرت بلا رجعة ، فقد غمرتنى قوة دافعة خلصتنى من كل فكرة متشائمة ، قوة داخلية لا أجد لها تفسيرا ، عجزت عن اخضاعها بنظريات علم النفس ، قضت هذه القوة على الشك وحولته الى قوة كامنة ، أصبحت انسانا آخر بقدرات أخرى وامكانات لم أعرفها من قبل •• كان مؤداها فكرة أننى لست وحدى فى المعركة ، سألتقى مع الموت وهو شرف لى ، نحن جميعا هنا نواجه قدرة العدو التكنولوجية بارادتنا وبعزيمتنا ، بهيات جديدة فذة تفوق ما نعرفه عن أنفسنا وعن قدراتنا من ايجابيات •

توارد فى خاطرى لقاء كان مع القائد الأعلى للقوات المسلحة هنا فى الجبهة •• قال الرئيس : ان أمامنا معركة طويلة ومريرة وعلينا أن نستعد لها ، وقد أعد لكل شىء عدته ، انها معركة المصير •• كلمات موجزة وبسيطة ولكنها تنطوى بغير شك على مسئوليات جسيمة ، ووعد وميثاق الرجل العالم بالأمور ، اتجاهات محددة لا تقبل البدائل •• فاذا أضفنا الى هذا الدافع الوطنى الأصيل ما هو راسخ فى نفوسنا منذ آلاف السنين من مشاعر دينية توطدت قبل ظهور الأديان السماوية ، عن وحدة الوجود ، وعن الخلود ، وعن عقيدتنا فى الحياة الأخرى ، تبين لنا لماذا يستهين الانسان المصرى بالموت عند الجادة ، وهل ثمة جادة أخطر مما نحن فيه الآن •

ما لنا نهتم بقدرات العدو وامكاناته الهائلة ، فلتكن ما تكون من قدرات علمية وامكانات تكنولوجية واسعة ، هم يمتلكون ناصية العلم والقوة ، ونحن نمتلك أيضـا العلم والقوة ، قد يكون هناك تفوق تكنولوجى علمى بفضل مساعدة الولايات المتحـدة الأمريكيه لاسرائيل اقتصاديا وعسـكريا ، وهم بلا شـك أكثر منا حضـارة ومدنية ، ولكننا نمتلك ما هو أقوى من العلم والقوة والحضـارة ، اننا نمتلك الحق والارادة القوية ،ونمتلك أيضا شعورا دفينا بالخزى والعار ، وكان علينا أن نمحوه ، ومحوه لا يتم الا بعمليات عسكرية قتالية يكون لنا فيها اليد الطولى ، ونأخذ فيها زمام المبادرة ،ونملك حقنا فى الهجوم على القوات المعادية فوق أرضنا .

وتمر الدقائق ويزداد تدفق الدبابات والعربات والصواريخ ، وعربات فوقها مهمات الكبارى ، وآلاف الجنود ، الجميع فى حركة دائبة يمينا ويسارا .

حشد ضخم ، كيف سينتقل هـــذا الجمع الغفير من هنا الى هناك ، كثيرا ما نظرت الى الضفة الأخرى ، وهى قريبة لى بالنظر من أقرب مكان ، وأبعد عنى بالتقدير من النجوم فى السماء ، ان مجرد تصور العبور من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية واجتياز هـذا السور الشاهق أمر لا يخلو من معجزات ، هذا السيل المتدفق من الدبابات والعربات وآلاف الجنود ، كيف سينقلون وفوق أى ممر سيعبرون ، لا شك أن معجزات ستحول الخيال الى واقع ..

معجزات اساسها العلم وليس التمنى .

معجزات قوامها الايمان بالحق وليس التعدى .

معجزات تعتمد على قوى الطبيعــة وليست على غيبيــات ما وراء الطبيعة •

وهذا ما غفل عنه العدو الاسرائيلى فترة طويلة من الزمن ، قدر القـــادة الاسرائيليون بعــد يونيو سنة ٦٧ أن المصريين قوم بدائيون ، وأنهم يعتمدون فى حروبهم على الكم وأن العلم والحضارة بعيدان عنهم •

وقد جاءت حرب أكتوبر لتثبت لهم وللعالم بأن الكم المصرى كان له دور فعال فى الحرب ، وأنه بدون العدد الهائل من الجنود المصريين لما كان للمعدات القتالية الحديثة نتاج العلم والتكنولوجيا تأثير يذكر ، وأن الحضارة التى يشمخون أنوفهم بها لم ترق أبدا الى مستوى طبيعة الجندى المصرى ودوافعه البدائية النبيلة • وسوف تثبت الأيام بعد السادس من أكتوبر أن الصفات التى كنا نعتبرها نواقص فينا اكتشفنا أنهــا ايجابيات وأن بعــض مظاهر التخلف الحضارى الحديث عندنا هى فى الواقع بعض أسباب القوة الكامنة الخلاقة فى الانسان المصرى ، قوة لم تستطع وسائلهم العلمية الوقوف أمامها أو التصدى لارادتها •

ساعة الصفر

وبدأت الملحمة ...

فى الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر السبت السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ م العاشر من رمضان عام ١٣٩٣ هجرية ، الموافق عيد الغفران اليهودى (الكيبور) .

عشرات الطائرات المصرية تشق طريقها من الغرب الى عمق سيناء ، هدير متواصل من طلقات المدفعية المصرية الكثيفة على طول الجبهة تصب حممها فوق خط بارليف والنقط الحصينة فى الشرق وفوق دشم العدو وأهدافه المنظورة . وأثناء هذا القصف المستمر والطيران المتدفق ، رأيت جماعات من الصاعقة ومفارز اقتناص الدبابات تهم بانزال قوارب المطاط وقوارب أخرى خشبية خفيفة الوزن ، وبحركة سريعة للغاية انتقلوا فى دقائق من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، ليبثوا الألغام والشراك فى مصاطب دبابات العدو وليبطلوا مفعول مواسير النابالم وخزانات الوقود وأحدث ما أخرجته عقول الاسرائيليين الجبارة من أسباب الدمار واعاقة قواتنا من العبور .

وعندما عبر الرجال القناة ألقوا سلالم من الحبال فوق الساتر الترابى وأخذوا يتسلقونها بجرأة وشجاعة لم أر مثلها ، انهم يعبرون بأجسادهم ويتسلقون ساترا ترابيا يعلمون مسبقا انه حقل الغام، لا يفعلون ذلك عن غباء أو جهل وانما يجس فريق منهم الأرض بمجسات الألغام وينزعونها ثم يتبعهم رفاقهم يقتحمون خط بارليف ويهجمون على أفراد العدو وهم فى مواقعهم الحصينة .

رأيت صفحة مياه القناة وقد امتلأت بمئات قوارب المطاط متجهة الى الشرق ، شدنى هذا المشهد العظيم ، أروع ما فعله الانسان المصرى ، قبل أن تمتد الكبارى وقبل أن تستخدم الدبابات والمدرعات عبر الجندى المصرى الفلاح بجسده القناة فى وضح النهار من غير رهبة وبلا خوف ، بقوة وجسارة وشجاعة لا مثيل لها . بايمان بالحق وبالشرف وبعدالة قضيته ، بايمان عميق بالله القادر العظيم الجبار ، عبر هذا الجندى الفلاح ، اننى كلما تذكرته وهو يعبر القناة معرضا حياته لموت أكيد تذكرت وصف النبى الكريم محمد بأن الجنود المصريين خير أجناد الأرض .

اندفعت موجات الجنود عابرة القناة فوق قوارب المطاط الى رمال سيناء الحبيبة ، التى طال الشوق اليها ، وعندما وصلوا الى الضفة الأخرى انكب الرجال على وجوههم ساجدين لله ، شاكرين فضله ، مقبلين الرمال الذهبية ، حقا لقد كانت فى نظرنا جميعا أغلى من الذهب حينما وصلنا الى هناك .

وتسلقت الدفعات الاخرى أيضا الساتر الترابى ، وأصبحت لا أرى غير أجساد المصريين تغطى هذا الساتر العظيم ، وانتقلوا الى هناك حيث شراك ومتفجرات وألغام ، أخذو ينزعونها ويبطلون مفعولها ، ثم تحولوا الى قلاع خط بارليف يدكونها دكا ويهدمونها

بكل ما أوتوا من قوة وعزم بسواعدهم وأجسادهم ، بشىء أقـــوى من السلاح وأعظم من القنابل ، بهذا الذى لا نجد له تقديرا ماديا يكافئه ، بشىء يتميز به صاحبنا الجندى المصرى العظيم ·

وبينما تدور الأحداث بسرعة ونشاط ، كانت المدفعية المصرية تصب نيرانها على طول الجبهة وفوق خط بارليف ونقطه القويـــة وفى نفس الوقت تقدمت وحدات المهندسين لفتح ثغرات فى الساتر الترابى بالضفة الشرقية وذلك باستخدام طلمبـــات المياه القوية ورأينا الساتر الترابى يتهشم وينهار تحت مدافع المياه مثـــــل قطعة هشه من الجبن ، وهذا الساتر الترابى المنيع الذى كنا ننظر اليه مقدرين أنه سد هائل يختبىء وراءه الموت والهلاك ، واليـوم حينما مددنا اليه أيدينا واقتحمناه برؤوسنا انهار وتضاءل وأصبح طيعا لارادة المصريين ·

وعلى الضفة الغربية من القناة جاءت العربات المحملة بالمعديات والكبارى وأسقط المهندسون حمولات العربات فى مياه القنـــاة ، وكلما أسقطوا معدية ألحقوها بأخـــرى ثم أوصـــلوها بروابط حديدية ، وهكذا الواحدة تلو الأخرى ، ثم تمتد الى الشـــرق حتى تم توصيلها جميعا فأصبحت الاولى فى الضفة الشرقية والأخيرة فى الضفة الغربية ·

أى جيش قادر يستطيع أن يقوم بهذا العمل الجبار فى ساعات قليلة ؟ ، هل المعدات وحدها كافية ؟ ان المعدات مهما بلغت من كفاءة لم تكن تساوى شيئا من غير ارادة الجندى المصرى ، كـانت الرغبة عارمة للوصول الى هناك بأى ثمن وهل هنـــاك أغلى من الروح ·

أخذت أتجول هنا وهناك ، أصبح عقلى مثل الكاميرا التى تسجل كل ما تقع عليه العين من أحداث ومشاهد لا يجود الزمان

بمثلها وعندما كنت بالقرب من محطة السويس العسكرية شاهدت جندي الملاحظة فوق مئذنة مسجد المحطة ، بيده منظار مكبر ، وقد رأى زميله على الضفة الأخرى ينزع العلم الاسرائيلى ذا النجمة السداسية الزرقاء ويلقيه أرضا ويزرع مكانه علما مصريا ، وأثار المشهد أشجان الجندى ونوازع دينية عميقة عنده فأخذ يؤذن فى غير موعد آذان ، وكلما انتهى من الآذان أعاده ثانية ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، وكأنه يدعو الناس للصلاة حمدا لله وشكرا، وسرى النداء بين الجنود فى الوحدات المجاورة ، ثم انتشر فى كل مكان حتى شمل قولات الدبابات والعربات القادمة من المواقع الخلفية الى المواقع الأمامية ، وكلما سرت فى طريق سمعت الجنود يهللون ويكبرون وأسلحتهم يرفعونها الى أعلى ، وكأنهم يريدون أن يسبقوا الزمان ، كادوا من فرط رغبتهم فى العبور وملاقاة العدو أن يقفزوا من فوق العربات .

وكما كانت العربات تتدفق من الغرب الى الشرق ، رأيت عشرات الطائرات المصرية تعبر أيضا لتؤدى مهامها هناك ثم تعود بعد دقائق ، وقبل نهاية يوم ٦ أكتوبر تدفقت عشرات من طائرات الهليوكوبتر تحمل جماعات الصاعقة وتنقلها الى هناك لتقوم بدورها المحدد حسب الخطة .

وقبل مرور ست ساعات من ساعة الصفر انتقل من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية من قناتنا المصرية عشرات الآلاف من الجنود المصريين فوق قوارب المطاط ووسائل العبور الاخرى ، اقتحموا الساتر الترابى ،وهشموه ، وانتقلوا الى نقط العدو القوية على طول القناة واستولوا عليها . والواقع ان ارتفاع الأعلام المصرية فوق نقط الملاحظة فى الضفة الشرقية قد أحدثت ردود فعل قوية فى نفوس جنودنا العابرين والمنتظرين لدورهم فى العبور،رأيتهم وقد تحولوا فى دقائق

من حال الى حال ،حدثتحول عظيم فى كيان الانسان المصرى٠المقاتل هنا فى جبهة القناة ، أصبح كالبركان الذى كان خامدا منذ وقت طويل ، ثم ثار فجأة فى باطن الأرض فحرك المعادن المنصهرة ودفعها الى أعلى ، ثم انفجر البركان وأخرج ما بداخله من معادن ٠ كذلك فان عملية العبور الاولى وغرس الاعلام المصرية فوق النقط الحصينة للعدو فجرت فى نفوس المقاتلين القوى الكامنة ، وأظهرت قدراتهم الحقيقية وشجاعتهم واستبسالهم كما أزاحت الستار عما كان مخبأ فى داخلهم من امكانات جبارة يتميزون بها عن غيرهم من المقاتلين ، هذه القدرات والامكانات والمعنويات ليست وليدة هذه السنوات الست فحسب وانما هى تراث الحضارة المصرية الأصيلة عبر سبعة آلاف عام ٠

وفوق المعابر عبرت القوات المصرية القناة وحاصرت النقط القوية للعدو بالدبابات ، وبدأت فى مهاجمتها وتدمير التحصينات وكان العدو قد دفع باحتياطاته المدرعة لنجدة القلاع الحصينة لتمنع سقوطها فى يد القوات العابرة ، ولكن قواتنا سرعان ما أسقطت هذه الحصون الواحد تلو الآخر ، ثم نشط طيران العدو وتصدت له قواتنا ، ثم أسقطت مكامن دفاعنا الجوى للعدو أربع طائرات قبل انقضاء اليوم ٠

وقبل ابتداء اليوم التالى كانت قواتنا المدرعة والمدفعية والأسلحة قد عززت مواقعنا بالشرق ، ونجحت قواتنا فى الوصول حتى عمق ثمانية كيلو مترات شرقا ٠ وقامت المدرعات والمدفعية الثقيلة تحت حماية قواتنا الجوية بصد الهجمات المضادة للعدو سواء كانت محلية أو تكتيكية أو تعبوية ٠

وتوالت البيانات العسكرية صادقة تماما ، تعبر عما أراه هنا

لحظة بلحظة وساعة بساعة ، عندما قال البيان الثانى ان بعـــض تشكيلاتنا الجوية تقوم بقصف قواعد العدو وأهدافه العسكرية فى الأراضى المحتلة كنت أرى هذه الطائرات عائدة من مهمتهـــا تحلق فوق رؤوسنا • ثم تلا البيان الثانى بيانا آخر بعودة جميع طائراتنا الى قواعدها سالمة • وعندما صدر البيان الرابع فى الساعة الثالثة وعشرين دقيقة عن اقتحام قواتنا قناة السويس كنت أشاهد القوارب المطاطة فوق مياه القناة والجنود المصريين يتسلقون الساتر الترابى بأجسادهم ، وكان الساتر الترابى يتهشم ليفتح الطريق أمام مئات الدبابات والمدرعات والمصفحات والعربات المحملة بآلاف الجنود •

وعندما صدر البيان رقم ٥ فى الساعة الرابعة وست دقائق عن نجاح قواتنا فى اقتحام قناة السويس ورفع العلم المصرى فوق الضفة الشرقية للقناة كان صاحبنا فوق المأذنة يهلل الله أكبر ، الله أكبر•

ولما صدر البيان السادس فى الساعة الخامسة مساء بأن العدو قام بدفع قواته الجوية بأعداد كبيرة فتصدت له مقاتلاتنا واشتبكت معه فى معارك عنيفة أسفرت عن تدمير احدى عشرة طائرة للعـــــدو وقد فقدت قواتنا عشر طائرات فى هذه المعارك ، شعرت أننا عبرنا أيضا من مرحلة الاعلام المضلل المزيف الى الاعلام الصادق الأمين الذى لا ينكر خسائرنا عن الشعب وانما يعتمد على النقل الموضوعى لأحداث الحرب كما هى دون اضافة أو نقصان • وقد أكسب هذا الاتجـــاه أفراد القوات المسلحة ثقة فى قيادتهم وتقديرهم لقوة العدو تقـديرا صحيحا ، ولم يمتنع المتحدث العسكرى عن ذكر نجاحات العدو العسكرية وخسائرنا فى الأرواح ، والمعدات • انه أسلوب رشـــيد فى السياسة الاعلامية فقده العدو فى حرب أكتوبر •

فقد نشطت أجهزة الاعلام والدعاية الاسرائيلية نشـــاطا محموما، تضاربت البيانات العسكرية الاسرائيلية فى محاولة للتقليل

من أهمية العبور ، ركزت فيها على أنها عملية مقضى عليها بالفشل !!
واستمرت الاذاعة الاسرائيلية باللغة العربية تواصل الليل بالنهار وانسعرت أجهزة الحرب النفسية المعادية فصدر أول بيان أذاعه الجنرال دفيد آل عازر يوم العبور قائلا انهم سوف يدقون عظامنا ، ثم توالت البيانات من اذاعة أكاذيب بدأت باعلان أن جيش الدفاع الاسرائيلي دمر كل رؤوس الكبارى المصرية ، ثم صدرت بيانات أخرى زاعمة أنه تم تدمير معظم الكبارى ، والحقيقة التى عرفها العالم كله بعد ذلك أن واحدا من الكبارى المصرية لم يدمر لحظة اذاعة هذا البيان •

وتوهم وزير الدفاع الاسرائيلي فى الأيام الأولى من الحرب انها سوف تنتهى لصالح اسرائيل فى ستة أيام وذلك بعد استكمال التعبئة الشاملة وايقاف الهجوم ثم تدمير القوات المصرية والسورية على الجبهتين وعندما أفاق الجنرال دافيد آل عازر من صدمة المباغتة تراجع معلنا أن الجيش وسط معركة وأن الهجوم المضاد مستمر لتدمير كل القوات المهاجمة •

الباب الثانى

الجوهر

- مناخان مختلفان
- الغاية والرجال
- بطولة العمالقة
- تخاذل الأقزام
- الحصاد

تختلف حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ مع العدو الاسرائيلي عن الحروب الثلاثة السابقة فى نتائجها ، فقد كانت الغلبة فيما سبق من نصيبهم ، ولكن الجندى المصرى الذى حارب فى المرات الاربع لم يختلف فى جوهره الانسانى ، لقد توفرت عنده السجايا المصرية الأصيلة ليس فقط فى صراعه مع عدوه فى الحروب الأربع ، ولكن منذ أن عرف المعتدون عبر التاريخ طريقهم اليه ٠

مناخان مختلفان

عندما تتناول سلوك الانسان المصرى فى حرب أكتوبر ، تتعرض للموقف أو المجال الذى كان يحارب فيه ، فالجندى المصرى كان يعرف تماما أنه يواجه عدوا متقدما حضاريا ، كما يعلم أيضا أن عدوه يستعرض قوته أمامه منذ سنوات وأن أسباب القوة وعواملها متوافرة للعدو ماديا ومعنويا ، والجندى المصرى شأنه فى ذلك شأن المصارع الذى يدخل الحلبة وهو يعلم أن منافسه شديد البأس كسب جولات كثيرة وفاز بتأييد وإعجاب وحماس الناس فى كل مكان . وقد كان المجال الذى يعيش فيه الجندى المصرى قبل السادس من أكتوبر مشحونا بتأثيرات الدعاية الاسرائيلية الضخمة لقدرات العدو وامكاناته ، وكانت الاذاعة الاسرائيلية توجه برامجها باللغة العربية بقصد خفض الروح المعنوية لمقاتلينا فى الجبهة ، والجنود المصريون أحيانا يسمعون هذه الاذاعات ويكتشفون بأنفسهم مدى تلفيقها وخداعها ، وقد أجريت دراسة استقصائية لمعرفة مدى تأثير الاذاعات الاسرائيلية الموجهة لقواتنا

فى جبهة القناة والبحر الاحمر فى عام ١٩٧١ ، اتضح من نتائجها أن نسبة ١٥٪ فقط من العينة يستمعون الى الاذاعة الاسرائيلية باللغة العربية منهم ١٢٪ يستمعون الى الأغانى العربية والموسيقى و ٣ ٪ يستمعون الى برامج العم حمدان ويسخرون مما تحتويه من أكاذيب وبعد عن الحقيقة – ونسبة ٣٥٪ استمعوا الى الاذاعة ثم امتنعوا عنها ٠

والواقع أن هذه النسبة العالية من عدم تصديق الدعايات الاسرائيلية لها دلالات نفسية هامة ، ذلك لأن الجنود المصريين الذين يرابطون فى مواقعهم المتأخمة لمواقع العدو فوق أراضينا لا تنقصهم المعارف عن العدو فهم يعيشون فى مجال الحرب وتوقعاتها منذ فترة طويلة ، ويقومون بالمشروعات والتدريبات من أجل يوم الخلاص ، ويهمهم فى المقام الاول أداء المهمة الملقاة فوق كواهلهم دون ارجاء ٠

والجندى المصرى الفلاح لا يغرق نفسه فى قراءة التحليلات السياسية ودراسة موقف العدو أو استراتيجيته ٠ فهو على سبيل المثال لم يقرأ ولم يناقش نظرية الأمن الاسرائيلى ولم يعرف شيئا عن الحدود الآمنة أو قدرة اسرائيل على الردع ، فكل هذه تسميات يتداولها العالمون بشئون السياسة والاستراتيجية العسكرية، ولكنه يعلم أكثر من ذلك بأسلوب آخر بسيط وسهل ، فقد عاش صاحبنا المحنة منذ بدايتها ، لم ينهمك حول الفكرى العسكرى الاسرائيلى وأبعاد الموقف السياسى أو الاتجاهات السياسية للمشكلة ٠٠ ولكن ٠٠ عندما قمت باجراء لقاءات شخصية مع عشرات الجنود فى الوحدات لمعرفة ما هو تصور الجندى المصرى العادى للعدو الاسرائيلى كانت اتجاهات الجنود تسير وفق المفاهيم الآتية : –

– الجنود المصريون يعلمون أن قناة السويس تحول دون

وصولهم للعدو ، وأنه لو كانت الارض منبسطة أمامهم لتسللوا الى أفراد العدو فى مواقعهم وحطموهم ، وأن المجرى المائى عائق يعوق حركته ورغبته فى الوصول الى العدو ، وكثيرا ما سمعت الافراديعبرون عن رغبتهم فى النزول الى المجرى المائى ويسبحون حتى يصلوا الى العدو - والجندى المصرى كان يعلم ان اسرائيل نفسها بعيدة عنه وأن قواتها قريبة منه ، وان تل أبيب فى مأمن وأن القاهرة فى خطر •

- والجندى المصرى كان يعلم ان عبور القوات المصرية للقناة لن يتم من تحت الماء بعيدا عن رؤية العدو ، وانما سيتم فوق سطح الماء وفى مشهد نقط الملاحظة وعيون القوات الاسرائيلية المرابطة على الشاطىء الآخر من قناتنا • فجنود العدو يرصدون جميع تحركاتنا بالتلسكوبات وأبراج المراقبة العالية التى تدور بمن فيها يمينا ويسارا •

والجندى المصرى كان يعلم أن أى تحرك من جانبه فى اتجاه الناحية الاخرى سيتم فى فترة زمنية كفيلة باتاحة الفرصة أمام العدو للتعبئة الكاملة والاستعداد التام قبل وصوله اليهم •

- والجندى المصرى كان يعلم أن الساتر الترابى وخط بارليف حاجزان قويان فيهما من الضخامة والقوة ما يجعله يتصور خطورة عملية العبور الى العدو •

فاذا كان صاحبنا يدرك من خبرته اليومية ورؤيته لمواقع العدو وتحصيناته ومن معايشته داخل المجال الفعلى والمناخ الحقيقى للمشكلة، فهو فى واقع الامر يحيط احاطة كاملة ، دون قراءة أو جدل ، بأحد الدعامات الاساسية لنظرية الحدود الآمنة الاسرائيلية •

- والجندى المصرى كان يعرف أيضا أن العدو الاسرائيلى يرصد

حركاته ، ويعلم أن أمريكا ترسل أقمارها الصناعية الى المنطقة لخدمة الأغراض العسكرية الاسرائيلية ، وما حرب ٦٧ بعيدة عن الأذهان ، ألم يأخذ العدو زمام المبادرة فحطم الطائرات المصرية فوق الأرض ، ويعلم أيضا أن اسرائيل متفوقة فى سلاحها الجوى ، وأن طائرات الفانتوم قادرة على تهديد العمق المصرى والعربى ٠ وان أى هجوم عربى كفيل بأن يقضى عليه فى بدايته بالضربات البرية المركزة وبالقوات المدرعة ٠ وهذه مدن القناة الثلاث أمام الجنود المصريون ، هاجر منها سكانها وأصحابها الاصليون وأصبحت معظمها خرائب يعيش فيها صاحبنا الجندى المصرى منذ ست سنوات ، حدث ذلك بفضل ضرب المدفعية المركز ٠

– كان الجندى المصرى يعرف قوة اسرائيل من واقع مايراه أمامه، ويدرك أبعاد المشكلة على الطبيعة ويلمس النظريات الاسرائيلية العسكرية دون أن يدرسها أو يقرأها ، حسبه ما يعانيه فى حياته وما يراه بعينه هناك ٠ هو فى موقعه ليقطع هذه اليد الطويلة ، فقد طالت كثيرا وأصبحت تهدد الزوجات والامهات والاطفال والآباء ٠

– الجندى المصرى الذى كثيرا ما سبه نظيره الاسرائيلى هناك، يكمن فى موقعه وسط المنازل المحطمة ، يرى كل يوم فيلات بورتوفيق وقد تحولت الى خرائب ، والأشجار التى كانت يانعة خضراء تسر الناظرين احترقت بفعل نيران العدو ، وهذه أراجيح الأطفال محطمة فى الحدائق ، وآثار حياة هانئة لسكان مدينة أصبحت أطلالا، الغربان تقطن المساكن ، الأرض مغطاة بأوراق الأشجار الجافة والمحترقة ٠ مدارس ومستشفيات ومؤسسات كلها حطام ، نكاد العين لا ترى حائطا واحدا سليما ، فجميع المبانى قد أصابتها نيران العدو ، وهو يعلم جيدا متى وكيف تم ذلك ، ويعلم أيضا

أين هم سكان هذه المدن وقد كانوا أصحاب أرض وعقار ، وكانوا يكسبون المال الحلال من أعمالهم الحرة ومن البحر ۰

لم يكن صاحبنا هنا على الضفة الغربية من القناة غافلا عما يفعله الآخرون وعما يمكن أن يفعلوه لو قامت العمليات العسكرية ان المناخ الذى كان يعيش فيه الجندى المصرى هنا مشحون بكل مثيرات النخوة والشهامة المصرية الاصيلة ۰ الأرض الخراب هنا ، المزارع المحترقة ، البيوت المهدمة ، أصحابها المهاجرون ، القناة المعطلة ، العدو القابع هناك الساخر منه ۰۰ كل هذه الصور والمشاهد اليومية غرست فى نفس الجندى المصرى هنا فكرة مؤداها ان ما حدث فى هذه المدن يمكن أن يحدث فى قريته وأن أمه وأبيه وزوجته وبنيه يمكن أن يهاجروا من قراهم كما هاجر أصحاب هذه الأرض الطيبة بعد أن تحطمت ديارهم ، فالتهديد مباشر والضرر موجه الى قريته وحقله وأسرته بل والى شرفه ۰

ماذا ننتظر من جندى يعيش فى هذا المناخ ؟

ماذا يمكن أن نجده داخل فكره ووجدانه نحو عدوه الذى أمامه ؟ ۰

فى استقصاء للرأى تم اجراؤه على عينه تمثل الجنود المصريين فى جبهة القناة والبحر الاحمر عن الأعمال التى ترفع الروح المعنوية وتزيد من رغبة الجنود فى الحياة العسكرية جاءت النتجة كالآتى : ــ

ــ ٨٣٪ من الجنود يرون أن عبور القناة وملاقاة العدو هو أعظم الاعمال الكفيلة برفع الروح المعنوية ، بينما جاءت بقية الآراء اجابات أخرى متفرقة ۰

ــ ومن المواقف الجديرة بالذكر أنه بعد حرب الاستنزاف وقرب

نهاية سنة ١٩٧٠ تم انشاء معسكرات للترفيه عن الجنود المصريين، وأثناء انشغال الجنود باللعب والسباحة كنت أقوم باجراء مقابلات مع بعض الجنود الذين كانوا يعبرون القناة ويقومون بعمليـــات خاصة من مواقع العدو ويأسرون أفراده ، كما لاحظت كيف كان جنودنا يشعرون بالفخر والسعادة وهم يقصون مغامراتهم فى العبور واستهانتهم بالموت ، ويكفيهم أن يقوموا بعملية ناجحة ثم يستشهدوا بعدها ، كانوا يضعون شارة العبور فوق صدورهم ويزهون بها ، ويأملون أن تتاح لهم الفرصة مرات أخرى لعبور القناة ٠ وكـان زملاؤهم يتركون حمام الســباحة واللهو وينضمون الى جماعتهم يشاركونهم مشاعرهم فقد كانوا جميعا يعيشون فى مناخ العبــور والقضاء على هؤلاء الغرباء ٠ ويمكن القول بأن مشهد العدو فى الضفة الأخرى من قناتنا كان بمثابة المثير أو الباعث أو المنبه الدائم لمشاعر جنودنا ، وهذا الوجود الاسرائيلى هناك جعل جنودنا فى حـــالة استفزاز دائم وعدم استقرار وقلق ، وترتب على ذلك شعورا بالتوتر وعدم الاطمئنان ، كان المجال المحيط بالجنود المصريين على الجبهة مشحونا بالمثيرات والمنبهات فمن أين يأتيهم الاطمئنان والهدوء ؟ يكفى الجندى أن يكون داخل هذا المجال ليواصل تدريبه بهمـــة ونشاط وليستعد ليوم الخلاص وتطهير الأرض من الغرباء ٠

لقد اشترك الجنود فى عشرات المشروعات والبيانات وقاموا بعمليات عبور قنوات مماثلة لقناة السويس وتسلقوا سواتر ترابية مشابهة لهذا القائم هناك ، وواجهتهم نيران بالذخيرة الحية تشبه تلك المتوقعة يوم العبور الحقيقى ٠

ومن ناحية أخرى ٠٠

ماذا عن جنود العدو المستقرون هناك ؟

منذ ست سنوات أو يزيد مرت ، والعدو يعتقد أن الارض

ستتحول الى ملكية شرعية تنضم الى الدولة لتكون اسرائيل الكبرى وأنه بحلول عام ٢٠٠٠ ستصبح اسرائيل مركزا للاشعاع الحضاري في منطقه الشرق الأوسط ، وقد أصدرت أجهزة الاعلام الاسرائيلية سنة ١٩٧١ نشرة بعدة لغات فحواها تصور اسرائيل لمنطقه الشرق الأوسط سنة ٢٠٠٠ ، جاء فيها احصائية عن عدد السكان في كل بلد عربي ، والاعداد مخيفة حقا ، كذلك ذكرت هذه النشرة الدخل القومي وكمية البترول المتبقي والمستوى الثقافي والحضاري للعرب ونسبة التعليم والأمية ، والبيانات جميعها تعتمد على الاحصاء ، وقد أدخلوا الأرقام في آلاتهم الحاسبة وعقولهم الالكترونية الجبارة وأخرجت هذه العقول النتيجة فاذا بها تتوقع ان الدول العربية ستصبح متخلفة حضاريا وان نسبة الامية ستبقى كما هي ، وأن البترول سينضب وسيعم الفقر والجهل والمرض ربوع الارض العربية وسيزداد التناقض بين نظم الحكم العربية ... الخ .

وفي مقابل ذلك سيصبح عدد سكان اسرائيل ٥ مليون ليس فيهم أمي واحد ، وستمتلك اسرائيل زمام الحضارة والمدنية في منطقة الشرق الاوسط من جميع الوجوه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية . وخلاصة القول ان اسرائيل ستكون الشعاع الحضاري الوهاج في المنطقة ، وسوف تقوم بواجباتها والتزاماتها الحضارية والانسانية تجاه البلاد العربية ، وسوف تتولى انشاء المشروعات الاقتصادية والعمرانية المختلفة ، وسوف تقيم السدود وتستصلح الاراضي وتنقذ ما يمكن انقاذه من مظاهر التخلف الحضاري العربي !!

وهناك على الضفة الاخرى من قناتنا اعتاد جنود العدو الحياة الطبيعية الهانئة فوق أرض مغتصبة ، وكلما مرت الأيام وتلاحقت السنوات ازداد اعتقادهم باستمرار الحال ، وأحدث مرور

الوقت حالة من الهدوء والاستقرار تحولت الى مناخ من الاطمئنان النفسي والثقة الزائدة فى قوتهم وحضارتهم ، وترتب على هـــذا المناخ تركيب نفسى استرخائى بلغ ذروته يوم السادس من أكتوبر حيث تقابل الفريقان ، فريق مستقر ومطمئن وفريق مستفز وغير مستقر ، بين فريق مسترخى وفريق مشحون بانفعالات قلقة ثائرة تقابل الفريقان وجها لظهر فقد ولى الفريق المستقر أمام الفـــريق المستفز الأدبار ٠

الغاية .. والرجال

اذن فقد جاء اليوم الذى نحرر فيه سيناء ونعيدها مرة أخرى الى مصريتها .. وهذا حقنا .. أن نقاتل وان لم نفعل سنتحـــول مع الزمن الى شعب من اللاجئين ، اننا نقاتل لنقطع كل يد تمتد الى النيل من كرامتنا ، لنقطع كل يد تمتد لتمنع السلام . نحن نقاتل من أجل السلام ، من أجل الرخاء والرفاهية ، الموت عندنا من أجل الحياة الحرة الكريمة .

هذا هو جوهر حرب أكتوبر ، أو هذا هو الهـــدف الأسمى والغاية النبيلة التى كانت تحـــرك المقاتلين وتدفعهم فماذا عن الوسيلة ؟

يهمنا فى المقام الاول الحديث عن الانسان المصرى المقاتل يوم العبور ، والواقع ان المعدات الحربية الحديثة بدون مقـــاتل تحركه وتدفعه بواعث قوية تصبح لا قيمة لها .

رأيت على امتداد الجبهة عشرات الصواريخ تندفع منطلقــة لحماية قواتنا التى تعبر القناة ، بينما تتقدم (قولات) الدبابات والعربات المصفحة فوق كل الطرق المؤدية الى قناة السويس ٠

رأيت الرجال وهم فى قمة البهجة ، معنوياتهم عالية ،وجوههم مستبشرة يعلوها فرحة غامرة أثناء العبور ، الرجال يتقدمون ، يزحفون نحو الشرق فوق المعابر المنبسطة أمامهم ، انهم يثبــون ويقفزون ، يكادون يسبقون الزمن ، وفوق المعبر طابور طويل من الدبابات أو العربات المصفحة ، الرجال ينظمون المرور ، وعندما يشتد الزحام يتطوع بعض الضباط والجنود من العابرين وينزلون من فوق عرباتهم ويساهمون فى تنظيم المرور ، ان عملية العبور لم تكن أبدا عملية روتينية ، فالجميع يرغبون فى الانتقال فورا الى الجانب الآخر من أجل القتال ، الجميع يتعجلون العبور تدفعهم ارادة قوية للفوز بحقهم فى العبور ٠

وكنت كلما عبرت من الغرب الى الشرق أو عدت من الشرق الى الغرب أحمل معى (خراطيش السجائر) أقدم لكل مقاتل فوق المعابر علبة سجائر ، وكم كانت فرحة جنودنا الذين يصنعــون النصر لمصر عندما يتسلمون الهدية الصغيرة ، وكم تمنيت أن تتحول هذه العلبة الى حجمها ذهبا فى كل مرة ٠ وهناك فوق أحد المعابر كنت أرى الرجل الأول المهندس الكبير المسئول عن الكبــارى كنت أقدم له علبة السجائر مثل أى جندى وكان الرجـل المتواضــع المهذب يتناولها شاكرا ولشد ما كان أسفى عندما عدت يوما من الشرق الى الغرب فوجدته ملقيا وقد استشهد أثناء قيامه بالاشراف على اصلاح أحد الكبارى ، لم يتهاون الرجل لحظة واحدة نحو واجبه ولم يختبىء خشية اصــابة ، لقد قام بأعظم دور فى تنفيــذ خطة المعابر ووالى بنفسه مراقبة سير العملية واصلاح تلفيات الطيران،

والجدير بالذكر ان استشهاد الرجل لم يرجىء العمل أو يعطله ، فقد استمرت أرتال الدبابات والعربات فى العبور وتولى قيادة العمل أحد الضباط فى الموقع ٠

ان مشهد المعبر وفوقه طابور من الدبابات والعربات ومئات من الجنود أمر مثير حقا للدهشة ، هذه المجموعات الهائلة من البشر يتعرضون كل لحظة لغارات العدو ، مدفعيته وطيرانه ، وهــذه النيران تصيب أحيانا وتحطىء معظم الوقت ٠٠ لماذا ؟ لقد انتابت العدو حالة من الزعر وسوء التقدير ، وأصبح التحفظ صفة ملازمة لردود فعله العسكرى ، فالطيران الاسرائيلى لا يؤدى دوره على الوجه الأكمل ، العمل لا يتم بدقة ، الطائرات تحلق بسرعــة ثم تلقى حمولتها أطنانا من القنابل فوق مواقعنا ، ولكن الطيارين كـانوا مضطربين ، يؤدون مهمة صعبة وكأنهم مسوقون قسرا الى الموت انهم لا يحاربون اليوم عن اقتناع ، وانما يهمهم فى المقام الأول أن يعودوا سالمين ، أما أن يصيبوا الأهداف ويدمروا المواقع المصريـة والمعابر فأمر لا يهمهم كثيرا ، ويدل على ذلك ان حمولات الطائرات المعادية كانت تلقى كاملة فوق رمال سيناء بعيدة عن مواقع قواتنا وعن الكبارى ، الحمولات تلقى بهدف التخلص منها وكأنهــا عبء ثقيل ، أما الاصابات فقد جاءت نتيجة للالقاء العشــوائى المضطرب ٠ ومن المشاهد التى كانت مألوفة بعد السادس من أكتوبر أن ترى طائرة أو أكثر تمرق فوق المواقع المصرية وتلقى حمولتها كيفما اتفق الالقاء ، ثم تقع الطائرة فى مدى الصواريخ المصــرية فيصيبها احداها مباشرة ، ثم تتهاوى محترقة ، وكان هذا المشهد يتكرر ، وكان يحدث أن تقع ثلاثة أو أربعة طائرات فى وقت واحد أو أوقات متقــاربة فتجد الجنود ينظرون الى السماء فيشاهدون مجموعة الطائرات المعادية ، ثم يتوقعون اندفاع الصواريخ الى أعلا واصابتها للطائرات واسقاطها محترقة ، وتصدق توقعاتهم فى دقائق

معدودة ، يشاهدون كل ذلك وهم مستبشرون يهللون ويكبرون وتتهادى الطائرة فيصفقون لدفاعهم الجوى ويندفعـــون فى اتجاه الطائرة المحترقة ليكون لهم شرف أسر طياريها أو الوصول الى جسم الطائرة المعادية ·

هذه المشاهد اليومية صنعت فى جنودنا الفلاحين المصـــريين الكثير ، انها صور من أعظم ما أخرجت حرب أكتوبر ، لحظـــات محو العار لا تقدر بثمن ، غسل ما ترسب فى نفوس الرجال من هم وغم وشعور مبهم بامتياز جيش العدو وتفـــوقه ، آثار الماضى الكئيب تمحى الآن بسرعة وقوة وحسم · وكلما فشلت طائـــرة معادية فى اصابة الهدف ، تصححت عند صاحبنا المصرى الأصيل فكرة خاطئة عن مهارة العدو وكفاءته ، فاذا سقطت الطائرة بفعل الصواريخ المصرية تهاوت معها أســـطورة أن طيران العـــدو لا يخطىء أبدا·وعندما يتم أسر طاقم الطائرة أو الدبابة الاسرائيلية تسقط أسطورة أخرى عن قوة العدو التى لا تقهر وجيشـــه الذى لا ينهزم أبدا ·

لقد دأبت أجهزة الدعاية الاسرائيلية فى السنوات الماضية على ترويج الاسطورة،وضخمت من كفاءة أسلحتها ومدفعيتها ومدرعاتها ثم جعلت من خط بارليف معجزة فاقت ما أنتجه الفكر العسكرى على مر التاريخ ، ومن المؤسف حقا ان تسير بعض الصحف العربية على درب الدعاية الصهيونية دون قصد ، حتى أن بعض المقـالات الجادة المصدقة فى معظم الوقت كانت تصور عملية العبور من جانب قواتنا الى الضفة الآخرى عملية مقضيا عليها بالفشل ، اذأن القناة ستنقلب ساعتئذ الى جحيم حقيقى بفعل الأجهزة الالكترونيـــة وأزرار الانذار ، وأن أنابيب النابالم ستدفع المســـحوق الرهيب مشتعلا ليحرق العابرين المغامرين ··· الخ أنباء تحمل التشاؤم وتضعف الهمة ، وتخيب الآمال ، وان كانت النوايا طيبة ورغم هذه

الأنباء المتشائمة فانها لم تؤثر فى معنويات مقاتلينا يوم السادس من أكتوبر ، فقد تجاوز الرجال كل أنباء التشاؤم وتجاهلوا كل ما يعرفونه عن قوة العدو ، واندفعوا بأجسادهم الى الأمام غير عابئين بما وراء المجهول .. ثم تهاوت نظرية الأمن الاسرائيلى وسقط معها ما كان يستند اليه الفكر العسكرى الاسرائيلى من مقومات ودعامات .

بطولة العمالقة

انهم مثل سائر البشر ، فى أحجامهم ، وأطوالهم ، وأشكالهم، وقدراتهم • وهم أيضا يختلفون ، فيما بينهم من حيث ميولهم واتجاهاتهم وعاداتهم وثقافتهم •

رأيتهم يوم السادس من أكتوبر وما بعده عمالقة ، رأيتهم أبطالا بكل ما تحمله الكلمة من معان ، أصبحوا عند بدء عمليات العبور صفا واحدا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، كانوا مثل السد الحصين ، أقوى وأكثر طولا وعرضا من خط بارليف• كانوا متجانسين ، متشابهين ، لم أعد أستطيع التمييز بينهم ، فقد تلاشت الفروق بينهم ، الجندى مثل الضابط ، الضابط الصغير مثل القائد الكبير ، أصبحوا جميعا أبطالا عمالقة •

ويحضرنى هنا أن ما شاهدته من بطولات العمالقة ، ومن حركتهم الدائبة واستبسالهم فى العبور وأثناء العمليات القتالية ،

فى نطاق الجيش الثالث الميدانى ، سمعت عن مثله فى نطاق الجيش الثانى الميدانى ٠

كبار القادة الذين قاموا بتضحيات لا مثيل لها ، هنا ،والذين كانوا مثلا عليا ، سمعت عن غيرهم من القادة هناك ، سمعت من مصادر مختلفة قصصا بل ملحمات عن كيفية اشتراك قادة الفرق فى الجيش بأنفسهم فى عمليات العبور التى تمت فى الساعات الأولى ٠

شاهدت وسمعت عشرات القصص عن بطولات القادة والجنود لا يستوعب المكان هنا ذكر جزء من مائة جزء منها ولكننى سأذكر القليل :

رأيت فى أحد المناطق التي كانت قواتنا تدافع عنها لتمنع دبابات العدو من التقدم ، رأيت مقاتلا داخل كمينة منبطحا ، رشاشه فى يده موجها الى العدو ، منكفىء الوجه ، حسبته جريحا، وجدته قد أستشهد ٠ مشهد طبيعى معتاد أثناء الحرب ، ولكن الجديد الجدير بالذكر أن تجد بجوار البطل الشهيد جثتين مدفونتين لبطلين آخرين ورشاشين محبئين ، أيضا بجوارهما ٠ واتضحت الحقيقة ، كانوا ثلاثة يدافعون عن الموقع ويمنعون العدو من التقدم واستشهد الجنديان فى أول الأمر فقام الثالث وكان ضابطا برتبة نقيب بدفن رفيقيه واخفاء سلاحيها بسرعة ثم استمر فى الدفاع عن الموقع الى أن استشهد ٠

وعند نقل جثة الضابط البطل كان فى جيب سترته منديلان يحتويان على ما كان مع زميليه من نقود وساعتين وغيرها من الحاجات الشخصية ، كان ينوى تسليمها الى أسرتيهما ولكنه لم يستطع ٠

وأذكر أيضا أننى عندما كنت أعبر من الشرق الى الغرب أو

العكس ، كنت أصادف بعض الجرحى فى انتظار عربة الاسعاف لنقلهم الى المستشفى ، وأحيانا كانت عربات الاسعاف تتعطل فى الطريق نتيجة اصابة السائق والعربة بقذائف العدو ، عندئذ أقوم ومن معى بنقل الجرحى الى المستشفى .

وفى مرات كثيرة امتنع بعض الجرحى عن تناول كوب من الماء فقد كانوا مصممين على استمرار صيامهم ، رغم اصابتهم الخطيرة .

ولا أنسى مشهد جندى اصابته خطيرة ولم يكن قادرا على الكلام فطلب ورقة كتب فوقها (صائم) .

هذه الوقائع وغيرها تدور كلها حول معانى محددة عن التضحية والرجولة وصفات يتميز بها المصريون عبر التاريخ . فعندما تكافأت كفتى ميزان الحرب أو كادت ، وعندما أصبحت أسلحة العدو ومدرعاته وطائراته وقوته البحرية متقاربة مع ما عندنا ، أصبحت المقارنة المادية متقاربة أيضا وفوارقها طفيفة أما المقارنة البشرية فهى المحك الحقيقى الذى يوضح المتغيرات الفعلية،والاختلاف هنا يكمن فيما بداخل المقاتلين من دوافع وارادة ، وقد عرفنا أن معظم رجالنا من القوات المسلحة قادمون من الريف ، لذلك وصفهم أفراد العدو بأنهم فلاحون . والحقيقة أنهم كذلك وهم أيضا (أولاد بلد) وما بطولاتهم النادرة فى حرب أكتوبر الا امتحانا أظهروا فيه براعة الانسان المصرى ، وأصبحت المقارنة بين الجندى المصرى ونظيره الاسرائيلى هى فى الواقع مقارنة بين الانسان المصرى ونظيره الاسرائيلى بكل مقومات الانسان المادية والمعنوية والروحية ، بكل ما يحمل الانسان من أفكار وتقاليد وقيم ، بكل ما فى روح الانسان من ايمان ومعتقدات ومثل ، بكل ما بداخل الانسان من حضارة أصيلة امتصها « أبا عن جد » عبر آلاف السنين

ولفت نظرى فى حرب أكتوبر أن المقاتل المصرى كانت

تحركه بعض عادات وتقاليد المجتمع المصرى ، فمن المعروف أنأبناء صعيد مصر يثأرون لشرفهم وكرامتهم ، وتصبح حياتهم رخيصة فى سبيل غسل عار أصابهم وقد رأيت ابن الصعيد فى الحرب يفعل كذلك ، وكأن الوجود الاسرائيلى فوق أرض سيناء انتهاكا لعرضه وشرفه ٠

والمصريون من الاحياء الشعبية فى القاهرة أو المدن الأخرى يتصفون بالشهامة والرجولة وما يسمى (بالجدعنة) وقد كانوا كذلك فى الحرب يقاتلون برجولة ويندفعون بحماس كما لو كانوا داخل معركة (عركة) ٠

والمصريون فى كل مكان ، من قرى ريف الدلتا الى قرى مدينة أسوان لا يخشون الموت ولا يرهبونه ولعلهم يألفونه وكأن بينهم وبين الموت صداقة قديمة ، ألم نرهم يسكنون بجوار المقابر وداخلها ويزورون موتاهم فى الأعياد ، كذلك كانوا فىالحرب يدفنون الشهداء من وحداتهم ومن غير وحداتهم ، ويقومون بهذا العمل الانسانى بسرعة ووسط نيرأن المعركة ، والعبرة عندهم هى (اكرام الميت دفنه) ٠

فاذا نظرنا الى مجموعة التصرفات السلوكية للجنود المصريين فى موقف الحرب ، وهو وقت المحنة والشدة ، لوجدنا أننا أمام تراث حضارى قديم ، وثقافة مصرية عريقة ، وأن الاستجابات التلقائية للجنود للمواقف القتالية تتسم بصفات معنوية وروحية يكمن وراءها اعتقاد راسخ فى الحياة الاخرى وفى الخلود ٠

امتزجت القيم المصرية الأصيلة والعادات والتقاليد والمعانى الروحية ، والصفات الموروثة من الحضارة المصرية القديمة بحضارة مصر الحديثة فأخرجت الانسان المصرى فى حرب أكتوبر ٠ فماذا عن حضارة العدو وقيمة وصفاته ؟

تخاذل الأقزام

انهم مثل سائر البشر فى أحجامهم وأطوالهم وأشـــكالهم ، وقدراتهم وهم أيضا يختلفون فيما بينهم فى العادات والتقـــاليد والاتجاهات والثقافة ، ولكن اختلافهم شاسع بين ، فهم ليســــوا مثل المصريين فى الفوارق الاجتماعية بينهم وليسوا أيضا مثل سائر الشعوب فى اختلافاتهم فيما بينهم ، ولا بد أن يكون اختلافهم فيما بينهم غريبا فهم خليط متمايز من شعوب العالم ، من اليمنى الى اليانكى •

رأيتهم يوم السادس من أكتوبر ومابعده أقزاما تائهين .صغروا فى نظرى وهم يتركون مواقعهم وأسلحتهم ثم يفرون هاربين ، منهم من استبسل ولكنهم قليلون • معظمهم زعروا وانتابهم الهلع العظيم عندما شاهدوا العمالقة ينقضون فوق رؤوسهم مثل الصقور ، كانوا فى نظر المقاتل المصرى أقزاما •

ويحضرنى ما شاهدته من تخاذل الأقزام ، ومن فرارهم أمام

جنودنا المشاة ، وهلعهم عندما فوجئوا بقواتنا الراجلة تحيط بهم.
وسمعت عنهم الكثير سواء كان ذلك فى نطاق الجيش الثـــالث أو الجيش الثاني · تشتت قادتهم وتبعثروا ولم يصبحوا مثلا عليـــا لجنودهم ·

سمعت من مصادر مختلفة أنباء تخاذل قادتهم عندما وقعوا فى الأسر ، وتمجيدهم لجنودنا والاعجاب بهم ، ثم حسرتهم على ما أصابهم من هزيمة سببها لهم ساستهم وجنرالاتهم والفكر الصهيوني بصفة عامة ·

رأيت وسمعت عشرات القصص عن تخاذلهم أمـــام جنودنا المشاة المترجلين ، لا يتسع المجال لذكر جزء من مائة جزء منها ، ولكنى سأذكر واحدة منها فقط هى مشهد تسليم موقع بور توفيـــق الحصين ·

استمرت مقاومة هذا الموقع أسبوعا كاملا ·· وكان يمكن لأفراد العدو الاستمرار فى الدفاع عن موقعهم عدة أسابيع أخرى ،فعندهم الزخيرة الكافية والطعام والثلاجات وصناديق الكولا ·· الخ ، ولكنهم طلبوا التسليم بعد مناوشة بعض أفراد قوات الصاعقة المصرية لهم، وبعد اذاعاتنا الموجهة الى الموقع باللغة العبرية عن خسائرهم وعن أسماء الأسرى من قادتهم وزملائهم ·· وقد طلبوا الاستسلام بحضور مندوبى الصليب الأحمر ·· كان عددهم سبعة وثلاثون من الضباط والجنود ·· وبعد تسليم الموقع للقائد المصرى · وعند دخولنا الموقع الحصين كتمنا الأنفاس ، فقد واجهتنا رائحة جثث خمسة من قتلاهم ملقاه فوق الأرض ، منتفخة ، فوقها وحولها كميات هائلة من الديدان والحشرات !

ما زلت أتساءل هل الديانة اليهودية تمنع دفن الموتى بغـــير طقوس ؟ وان كان الأمر كذلك فما دور الضابط الطبيب الذى كان

ضمن الأحياء بالموقع ، هل يخشى دفن الموتى دون طقوس دينية ، أم أن الأمر لا يهمه فى قليل أو كثير ، أو ربما كان القتلى من اليهـــود الشرقيين والاحياء من اليهود الغربيين !!

تذكرت هذا المشهد لتشابه الموقف مع ما صادفه شـــــهيدنا الضابط المصرى وما قام به من دفن جثتى زميليه وحفظ أماناتهم ، ثم مقاومته العدو المحصن داخل الدبابات حتى مات شهيدا •

رأيت ملاجئهم وأماكن معيشتهم فى الضفة الشرقية ، مجهزة بأحدث التجهيزات الايوائية والترفيهية ، مواقعهم المحصنة لا تؤثر فيها القنابل الثقيلة أو المدفعية ، بل ان هواءها مكيف ، ويمكن تنقيته بأجهزة خاصة حتى لا تؤثر فيها وسائل الحرب الكيماوية والغازات السامة ، تركوا مواقعهم المحصنة ، وأسلحتهم خلفهم :كان بامكانهم أن يستخدموا أسلحتهم الفتاكه وذخيرتهم التى لاتنفد لو استخدموها عدة أسابيع أخرى ، كان يمكنهم المقـــاومة الطويلة داخل هـــذه التحصينات ، ولكنهم خافوا من الموت و الاصابة ، لم يضـــحوا بحياتهم مثلما ضحى الجنود المصريون الفلاحون • عزت عليهم حياتهم أن يبذلوها من أجل اسرائيل ، وأن يتركوا حياة الرفاهية ؟

رأيت بعض ملاجئهم ، وبها علامات الأحداث الرهيبـــة ، كانوا قبل العبور فى وضع الاسترخاء ، فرشهم مبعثره وفوق المناضـــد أدوات التسلية ، الشطرنج ، والكوتشينة ، ومجلات البلاى بوى ، وصور لنساء عاريات جنباً الى جنب مع بعض الكتب الدينية، المراتب التى ينامون فوقها مصنوعة من الاسفنج الصناعى ، والمخدات محشوة بالريش ، والطعام فى الثلاجات ، وصناديق الكولا تكفيهم عدة شهور وأجهزة العروض السينمائية وأفلام فاضحة •• وسائل الراحـــــة كلها متوافرة فى جو مكيف الهواء •• ثم اقتحم الجندى المصـــرى

(وهو غير متحضر) موقع عدوه الاسرائيلي المتأمرك المتحضر قبل أن يفيق من المفاجأة ، وسقط فوق رأسه كالقضاء والقدر ، انفض عليه بيديه وأسنانه ليشفي غليله وليمحو عاراً استمر يلاحقه أكثر من ست سنوات .

الحياة غالية عندهم ، والموت رهيب ومخيف لم يألفوه مثلما ألفه المصريون ، كأن لسان حالهم يقول فلتذهب اسرائيل الى الجحيم ولنبق على حياتنا لا يمسسها سوء (ان هي الا حياتنا الدنيا) ، هل يؤمنون بالحياة الآخرة أو الخلود مثلما يعتقد بذلك جنودنا الذين استشهدوا !

ولنا أن نتساءل أيضا ..

هل صدمتهم المفاجأة فلم يحسنوا التصرف ؟ وكيف يفاجئون وهم هنا فوق الضفة الشرقية من قناتنا انتظارا لهذه اللحظة . ألم يكن في حسبانهم أن يبادر المصريون بالحرب ؟ هل المبادرة من حق جيش الدفاع الاسرائيلي وحده ؟ يمكن الرد على هذه التساؤلات بأن المفاجأة واردة حقا رغم توفر أجهزة استطلاعاتهم وأبراجهم العالية التي ترى كل تحرك هنا ، ولكن المصريين لم يكتموا نواياهم لازالة آثار العدوان ، ولم يتوقف حديثهم عن المعركة القادمة وتطهير الأراضي المحتلة كلها لحظة واحدة ، كذلك لم تكف أجهزة اعلامنا عن التصريح بالاستعداد للمعركة ولم تتوقف قواتنا المسلحة عن التدريب والمشروعات العملية شهرا واحدا ولم يسرح أو يخفض الجيش .. بل زاد عدد وعتاده .

لماذا اذن هذا التخاذل الذي أصاب ضباط وجنود العدو عندما واجهوا الجنود المصريين يوم السادس من أكتوبر وبعده ؟ ربما كان للمفاجأة بعض التأثير على أفراد العدو ، ولكن ليست المفاجأة وحدها هي التي تجعلهم يفرون بهذه الكيفية ، خاصة وأن مواقعهم

حصينة ، وربما كان اعتقادهم بأن المصريين لن يجرؤوا على المبادرة بعبور القناة عاملا مؤثرا في استجابتهم للموقف ·

ولكن اذا نظرنا بعين الاعتبار الى التركيب النفسي للاسرائيليين، فسوف نجد أبعادا عميقة لها تأثير هام في اتجاهات الجنود نحو موقف القتال ·· فالتجمع الاسرائيلي متجانس في الاسم ولكنه متناقض تماما في الواقع والفعل ، والتباين الحضارى والثقافي داخل اسرائيل يصعب تذويبه وقت الحرب · فاليهودى الامريكي يختلف في تركيبه النفسي عن اليهودى اليمنى أو التركي أو الروسى ، وهؤلاء جميعا ليسوا على درجة سواء في انتمائهم للارض أو ايمانهم بالمسألة اليهودية ، وهؤلاء الذين نشأوا في أوروبا أو أمريكا يريدون أن يتمتعوا بحياة مادية حضارية هانئة ، واسرائيل في نظرهم ملاذا من اضطهاد الدول الأخرى أو هي الوطن الأم حيث الاطمئنان والتخلص من الشعور بالضياع ، والدفاع عن أرض صهيون أمر قد يكون له أسبابه ودواعيه المقدسة ، وقد تنجح المنظمات الصهيونية في اقناع المهاجرين الى اسرائيل بحقهم في الأرض · ورغم ذلك نعمل على تعميق الانتماء الى الأرض عن طريق انشاء الكيبوتزات على الحدود لكي يملكها سكانها وفي نفس الوقت يتولون حمايتها والدفاع عنها ·

وقد ربطت اسرائيل حقها في الحياة داخل أرض صهيون بنظرية الحدود الآمنة ، وهي تتلخص في ضرورة احتلال أجزاء من الأراضي العربية المحيطة بها حتى تصبح اسرائيل نفسها في مأمن من الهجوم العربى ، ولكن هل اقتنع المقاتلون الاسرائيليون اقتناعا عميقا بنظرية الحدود الآمنة ؟

لقد جاءت حرب أكتوبر لتكشف هذا التناقض · بين ما تزعمه السياسة الاسرائيلية في نظرياتها العسكرية وبين ما يقتنع به

جنودها . ترك الجنود أسلحتهم ومواقعهم الحصينة لأنهم مقتنعون بأنهم فوق أرض مسروقة ، ولم يشعروا ولو للحظة واحدة بانتمائهم لهذه الارض ، فهي غريبة عليهم ، وهم لا يودون البقاء فيها كثيرا ، ويكفيهم ثلاثة أشهر خدمة ثم يعودون الى المدينة حيث مظاهر الحضارة والمدنية ، ولنا أن نتساءل ، هل كان المقاتل الاسرائيلي يرضى أو يقبل البقاء في الضفة الشرقية للقناة يوما واحدا بغير هذه التجهيزات وأسباب الرفاهية ؟

ومن ناحية أخرى ..

ينتمي المقاتلون الاسرائيليون الى حضارات وثقافات متباينة ، وتنعكس هذه الاختلافات عليهم وهم في وحداتهم بالضفة الشرقية أو في أى وحدة عسكرية أخرى ، وعلى ذلك فان الرابطة بين جنودهم ليست وثيقة ، وأذكر في هذه المناسبة أنه عندما كانت توجه اليهم بعض النصوص الاذاعية باللغة العبرية من الضفة الغربية الى مواقعهم بالضفة الشرقية ، لاحظنا أن أفرادهم كانوا يتشاجرون ويتشابكون بالأيدى عندما يتناول النص الاذاعى الخلافات القائمة بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين ، فقد كانت هذه الموضوعات كفيلة بأن يدب الخلاف بين جنود الموقع من الشرقيين والغربيين ، ثم يظهر قائدهم ويجذبهم ليتشاجروا بعيدا عن عيون المصريين الشامتين في الضفة الغربية .. ومن ثم نتساءل هل يشعر المقاتل الاسرائيلي في الضفة الشرقية للقناة بانتمائه الى الأرض مثلما يشعر الجندى المصرى الفلاح بانتمائه للأرض في كلا الضفتين ؟

وقد أجاب على هذا التساؤل الانسان المصرى في حرب أكتوبر

الحصـــاد

ليست معجزة ، وانما هى حصيلة مجموعة من العوامل المادية والتاريخية انصهرت جميعهـــا لتخرج فى نهاية الأمر العبور ٠ لم نستخدم السحر أو الكهنوت وانما كان اعتمادنا على العلموالايمان بحقنا فى الأرض المسلوبة وفوق كل شىء اعتقاد راسخ عميق بالقدرة الالهية الجبارة ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠

وجاء يوم الحصاد ، وتمت أعمال ومنجزات تحمل معـــانى الاعتزاز والثقة بالنفس ٠٠ من زرع خيرا يحصد خيرا ٠٠ من كان جادا فى عمله ينجح فى النهاية ٠٠ الذين أعادوا بناء القـــوات المسلحة ٠٠ جميعهم بدأوا اليوم يحصدون ما زرعوه ٠

الجنود الفلاحون القادمون من قرى مصر من الشـــمال الى الجنوب عملهم الأصلى هو حرث الأرض الطيبة ، ينثرون فيهـــا

البذور ويوالونها بالرى والرعاية ·· ويوم الحصاد تغمرهم السعادة لا لانهم سيكسبون المال فهم أجراء فقراء ، ولكن لأنهم يحصـــدون ما زرعت أيديهم · وها هم أنفسهم فى السادس من أكتوبر قد بدأوا فى حصاد ما زرعوه من جهد ومعاناة ومن تدريب شاق على استخدام أسلحة ومعدات معقدة لم تالفها حضارتهم الريفية البسيطة من قبل· لا شك أنهم بذلوا جهدا زائدا حتى يتوافقوا مع هذه المعدات ويعتادوا استخدامها ويتمكنوا من التآلف معها ··· لقد تركوا أرضهم الزراعية تركوا ذويهم وعاشوا حياة جديدة كانت فى أول الأمر غريبة ثـــم أصبحت قريبة الى نفوسهم ،·وكانت فرحتهم غامرة عندما عبـــروا قناتهم ولاذ أمامهم أبناء الحضارة الامريكية بالفرار ·

·· ·· ··

الجنود المثقفون من ذوى المؤهلات العالية ·· أتموا فتـــرة تجنيدهم الاجبارية منذ فترة طويلة ، واستمر تجنيدهم عدة سنوات أخرى لحين ازالة آثار العدوان · تركوا وظائفهم المدنية ، منهــــم المهندس ومنهم الطبيب ومنهم المدرس ، جميع التخصصات العلميـــة والفنية تجدها فى القوات المسلحة · خريجو الكليات النظرية والعملية والمعاهد العليا والمتوسطة ، جميعهم أرجأوا آمالهم الشـــخصية ، وعطلوا بناء مستقبلهم فى الحياة العملية من أجل دفع ضريبـــة الوطن ·· تركوا مصانعهم ومدارسهم ومستشفياتهم ، ومنهم من كان يستكمل دراسته العليا قبل التجنيد فأرجأها حيث لا يتسع الوقت للبحث والدراسة ، تفرغوا للحياة العسكرية بخشونتها ومتاعبها ، وكرسوا معارفهم العلمية للخدمة العسكرية كل فى تخصصه الفنى، زرعوا بذورا صالحة وهم اليوم يحصدون ثمارا طيبة ، يجنون اليوم محصول جهدهم وكفاحهم فى تحرير الارض ·· وهم مستبشرون ولهم فرحتان ·· فرحة النصر بالعبور ·· وفرحة توقع العودة الى حياتهـم المدنية والاستمتاع بحقهم فى العمل والوظيفة والزوجة والبيت ·

•• •• ••

الضباط من دفعات الاحتيــاط ، والضــباط المكلفون من التخصصات العلمية المختلفة ، قاموا بأدوارهم كل حسب رتبتــه وتخصصه ، استوعبوا مهامهم الفنية بجدارة فائقة ، وتعاونوا مع زملائهم من الضباط العاملين وحملوا معهم عبء المسئولية الجسيم دون كلل أو تراخ ، بل ان روح التنافس فيمــا بين جميــع فئات الضباط فى التدريب وأثنـــاء المشروعـــات والبيانات العملية المتكررة قد أكسب الجميـــع خبرات عســكرية جمة ، كذلك فان المعاهد الفنية بالقوات المسلحة قدمت آلاف الخريجيين فى التخصصات الفنية العسكرية ، وتشعبت أعمالهم لتشمل أسلحةالجيش المختلفة ·· بذلوا جميعا جهودا جبارة فى العمل المتواصل والتدريب الشاق، بل ان منهم من استحدثوا معدات وأجهزة جديدة ، وساهم الجميع فى تعديل أساليب تقليدية او استبدالها بأخرى حديثة ··· وكان لابد أن يتدفق المحصول من بين أيديهم وفيرا غزيرا يوم الحصاد ·

•• •• ••

وهؤلاء القادة الذين وضعوا فى أماكنهم الصحيحة منذ البدء فى عملية اعادة بناء القوات المسلحة ، نهجوا منهجا علميا صحيحا فى التخطيط على أعلى المستويات وبأعظم القدرات والكفاءات ·· لقد حملوا فوق كواهلهم مسئولية التخطيط الدقيق لتحرير الارض ، وصمموا برامج التدريب ، وتابعوا سير المشروعات والبيانات العملية بيقظة فائقة ، وأولوا الانضباط العسكرى أهمية بالغة فى مراحل التدريب والمشروعات ، وتجمعت لديهم « تقارير النجاح » التىتوضح مدى التقدم فى استيعاب المقاتلين لبرامج التدريب على استخدام الأسلحة الحديثة وعلى المناورات ، ولم يكف التفتيش على بــرامج

التدريب العسكرى فقط وانما امتد ليشمل كل ما يدخل فىحياة الجندى من ملبس ومأكل ومشرب واعاشة ، لقد فاق تخطيط القادة لاعادة بناء الجندى المصرى . بالاضافة الى اعادة بناء القوات المسلحة كل الطاقات البشرية الممكنة . وواصل الرجال الليل بالنهار من أجل رفع الكفاءة القتالية للضباط والجنود . ومنهم من استشهدوا وهم يعملون فوق مكاتبهم أو أثناء المناورات . وتشهد سجلات المستشفيات العسكرية الحالات المرضية لكثير من القادة الذين أنهكهم العمل المتواصل وأرهقتهم جسامة المسئولية فانتابتهم أمراض شتى علاجها الهدوء والراحة النفسية والاستقرار فى العمل ، ولكن من أين تأتيهم الراحة والاستقرار ، انه دواء مستعص صعب المنال ، فأمامهم ماهو أهم فى نظرهم من الصحة وراحة البال ... أمامهم تادية الأمانة ، فقد تركت عثرة سنة ١٩٦٧ فى نفوسهم المرارة واحساسا عميقا بذنب لم يرتكبوه . أما وقد خططوا الأرض ومهدوا لزراعتها وتولوا ووالوا استصلاحها وريها فمن حقهم أن يشهدوا جنى المحصول فى يوم الحصاد .

** ** **

** ** **

هل يمكن جنى محصول قبل أوانه ؟

ولصالح من التعجل فى قطع المزروعات قبل نضجها ؟

وكيف يستفاد من محصول غير ناضج لم يؤت ثماره الطازجة بعد ؟

كانت آثار حرب ٦٧ دامية الى أقصى حدود الكلمة من معان . وكسبت اسرائيل أرضا وموقعا استراتيجيا هاما ، وأصبحت فىمركز عسكرى متفوق .. لديها القدرة على الضرب والردع ، ذراعها طويلة تهدد العمق وتصل اليه ...

ومن ناحية أخرى ...

بدأنا من الصفر .. أرض خربة .. تربة تحتاج الى اصلاح جذرى ، ويلزم لها الصبر والتأنى ، بل الحكمة والاعتدال وبعد النظر ، وفوق هذا وذاك تحتاج بشدة الى قيادة رشيدة واعية ، قيادة تستوعب متطلبات العصر ، وتمتلك الفهم الكامل للفكر العالمى ، واتجاهات السياسة وتأثيراتها شرقا وغربا .

كنا نحتاج الى قيادة تمتلك قدرات فذة فى وضع سياسات العالم فى الميزان ، وتملك أيضا القدرة على حساب ما يوزن بدقة وعلى تقدير قيمة الموزون .

هذه القيادة الرشيدة الحكيمة .. صانعة القرار السياسى فى مصر ، القيادة الضابطة لمجريات الأحداث الخارجية والداخلية على السواء ، استطاعت أن تحدد بدقة متناهية توقيتات استصلاح الأرض الجرداء ، والحصول على السماد الصالح لها وتكليف الفلاحين الأمناء ، دون غيرهم ، وتوجيههم ورعايتهم واعدادهم ليوم الحصاد .

وضاقت النفس بعبء احتلال سيناء ، وتعجل القوم جنى المحصول وتعددت الآراء ، وتشعبت فلسفات الجماعات ، كل جماعة ترى موعدا مناسبا لجنى الثمار ، ولكن التعجل فى جنى المحصول أمر والعلم بنوع التربة وكيفية استصلاحها وأنسب وقت للحصاد أمر آخر .

وتمنى المغرضون البدء فى جمع محصول لم تنضج ثماره بعد .

أما الذين لا يعلمون طبيعة التربة فهم مخطئون فى تقديراتهم وان كانوا وطنيين ومخلصين . فالقوم طيبون ولكنهم لا يعلمون .

وظن بعض الناس أن المعركة لن تأتى ، وأن التحدث عنها والوعد بها عملية للاستهلاك المحلى ، وشاع هذا الاتجاه بين الكثيرين ممن يتعجلون الأمور ، فخابت آمالهم ، واعتقدوا أن لا تغير سيطرأ

وكأن عدوى عدم تصديق وعود المعركة قد أصابت كثيرا من دول العالم حتى لقد أصابت هذه العدوى العدو أيضا ، وقد كان مهيئا نفسيا للاصابة بها ، فازداد غرورا وزهوا بقدراته ، واستمرأ احتلال أرض ليست أرضه ، أخذ يخطط وينشىء المستعمرات اعتقادا بأن المصريين لن يحاربوا مرة أخرى ٠

ولم تغير تلك التقديرات الخاطئة والتكهنات المغرضة من الأمر شيئا ٠٠ بل أفادت في تمويه مقصود وغير مقصود ٠٠٠ ولم يمتنع الفلاحون عن حرث الأرض ونثر البذور وسقاية التربة الطيبة بالماء ٠

الكادحون فى الأرض يعملون ، ولم تتوقف الحياة لأن اليهود يحتلون جزءا من أراضينا ، وانما استمر كل شىء يسير فى طريقه الطبيعى ، العمال فى مصانعهم والطلاب فى مدارسهم وجامعاتهم ،دور السينما والمسارح تعج بزوارها والملاهى الليلية بها مئات السياح من الشرق ومن الغرب ، يمرحون فى المدينة ٠

تمتد الطرق وتقام الكبارى والانفاق ، ترتفع العمارات الشامخة ثم لا تلبث أن تكتظ بالسكان ، ويتزوج الشبان والشابات ، ثم تمتلىء البيوت بالاطفال ، والحياة تسير فى المدينة ، وفى القرية ، وفى كل مكان من أرض مصر ٠

وفوق سيناء كانت تشق الطرق وتنشأ المستعمرات ويرفرف العلم الاسرائيلى ، فهناك أيضا تسير الحياة عادية ، والأمل كبير فى أرض جديدة ٠

والكادحون فى الأرض يعملون ، هنا فى الضفة الغربيـــة للقناة وفى كل موقع عسكرى فى أرض مصر · من أجل يوم الحصاد

وكلما تعجل المتعجلون واستاء القوم ، وضاقت الأرض بمـــا رحبت كان على صانع القرار أن يطمئن الناس ، ويخفف آلامهم ، ويجدد وعده بأن المعركة آتية لا ريب فيها ·

ثم ·· لا ينام ·

الباب الثالث

الاستثناء

- التسلل داخل مصيدة .
- الغرباء وأبناء الأرض .
- الشاردون الأبطال .
- الاختيار .

التسلل داخل مصيدة

تسربت عدة دبابات للعدو وانتشرت فى مناطق متفرقة غرب القناة ، اختبأت فى التلال والجبال ، وكلما صادفت هذه القوات المتناثرة دبابات مصرية أو عربات بادرت على الفور بفتح نيرانها ثم تلوذ بالفرار ٠

أذكر أن أحد أفراد العدو كان يجرى تائها فى احدى المناطق الصحراوية غرب القناة فوقع أسيراً فى يد أحد جنودنا ، فلما مثل أمام قائد الموقع كان فزعا ومزعورا ، ولما سأله القائد من أين أتى ، أجاب بأنه كان ضمن طاقم احدى الدبابات ، وقد غلبه الخوف ،فنزل من الدبابة لقضاء حاجته المفاجئة وعندما انتهى لم يجد رفاقه فقد تركوه ولاذوا بالفرار ٠ فأخذ يجرى لاهثا باحثا عن مكان يختبىء فيه الى أن وقع فى الأسر ٠

والواقع أن موقف دبابات العدو فى منطقة غرب القناة قبل وقف اطلاق النيران لم يكن مطمئنا بالنسبة للقائد الاسرائيلى فى هذه

المنطقة فقد كانت الدبابات منتشرة فى أماكن متفرقة لا يربطها بعضها ببعض الا الاتصالات اللاسلكية ، وكان من السهل تماما أن تحيـــط بها قواتنا المرابطة حول المنطقة من الشمال ومن الغرب ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠

لم يكن لاسرائيل وحدها القدرة على الاستمرار فى حرب خاسرة، فقد تآكلت أهم أسلحتها من الطيران والمدرعات وتضخمت خسائرها البشرية فى الأرواح وزاد عدد الجرحى من الضباط والجنود ٠ ثم كان لابد من الاستغاثة ٠

وقد قال صانع القرار السياسى فى مصر فى مؤتمر للصحفيين الاجانب ، ان اسرائيل كانت على وشك الانحدار ، وأنه لم يكن قد بقى لها بعد ١٢ يوما من الحرب الا القليل من الذخيرة ، ولكن الولايات المتحدة تدخلت لانقاذها ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠

كانت اسرائيل دائما وفى كل اقتتال مع العرب تطلب من أمريكا أن تدعهما بالسلاح وبالمال ٠٠ أمـــا الآن فهى لا تطلب تدعيمـــا عسكريا أو سياسيا أو اقتصاديا فحسب ، وانما تطلب انقاذا ، انها استغاثة المستجير من الجحيم ٠٠٠

فقد تساقط الطيران الاسرائيلى أمام شبكات الصواريخ المصرية ثم دمرت المدرعات الاسرائيلية ٠٠٠

والأكثر من ذلك أن المهارة القتالية العالية للقوات المصـــرية والسورية قد فاقت الوصف وكل توقعات أجهزة المخابرات وتنبؤات العقول الألكترونية ٠

اذن فانقاذ أمريكا لاسرائيل اليوم يختلف عنه بالأمس ،فالمسألة أصبحت تتعلق بمصير الدولة وخسارة اسرائيل فى الحرب تعـــنى أمورا كثيرة أهمها التهديد بالانهيار الكامل للدولة والعقيدة والفكـــر الصهيونى كله ·

•• •• ••

ثم صدر قرار مجلس الأمن يوم ٢٢/١٠ بانهاء النشـــاط العسكرى فى فتـــرة ١٢ ساعة وفى مواقع الجيوش الحالية ، والبدء فورا فى تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ واجراء محادثات تحت اشراف مناسب من أجل اقامة سلام ، عادل ودائم ·

•• •• ••

وقبلت مصر واسرائيل القرار

والتزمت مصر بوقف اطلاق النار ، وشاهدنا فى مواقعنا عـلى الضفة الغربية للقناة فى الساعة السابعة و ٥٨ دقيقة اشارات حمراء علامة على بدء تنفيذ القرار من جانبنا ، كنا صادقين فالتزمنا بقـــرار مجلس الأمن ·

وكانت هذه هى الليلة الاولى التى غمضت فيها عيوننا أكثر من ساعة مرة واحدة منذ ليلة الاستعداد للعمليات الحربية ، فالذين يعيشون ويمارسون الحرب لا ينامون واذا نعست جفونهم ســـاعة يفزعون على أصوات المدافع الرهيبة أو على غارات الطائرات ،فيفضلون اليقظة ومواصلة الليل بالنهار ·

•• •• ••

كانت الدبابات الاسرائيلية غرب القناة قبل صدور قـــرار مجلس الأمن يوم ٢٢/١٠ مبعثرة ومنتشرة بين التلال والجبال فى

موقف حرج ، وبينما يدعو القرار بانهاء النشاط العسكرى فورا ، فان الأمر يعنى أن القوات الاسرائيلية غرب القناة قد أصبحت فى مأزق شديد • فقد كانت الدبابات وقتئذ أشبه بالأسماك فى شباك الصياد وكان لابد من تحسين مواقعها بعملية انقاذ من الورطة ، ومن ناحية أخرى لاحراز كسب سياسى مؤقت •

ثم تقدمت الدبابات الاسرائيلية لتحسين مواقعها عن طـــريق قطع الطرق الرئيسية ، وفى هدوء الليل تسربت الى طريق السويس القاهرة حيث قطعته متجة الى جبل عتاقة فى الجنوب •

« واستمرت جماعات صغيرة للعدو تتدفق جنوبا وغربا ، مع تجنب المقاومات المصرية ، وتحاول الانتشار فوق أأكبر مساحة ممكنة والوصول الى أماكن لم تكن موجودة بها عندما سرى قرار وقف اطلاق النار للمرة الاولى (القرار رقم ٣٣٨ لمجلس الامن » • وكانت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية تهدف من وراء ذلك الى الوصول خلف قواتنا لتقطع خطوط امداداتها ومواصلاتها •• وهكذا تداخلت القـــوات المتضادة ، واختلطت بعضها ببعض اختلاطا شديدا •

واستمرت القوات المصرية فى حصر قوات العدو ومنع انتشارها صوب الشمال أو الجنوب أو الغرب كما استمرت فى تدمير كل ماتعثر عليه من مفارز معادية منتشرة فى الجيب المعـــادى غرب القنـــاة وشرقها » (١)

« وعقب وقف اطلاق النار مباشرة بدأ العدو محموما يدفع قوات جديدة عبر القناة الى الغرب ليدعم قواته المحصورة هناك مستغلا احترام القوات المصرية لقرار وقف اطلاق النار وعدم تهديد المعـابر بالتالى أو التدخل لمنع العبور بالنيران •

(١) حرب رمضان ــ الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة اكتوبر سنة ١٩٧٣ تاليف لواء : حسن البدرى ، لواء طه المجذوب عميـد ا٠ح ضياء الدين زهدى ص ١٧٦ •

.. ومنذ الساعة ٢٢٥٠ يوم ٢٢ أكتوبر بدأ تسرب العدو الى الجنوب عبر المسالك والمدقات الجبلية بقوات صغيرة مع تجنب الاقتراب من قواتنا الرئيسية . وانتشرت القوات جنوبا . ثم بدأت تلك المفارز الصغيرة تناوش بعض مواقع الصواريخ المصرية منذ الساعة ٢٠٠ صباح ٢٣ أكتوبر .

وخلال يومى ٢٣ ، ٢٤ أكتوبر استمرت قوات العدو تنتشر جنوبا نحو مدينة السويس وطريق الامداد والمواصلات الرئيسى الذى يربطها بالقاهرة .

وحاول العدو اقتحام المدينة أول مرة يوم ٢٣ أكتوبر ليعوض بها فشله الذريع أمام الاسماعيلية ، الا أن فأله خاب وردته المدينة الباسلة عنها مدحورا .وتصدت له المدينة بقوات من الجيش والشعب هزمته شر هزيمة وردته .. فتابع الانتشار جنوب الجنوب ... وتسللت بعض عناصره الى منطقة الادبية التى لم يكن بها سوى عناصر ادارية قليلة للقوات البحرية (١) . وفى الساعة ٥١٠ يوم ٢٤ أكتوبر أفاد قائد قوات الطوارىء الدولية بأن وزارة الدفاع الاسرائيلية تطلب الموافقة على وقف اطلاق النار اعتبارا من الساعة ٧٠٠ يوم ٢٤ أكتوبر — ووافقت القيادة العامة المصرية على ذلك وأصدرت أوامرها بأن تلتزم جميع التشكيلات والوحدات بايقاف النيران فى هذا التوقيت اذا احترم العدو كلمته .

ولكن العدو لم يحترم عهوده مرة أخرى اذ ركز قصفه الجوى على قوات رأس كوبرى الجيش الثالث ، ثم حاول اقتحام الادبية فى الساعة ٦٥٠ واستماتت رجال الأدبية فى الدفاع عنها ، بالتعاون مع بعض أفراد حرس الحدود .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٩ .

وعندما وصلت الساعة ٧٠٠ وهدأ اطلاق النيران توقفت دبابات العدو بلا حراك أمام الأدبية وتظاهر العدو بحبس نيرانه ثم اندفع فجأة الى داخل الادبية بمجرد أن رأى مراقبى الامم المتحدة يقتربون من المنطقة في الساعة ٩٥٥ حتى يثبت وجوده المسبق هناك ٠

واستمرت بعض العناصر الصغيرة من قواتنا تتمسك بجزء من منطقة الأدبية قرب الساحل خلف قوات العدو لمدة سبعة أيام بعد وقف اطلاق النار الأخير ٠٠ حتى أمكنهم اقناع المراقبين الدوليين باثبات وجودهم هناك » (١)

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٠ ٠

الغرباء وأبناء الأرض

كانت تحركات العدو غرب القناة منذ اليوم الاول للتسلل تتسم بالحيطة والحذر ، ثم تحولت هذه الحالة صباح يوم ٢٣ أكتوبر الى ما يشبه الجرأة المزيفة ، وفي ظهر يوم ٢٤ أكتوبر انكشف الستار عن حقيقة تكوينه النفسى ، وأصبح يود أن ينجو بنفسه من المأزق الذى تورط فيه ، واستمرت حالة الخوف والقلق تسود القوات الاسرائيلية غرب القناة حتى تم انسحابهم الى الشرق ٠

وفيما يلى سرد لتسلسل الاحداث يوما بيوم من واقع المشاهدة العيانية للمواقف المختلفة وتسجيلا لنتائج المقابلات التى تمت مع الأهالى فى المنطقة الزراعية الواقعة غرب القناة ، وكذلك العاملين فى شركات البترول فى منطقة الزيتيات ٠

ومما هو جدير بالذكر أن ما حسبناه نقصا فى بعض مواقفنا ازاء العدو غرب القناة قد تكشفت النتائج لتثبت أنه كان سببا فى اظهار القوة الكامنة داخل الانسان المصرى ، ولقد أثبتت التجربة

أنه مع نقص السلاح والمعدات القتالية الحديثة آنئذ استطاع الجنود المصريون فى أدق الظروف وأحرجها وبالتعاون مع المواطنين البسطاء أن يجعلوا العدو وأسلحته الحديثة فى أحرج المواقف وأشدهـا تعقيدا ٠

وهذه هى معجزة الانسان المصرى ٠

يوم ٢٢ أكتوبر الساعة السابعة و ٥٨ دقيقة

صدرت الأوامر الى القوات المصرية بوقف اطلاق النيران والتزم الجنود المصريون بتنفيذ أوامر قادتهم بأمانة ورجولة وشرف ٠٠ فى حين كان القائد الاسرائيلى غرب القناة يأمر وحداته بالتقدم والتمركز حول مشارف الطرق ٠٠ ثم تطهير المنطقة الزراعية الممتدة من الشريط الساحلى غرب القناة من القوات المصرية ٠

★ وفى صباح ٢٣ أكتوبر – تكشفت نوايا العدو تماما ، حيث تمكنت القوات الاسرائيلية بالخداع أن تضاعف من الارض التى كانت عليها قبل سريان قرار وقف اطلاق النار ٠ وكان العدو يقصد من ذلك الى نقل القتال الى غرب القناة حتى يضع القيادة المصرية فى موقف حرج ، وعندئذ تضطرالى الاختيار بين الحصار شرق القناة أو اعادة الاحوال الى ما كانت عليه قبل ٦ أكتوبر ، بعودة القوات المصرية الى غرب القناة !!

★ وبطبيعة الحال فان وجود هذه القوات غرب القناة كان يهدف أيضا الى تدمير شبكات الصواريخ المصرية التى أبطلت مفعول الطيران الاسرائيلى منذ نشوب الحرب ، وبذلك يستطيع أن يسترد حريته فوق ميدان القتال ٠

★ أرادت اسرائيل أن تحدث فوضى وارتباك وزعر يترتب عليه انسحاب مصرى من الشرق مثلما حدث فى عام ١٩٦٧ ، فواجهت

جنودا من المصريين الفلاحين أبناء الأرض ، وفادة يملكون زمام المبادرة وناصية التصميم . فقد أصبح العناد المصرى اليوم مسألة حيـــاة أو موت ... الاصرار على مقاومة العدو غرب القناة أصبح أمرا محتما ، وفوق كل اعتبار .. وقد جاء تلقائيا .. غريزيا .. لم ينفذ بناء على أوامر أو تعليمات قيادية أو توجيهات من سلطة عليها ... كما لم يتم وقتئذ بتوعية قومية أو سياسية ، وانما جاء من بواعث داخلية فردية فكيف حدث ذلك ؟

لم تغامر القوات الاسرائيلية بدفع دباباتها ومدرعاتها غـــرب القناة الا (بعد ان أكد الاستطلاع الجوى الامريكى أن القوات الرئيسية للفرقة المدرعة المصرية التى كانت ضمن الاحتياطى الاستراتيجى فى الغرب قد عبرت الى سيناء يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ لتطوير الهجوم شرقا وتخفيف الضغط على سوريا) (١)

وعلى هذا يمكن القول بأن القوات المصرية التى كانت غـــرب القناة لم تكن متكاملة بل كانت مؤخرات لوحدات متقدمة فى الشرق أو من وحدات الشئون الادارية ، يحملون أسلحتهم الصغيرة للدفاع عن النفس ، ويؤدون مهامهم فى ايصال الامدادات التموينية أو نقل الاسلحة والذخيرة الى زملائهم فى الشرق . هؤلاء الجنود يفاجئون صباح يوم ٢٣ أكتوبر بدبابات العدو وسطهم أو تحيط بهم . وعمل العدو على عزل هذه الوحدات غرب القناة عن قيادتهم ، فى حين أن هذه القوات الصغيرة لم تكن قوات مقاتلة بل مؤخرات ووحدات شئون ادارية كما سبق القول .

ونشط العدو بدباباته ومدرعاته وأسلحته الفتاكة صباح يوم ١٠/٢٢ دون مبرر عسكرى منطقى لذلك النشاط ، فأخذوا يشعلون النيران فى مساكن الفلاحين فى المنطقة الممتدة على الشريط الســاحلى

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٧ .

المزروع غرب القناة . ثم أطلقوا نيران مدفعية الدبابات لارهـــاب المواطنين العزل من السلاح من الرجال والنساء والأطفال .

فماذا كان رد فعل جنود المؤخرات والشئون الادارية فى هذه المنطقة وكيف تصرف الاهالى من الفلاحين ازاء هذا الموقف المفاجىء؟

لم يترك الجنود أسلحتهم ويلوذوا بالفرار رغم عدم تكافؤ السلاح ، ولم يفعلوا مثلما فعل جنود العدو يوم السادس من أكتوبر عندما كانت تحصيناتهم وأسلحتهم كفيلة بابادة الجنود العابرين . وانما أخذوا يدافعون فى مواقعهم بأسلحتهم الصغيرة . وكلما ظهرت دبابة اسرائيلية أمامهم واجهوها بنيران أسلحتهم وما ورد اليهـــم من قواتنا بشرق القناة من أسلحة مضـــادة للدبابات . واحترقت المزارع ، وشبت النيران فى مساكن الفلاحين ، وقام الجنود بواجبهم الانسانى نحو مواطنيهم واخوانهم الفلاحين ، فريق يقاوم دبابات العدو ، وفريق يطفىء النيران وينقذ النساء والاطفال . ويســـاعد الأهالى فى محنتهم .

واختلط الجميع ..

فعندما استشعر الأهالى الخطر يحيط باخوانهم الجنود ، وأن القتال أصبح غير متكافىء فى السلاح .. بين الجنود المصريين بأسلحتهم الصغيرة وبين قوات العدو بدباباته الضخمة قاموا بحمايتهم . عندما أحس الفلاح المصرى غرب القناة بأن ابنه وشقيقه الجندى جريح يحتاج الى اسعاف سريع أخذه فى بيته ، وأسعفه وأطعمه وآواه .

وانسعرت مدفعية دبابات العدو ، واشتدت غارات الطيران الاسرائيلى أيضا فى المناطق الاخرى ، ولم يستسلم الفلاح المصرى ، ولم ينهزم .

آوى الفلاحون اخوانهم الجنود فى بيوتهم الريفية ، فقد كان

العدو يبغى ابادة العسكريين فى هذه المنطقة انتقاما ليوم الغفران ٠٠ هم جميعا أبناء الأرض ، يزرعونها ويدافعون عنها ، الفلاحون المصريون من الأهالى والجنود فوق الشريط الزراعى الممتد من الدفرسوار حتى منطقة الجناين شمال وغرب مدينة السويس ، يواجهون معا العدو الاسرائيلى المنهزم شرق القناة . والذى يحاول أن يحقق انتصارا غربها ٠ عند اندلاع الحرب فى ٦ اكتوبر . كان الاهالى من الفلاحين الذين عاشوا فى هذه المنطقة ما زالوا يزرعون أراضيهم ويحرثونها ، ولم يكن غريبا عليهم أن يشاهدوا تحركات الدبابات المصرية والعربات كل يوم وسط أراضيهم ، لقد ألفوا الحرب وعاشوها والجنود المصريون يعيشون بينهم ، ولا شئ يخفى عليهم من أسرار التحركات العسكرية ، فهم يشاهدون كل شئ منذ عدة سنوات . اعتادوا رؤية المناورات العسكرية ، والمشروعات المختلفة ، وليس غريبا عليهم أن يجنوا ثمار النصر أو يكتووا بنار الحرب ٠

كنت أشاهد الأهالى فى هذه المنطقة يحرثون الارض وحولهم الدبابات تنتقل من الغرب الى الشرق ٠٠ اما وقد عبرت قواتنا القناة وتحققت المعجزة فليقدموا ما بأيديهم لأبنائهم المقاتلين فتحوا ديارهم لهم ، وأخرجوا ما فى بيوتهم من طعام وشراب ، وقدموه للجنود ، استضافوا مئات المقاتلين ليتناولوا طعام الافطار معهم ، وذبحوا ما عندهم من دواجن وماعز تكريما لهم ، وتعبيرا عما يكنونه فى نفوسهم من فرح ٠ الفلاح المصرى يقدم لأخيه الجندى ما يستطيع تقديمه من ثمار الأرض الطيبة من كيزان الذرة والتمر والبرتقال بدون مقابل ٠٠ الفلاحة المصرية تصنع الشاى لأخيها الجندى الفلاح ٠

منذ سنوات ست وهم يعيشون معا فى مناخ المعركة ، منذ حرب الاستنزاف وهم هنا يعملون فى الأرض ٠٠ الجندى يحفر الأرض الزراعية ويشق الطرق لا من أجل الزراعة وانما هى التجهيزات

الهندسية التي يقوم بها سلاح المهندسين في هذه المنطقة استعدادا ليوم العبور العظيم .

.. .. ..

أما جنودنا من الفلاحين فقد اعتادوا حرث الأرض ، عندهم قدرة عجيبة تفوق الخيال على العمل المتواصل دون كلل أو ملل ، يعملون في خدمة الجيش منذ عدة سنوات ، وهم في واقع الامر يواصلون عملهم في الأرض . عملهم في خدمة الجيش لا يختلف كثيرا عن عملهم قبل الحاقهم بالخدمة العسكرية .. انها فلاحة الارض سواء كانت للزراعة أو للتجهيزات الهندسية .

ومن أجل الأرض يعيش الفلاح المصرى هنا يزرع ويحرث ، ويقوم الجندى المصرى بواجبه في شق الطرق وحفر الارض . لافرق بين الاثنين الا في الزى ، هذا يرتدى الجلباب وذلك يرتدى الزى العسكرى . أصبحت لا أجد فرقا يذكر بين الجندى المصرى غرب القناة سواء كان داخل دبابة أو في موقعه حارسا ، وبين الفلاح المصرى في هذه المنطقة ، كلهم أبناء الأرض .. أليس هذا ما تسعى اليه اسرائيل في مستعمراتها على الحدود . سكان الكيبوتزات يفلحون الارض ويزرعونها . ثم يتدربون على حمل السلاح ليدافعوا عن قطعة الارض حدود المستعمرة .. فالخطة الاسرائيلية لسكان المستعمرات هي تنمية روح الانتماء الى الارض . فهم يصنعون حب الأرض صنعا ، أما الفلاح المصرى فلا يصنع له شيء من هذا ولا يختلق انتماء ، فهو وأخوه الجندى أبناء الأرض المصرية ، يواجهون اليوم عدوا مشتركا ، عدوا يقتحم أرضا غير أرضه مغتصبا ، وعليهم أن يردوه خائبا .

.. .. ..

أصبح واضحا للجنود والفلاحين المصريين غرب القناة أن العدو الاسرائيلى تائه وهو داخل دبابته ، يحمل معه وسائل الدمار والتدمير

ولكنه غريب عن الارض ، الجميع يواجهون العدو الذى يسعى الى تطهير المنطقة من العسكريين ، فقد أذاقوه العذاب يوم ٦ أكتوبـر ويريد أن يأمن عذابهم اليوم ، هم داخل دباباتهم يجوبون بهـــا نهارا ، ثم يختفون عندما يرخى الليل أستاره ·

·· ·· ··

ركز العدو هدفه فى المنطقة أول الأمر فى محاولة التمييز بين العسكريين والفلاحين · فاتبع أسلوبا يدل على خوفه وهلعه من الجنود اذ أخذ يحاصر الاهالى فى المناطق الزراعية بالدبابات ، وعندهـم أسلوب للتمييز بين الفلاح والجندى ، يفحصون على لون جلودهم ، ويجدونهم متشابهين سماتهم متقاربة ، الشمس لفحتهم فجعلتهـــم سمر الوجوه ·· الآيدى خشنة ، يأمرونهم بخلع ملابسهم ،ويفحصون الرقبة ، فرقبة الجندى السمراء تختلف عن رقبة الفلاح السمراء ، الأول يحدها شكل السترة حرف V عن بقية لون صدره ، بينمـا الثانى يحدها شكل الصديرى أو الجلباب نصف الدائرى ، قدم الجندى وكعبه يتميزان عن قـــدم وكعب الفلاح ارتداء الحـــذاء أو الحفاء ·· يقع المفتشون فى حيرة من أمرهم اذ يجدون الجميع متشابهين ، تنطبق عليهم صفات متشابهة ومتقاربة الى حد بعيد · هم جميعا فلاحون سواء كانوا مجندين أو مزارعين ·

العدو يلقى القبض على الفلاحين ويأخذهم أسرى ، أمـــا من استطاع الخلاص من الدبابات المعادية فيستمرون فى مقاومتهـــم بالأسلحة الصغيرة ·

وقع العدو غرب القناة فى الفخ منذ اليوم الاول ·· وعـــلى الرغم من ان كل جندى اسرائيلى كان يمتلك خريطة موضحا بهـا المنطقة التى يتسلل اليها ، الا أنه لا يعرف الارض مثل أصحابها ، يسير فيها خائفا مزعورا ·· الارض ليست أرضه ·· وهدفه لايرقى الى مستوى الواجب الوطنى ، فهو معتد يحارب من أجل تنفيذ أوامر

قادته ، أهداف عسكرية غير مقنعة .. فيما بعد أخبرني بعض الجنود الذين كانوا فى أحد المناطق الزراعية غرب القناة أن العدو كان يدور حول نفسه بالدبابات ، وأنهم كانوا يهرعون داخل مدرعاتهم عندما يسمعون صوت طلقة نارية من مكان بعيد ، ان هذه الطلقة لا تؤثر مطلقا على قدرتهم العسكرية ، ولكن كان لها مفعول وتأثير مطلق على روحهم المعنوية وكفاءتهم القتالية . نشط الطيران الاسرائيلى صباح يوم ٢٣ /١٠ ، واستمر قصف الطيران فوق مشارف مدينة السويس وفوق الشريط الزراعى الممتد غرب القناة خلال ساعات النهار . وتقدمت الدبابات على الطرق المؤدية الى مدينة السويس من طريق الاسماعيلية ومن طريق القاهرة . واستمر قصف الدبابات المعادية حول المدينة بقصد نشر الزعر بين الأهالى والمدنيين من العاملين فى شركات البترول ، وقد اتجه بعض الجنود الى داخل مدينة السويس للدفاع عنها وحمايتها من اقتحام الدبابات .

.. .. ..

اتجهت بعض الدبابات الاسرائيلية الى منطقة الزيتيات . حيث هاجمت مبانى شركات مصر للبترول والنصر للبترول ، والمعمل وغيرها من منشآت فى هذه المنطقة . وبينما تقدمت بعض دبابات العدو الى الأدبية استمرت بعض العناصر الصغيرة من قواتنا تتمسك بجزء من منطقة الادبية ومنعت العدو من التقدم ...

.. .. ..

« ولكن هذا العمل وضع تلك القوات فى موقف بالغ الضعف عظيم الخطر ، اذ أصبحت تلك القوات ذاتها تشكل جيبا هشا عديم الفاعلية والتأثير ، كما أجبر المؤسسة أن تستمر فى تعبئة القوات المسلحة الاسرائيلية لمدة طويلة بعد ذلك » (١)

---

(١) المرجع السابق .

الشاردون الأبطال

عندما ينعزل الجندى عن قيادته ، وينتقل من مكان الى آخر دون تعليمات قيادية يطلق عليه من وجهة النظر العسكرية « جندى شارد » .. وتحرك الجنود المصريون من موقع الى آخر غرب القناة لمنع الدبابات الاسرائيلية من التقدم ، الأمر الذى ترتب عليه بالضرورة انفصال بعض الوحدات عن قياداتها ، وتقدم هذه الوحدات المنعزلة الى مدينة السويس ، بينما تقدمت وحدات أخرى الى منطقة الزيتيات لقطع الطريق على تقدم العدو .

ومن المعروف أن الجنود الشاردين ترفع عنهم المسئولية نظرا لظروفهم الصعبة وعدم قدرتهم على التفكير السليم والتصرف المناسب . وذلك لأنهم عزلوا عن القيادة والشئون الادارية ، وعن احتياجاتهم المعيشية المختلفة .

ولكن الجنود المصريين المعزولين عن قياداتهم غرب القناة والمنتشرين فى كل مكان من الدفرسوار شمالا الى ميناء الادبية جنوبا

كسروا هذه القاعدة ، وحملوا على عاتقهم المسئولية كاملة ، اذ سرعان ما انتظموا فى وحدات صغيرة جديدة للدفاع عن كل شبر من الارض الطيبة .

وقد سبق أن دفع قائد الفرقة ١٩ المشاة الموجودة فى شرق القناة ببعض عناصر قوية من أطقم اقتناص الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات الى مدينة السويس والطرق القريبة الموصلة اليها .. وانضمت هذه الأطقم فورا الى بعض الوحدات المعزولة عن قياداتها فى تنظيم سريع مقاومة دبابات العدو ، والدفاع عن المدينة وأصبح الموقف كالآتى بالنسبة لقوات العدو غرب القناة وللقوات المصرية فى مدينة السويس .

١ ـ « عززت القيادة الاسرائيلية قوات الثغرة خوفا من الضغط المصرى المحتمل عليها ، حتى أصبح سبعة ألوية كاملة . ولحماية الطرق والمداخل المؤدية اليها فقد وقفت عن كثب منها خمسة ألوية أخرى اقتصرت مهامها على حماية المداخل الى الثغرة . هذا بالاضافة الى عشرة ألوية فى مواجهة رؤوس كبارى الجيش الثانى والثالث » (١)

٢ ـ مجموع أطقم اقتناص دبابات داخل مدينة السويس وعند مشارفها . وقد انضم بعض جنود المؤخرات والشئون الادارية غرب القناة اليها .

٣ ـ مجموعات من جنود المؤخرات والشئون الادارية ، المنتشرين داخل أحياء المدينة وعند مشارفها .

٤ ـ المواطنون المدنيون من الرجال والنساء والأطفال المقيمين فى

---

(١) المرجع السابق .

مدينة السويس ، الذين لم يتركوا المدينة منـــذ حـــرب ١٩٦٧ ٠

- المزارعون وأسرهم الذين يعيشون فى المنطقة الزراعية غرب القناة والذين فوجئوا بنيران دبابات العدو تحيط بهم منـــذ ٢٢ أكتوبر ٠

في الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٣/١٠ ٠٠ شـــاهدت الجنود المصريين وقد تقدموا من الغرب تحت ضغط الدبابـــات الاسرائيلية ، يتوجهون الى مدينة السويس للدفاع عنها ، ورغـــم أنهم أصبحوا معزولين تماما عن قياداتهم وشئونهم الادارية الا أنهم كسروا حدة موقفهم الصعب بأن كلفوا أنفسهم تلقائيا بمهام جديدة تختلف عن واجباتهم الاصلية ٠ وقد كان فى استطاعة هؤلاء الجنود التخلص من الموقف المتأزم عندما أحسوا بالوجود الاسرائيـــلى فى المنطقة وعندما شاهدوا بعض زملائهم يستشهدون أمامهم وآخرين تصيبهم نيران العدو باصابات مختلفة ٠٠٠

ولكنهم لم يفروا الى الخلف للنجاة بأنفسهم ، ولم يتركـــوا أسلحتهم ، وانما حملوا الجنود المصابين سواء كانوا زملاء لهم أو من وحدات أخرى ، ونقلوهم تحت قصف نيران دبابات العدو وطيرانه الى مستشفى السويس العام لاسعافهم ٠

هل يجوز لنـــا أن نصف هؤلاء الجنود بأنهم شاردون ؟ ان الشارد يكون تائها يحتاج الى رعاية ومعاونة ، ولكن الذى يقوم بمثل هذا العمل الانسانى العظيم فى موقف صعب وحرج لا بد أن يكون عاقلا وليس شاردا متيقظا وليس تائها ٠

نقل الجنود رفاقهم المصابين الى المستشفى ، ثم انتشـــروا فى أماكن متفرقة للدفاع عن المدينة ٠

الجندى المصرى مثير حقا للدهشة ...

ما الذى يسعى اليه فى حياته حتى يسلك هذا الأسلوب ..؟

انه لا يملك من الدنيا شيئا .. مرتبه ضئيل .. يعيش حياة بسيطة للغاية .. ليس له طموح فى مركز أو مال .. ولا يعرف قيمة الأوسمة والنياشين (وهو يستحقها بجدارة) ... ان كل تحركاته وتصرفاته منذ اندلاع شرارة الحرب تتسم بالايجابية والمبادرة والشجاعة والصبر .

هل يدفعه الى ذلك وازع دينى قوى .. ؟

منهم من يصلى ويواظب على مناسك الدين ، ومنهم غير ذلك . ولكن شعورا عميقا بالايمان بالقدرة الالهية يسيطر على الجميع .

هل يكمن وراء ذلك السلوك علم بالتاريخ أو تربية قومية نشىء عليها الجندى المصرى منذ نعومة أظافره (مثلما يحدث فى خطط التنشئة الاجتماعية والاعلام الاسرائيلى) ؟

الواقع ان نسبة ليست هينة من هؤلاء الجنود لم يصلوا الى مستوى التعليم الابتدائى .. ونسبة أخرى من خريجى الجامعات والمعاهد العليا والمتوسطة .. وكلهم يؤدون دورهم بنفس الكيفية والسلوك التلقائى .

هل للمستوى الحضارى أو الثقافى تأثير فى هذا السلوك الايجابى ؟ ان الجنود المصريين يحدرون من حضارات وثقافات مصرية متباينة ، أغلبهم من الريف المصرى ، والجميع تتنوع عاداتهم وتقاليدهم من الشمال حيث المدن الساحلية الى جنوب القطر فى أسوان .

.. .. ..

تذكرت هؤلاء الجنود وهم يعبرون القناة يوم السـادس من أكتوبر بأجسادهم داخل قوارب من المطاط .. يتدفقون كمقـدمة بشرية قبل امداد الكبارى ودفع الدبابات والاسلحة المدرعة .... وها هم اليوم أيضا يواجهون نيران العدو المتحصن داخل الدبابـات وهم فى موقف حرج ليس معهم الا أسلحتهم الصغيرة .

الاختيـــار

الجنود المصريون يواجهون اليوم العدو ، وقد التف حولهـم فى محاولة لاقتناص الحق الذى استردوه منه ٠٠ والعدو يقصـــد احراز كسب يعوض خسارته أو اعادة الاوضاع الى ما كانت عليه قبل نشوب القتال ٠

وحتى نستطيع تصور الحالة النفسية للجندى المصرى صـباح يوم ١٠/٢٣ ، نعود قليلا الى الوراء لنستعرض تطور حالته النفسية والمعنوية على ضوء الأحداث ٠

١ ــ بعد حرب ١٩٦٧

ترك عدوان ٦٧ فى نفس المقاتل المصرى شعورا عميقا بالحزن والقلق ، وما يترتب على هذه الحالة من مشاعر أخرى ٠

٢ ـ أثناء حرب الاستنزاف

سارت حرب الاستنزاف جنبا الى جنب مع اعادة بناء القوات المسلحة ، الجنود يتأهبون لعمليات قتالية واسعة لازالة آثار العدوان واسترداد الأرض المحتلة ، وقد ألهبت عمليات العبور الصغيرة وقتئذ روح الحماس عند المقاتلين ، وكان لاسقاط الطائرات الفانتوم وأسر طياريها أثر بالغ فى معنوياتهم ، وكانت شارة العبور فوق صدور العابرين مفخرة لهم ورمزا لبسالتهم ٠٠ لقد عرف المقاتل المصرى حقيقة نظيره الاسرائيلى وأصبح لا يخشاه ، بل كان على وشك القضاء على أسطورة الجندى الذى لا يقهر ٠

٣ ـ بعد وقف اطلاق النار

استعدادات جادة للتدريب العسكرى ، ورفع الكفاءة القتالية للجنود ، إستيعاب للمعدات الحربية الحديثة ، واقتناع موضوعى بأهمية التدريب فى الحرب الحديثة ومجهود شاق يبذله المقاتلون وأمل ساطع فى احراز نصر قريب ٠

كان الجندى المصرى يشعر أن حالة وقف اطلاق النيران لن تستمر طويلا ، اما أن تنتهى بانسحاب اسرائيل من الاراضى التى احتلتها بعد عام ٦٧ أو من جزء كبير منها ، أو تنتهى حالة وقف اطلاق النار بسحق المعادين بشرق القناة ٠

٤ ـ استمرار وقف اطلاق النار

تدرب الجنود كثيرا على المهام الفنية والقتالية حتى استوعبوا المعدات والاجهزة الحديثة تماما ، وازدادت كفاءتهم القتالية بكثرة المشروعات التى تمثل عبور مانع مائى مع تسلق ساتر ترابى ، وقد

أتقن المقاتلون التدريبات على دورهم في المعركة المقبلة حتى حفظوها وأتقنوها ٠٠ ولقد اعتاد الجنود الحياة العسكرية وألفوها واصبحت جزءا مكملا من مكانتهم الاجتماعية ، ولم تعد الخدمة العسكرية مهمة تؤدى ثم تنتهى ، فجميع المقاتلين يعلمون جيدا أنهم لن يعودوا الى أعمالهم المدنية الا بعد ازالة آثار العدوان ٠ أصبح الجنود بجميع فئاتهم ينتمون الى عائلة القوات المسلحة الكبيرة ٠

وعلى الرغم من أن هذه الفترة قد أمدت المقاتلين بخبرات جمة فى التدريب والاستعداد القتالى والتهيئة النفسية للحياة العسكرية الا أن طول الفترة الزمنية (من أغسطس سنة ١٩٧٠ الى ما قبل أكتوبر سنة ١٩٧٣) كانت سببا أكيدا لحالة من الملل أصابت كثيرا من المقاتلين ، وأصبح الجميع يقاومون فى أنفسهم اليأس والضجر٠

٥ ــ يوم السادس من أكتوبر وما تلاه

تحققت آمال الجندى المصرى وأحلامه بالعبور الناجح ،وانهارت أمام عينيه وبين يديه أسطورة الجندى الاسرائيلى الذى لا يقهر ٠وقد أعادت الأيام الأولى من الحرب الى الاذهان عمليات حرب الاستنزاف وأمجاد المصريين القدماء ، وبطولات صلاح الدين ، وكان حقا القول بأن هذا النصر يعتبر نصرا مصريا خالصا قام به الجندى المصرى لصالح مصر منذ قرون ٠٠ وارتفعت معنويات المقاتلين الى القمه . وتنجرت القوى الكامنة الجبارة عندهم ٠٠ بل قد أظهروا فى سلوكهم القتالى قدرات جديدة فذة تجاوزت الامكانات المعتادة والمتوقعة ٠

٦ - ابتداء من ١٥ أكتوبر

شعر المقاتلون المصريون أنهم يحاربون الولايات المتحدة الامريكية ، ورغم ضراوة المعارك القريبة ، وكثافة غارات الطيران ، فقد استمر معدل الكفاءة القتالية والمعنويات فى ارتفاع مستمر ، وقد ازداد تقدير الجنود للموقف ·

٧ - صباح يوم ٢٢ أكتوبر

وبعد اجتماع مجلس الامن بناء على دعوة عاجلة من أمريكا والاتحاد السوفيتي بعد اتفاق كامل على مشروع سلام شامل ينص على وقف القتال خلال ١٢ ساعة ، وانسحاب اسرائيل من الاراضى العربية التى احتلتها عام ٦٧ ·· وكان تقدير المقاتلين للموقف أنهم أحرزوا نصرا على اسرائيل بعبور هذه القوات الضخمة وتحطيم خط بارليف وأسر الآلاف ·· أما وقد حطموا بأيديهم الاسطورة ، واستعادوا شرفهم بمحو عار أصابهم ، فقد أزاحوا الكابوس الجاسم فوق صدورهم ، وشعروا بالارتياح ، وكفى الله المؤمنين القتال ، لقد حققوا الهدف ، وما النصر الا من عند الله ··

أمل باسم لفجر جديد تسود فيه المحبة والسلام

٨ - صباح يوم ٢٣ أكتوبر

عندما ظهرت الدبابات المعادية فى الطرق الرئيسية وفى مواقع جديدة ·· وبعد أن وضحت نوايا العدو فى استمرار العدوان ،وخرق قرار وقف اطلاق النار ·· انتاب الجندى المصرى (وخاصة فى نطاق الجيش الثالث الميدانى وفى المنطقة الممتدة غرب القناة من الدفرسوار حتى ميناء الأدبية وداخل مدينة السويس وفى مشارفها) شعور عميق

بالمرارة وخيبة الأمل ، وعادت الى خاطره ذكرى أحداث سابقة ود لو كان بينه وبينها أمد بعيد وسد منيع ، لقد عادت الى الأذهان نكسة ٦٧ والتفاف القوات الاسرائيلية حول القوات المصرية في في سيناء ٠٠

ها هو المقاتل المصرى يواجه جنود العدو وقد التفوا حوله وأحاطوا به من كل جانب ، بدبابات ومدرعات ، والطيران الاسرائيلى من فوقه يصول ويجول ٠ التهديد مباشر ، وقد فقد الاتصال بمراكز قيادته ، ليس أمامه الا أن يدافع عن الأرض وعن نفسه بكل ذرة في عقله وجسده ولتؤد غريزة البقاء دورها تلقائيا ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠

ان سرد تطور الاحداث هنا له دلالات هامة ، ذلك لأن المقاتل الذى انتصر على عدو شديد البأس ، والذى حطم أسطورة كاد يصدقها هو نفسه ، المقاتل الذى أدرك أنه محى عارا أصاب أمته واسترد العزة والكرامة ، هذا المقاتل الفخور بنفسه عن جدارة ، الفائز المنتصر يود أن يذهب الى بلدته ليستقبله أهل قريته بما يليق ببطولته ، ويسرح المقاتل المصرى الآن بخاطره ليتصور أمه وأباه وأخوته وزوجته ، وأبناءه وأهل بلدته ، وهو أمامهم يقص عليهم ما قام به من أعمال مجيدة ، ويحتفظ معه ببعض بقايا الحرب من غنائم،خوذة جندى اسرائيلى أو فارغ احدى الدانات أو قطعة معدنية من طائرة تهاوت أو جزء من سترة أحد أفراد العدو ، الخ ٠٠ انه يستعد ليراه أهل قريته وهو منتصر ، ومن منا لا يحب أن يقدر الآخرين عمله ٠٠ انها الطبيعة البشرية ، الاديب يحب أن يقرأ له الناس أعماله ، الفنان يرغب أن يتذوق غيره ابداعه الفنى ، كل انسان امتاز فى شىء يود أن يرى عمله الرائع أهله وأبناء بلدته

والناس أجمعين . فكيف حال المقاتل المصرى وقد أنجز أعظم الاعمال وأروعها ؟ قام بمهام تدعو حقا الى الاعتزاز والزهو بل التباهى ، ان جمهوره ليسوا أهله وأبناء بلدته فحسب ، انهم شعوب العالم أجمع ، يتجهون الآن نحو هذا المقاتل المعجزة ، العالم كله فى دهشة واعجاب بما قام به هذا الفلاح البسيط .

ولنا أن نتصور أيضا حالة هذا الجندى وهو يطمح الى أن يراه الناس منتصرا ، يجد نفسه أمام عدو يريد أن يسلب من بين يديه كل مكاسبه .. خطر داهم يواجهه لا يعلم مداه الا الله . انها حالة مؤلمة — من غير شك — أصابت المقاتل المصرى وجعلته فى موقف رجل يمسك بيديه ممتلكات غالية سرقت منه واستردها ، ولكن السارق عاد مرة أخرى ليغتصبها ، هل يتخلى عنها بسهولة أويستبسل فى الحفاظ عليها ؟

لقد ذاق صاحبنا طعم الانتصار ، وتذوق حلاوة الثقة بالنفس فاستطابها ، وشعر بنشوة استرداد الحق المسلوب وعودته الى أصحابه ، والذى يتذوق طعم الحصول على الحق واسترداد الشرف يصعب عليه التخلى عنه أو التفريط فيه .

وهذا ما حدث ...

المقاتلون المصريون يحملون أسلحتهم الصغيرة وينتشرون الى الامام ؛ انهم شاردون اسما ولكنهم أبطال حقا ، لا يعودون أدراجهم ، لا يهربون بل يتقدمون لحماية السويس ، وعندما أدركوا أن العدو فى طريقه الى المدينة ، كان عندهم فرصة للاختيار بين أن يدخلوها ويدافعوا عنها وبين أن يتجهوا نحو الغرب وينجوا بأنفسهم أوفى اتجاه الشمال فى طريق الاسماعيلية ويؤثرون

السلامة ، ولكنهم رفضوا – بدون توجيهات أو أوامر – الحل السهل واختاروا الطريق الصعب المملوء بالأشواك .

كانوا يعلمون جيدا أن العدو من وراءهم والقناة أمامهم والخطر يحيط بهم من الجانبين .. وكان الاختيار تلقائيا ودون تردد ، امتلأت شوارع مدينة السويس بهم ، وعند مشارف المدينـة ، وحول الطرق المؤدية اليها وفى طريق بور توفيق ، يحملون أسـلحتهم الصغيرة ويعلمون انها لا تساوى شيئا أمام الدبابات السنتوريوم والمدفعيـة الثقيلة ورشاشات النصف بوصة المنهمرة فوق الرؤوس .

الباب الرابع

وماذا بعد؟

- اليوم والبارحة
- المسجد
- المجازفة
- ارادة الرفض
- الجندى المجهول
- التحول العظيم
- باقات الرصاص
- كلهم أبطال
- وماذا هناك ؟

اليوم والبارحة

ما أشبه اليوم بالبارحة ...

فى ظهر السادس من أكتوبر ركب الجنود المصريون قوارب المطاط وعبروا القناة فى مواجهة نيران العدو وتحصيناته المنيعـــة ، واجهوا خط بارليف الشهير وما بداخله من خطر محقق ، وكـانت المهمة صعبة والخطورة بالغة .

واليوم .. الثالث والعشرون من أكتوبر ، وقد أحاط بهم العدو يريد أن ينتقم لفجيعة أصابته ودمرت أحلامه ، يريد العـدو أن يخنقهم ، يحصرهم ثم يحصدهم ، يضيق العدو على الجنـــود المصريين الخناق بأسلحة حديثة تسلمها للتو من الدولة المغيثة .

فمنذ أيام قليلة أمدت أمريكا اسرائيل بأسراب من الطائرات الفانتوم والاسكاى هوك مباشرة الى القواعد الاسرائيلية ، ثـم توضع النجمة السداسية فورا فوق علامة سلاح الطيران الامريكى . أليس هذا يعنى ببساطة أن أمريكا تشارك فعلا فى القتال . والجندى

المصرى الآن يواجه دبابات أمريكية الصنع طراز سنتريوم وباتون، وصواريخ مافيريك (جو / أرض) ضد الدبابات ، وصـــواريخ ستاندرد آرم (جو / أرض) ضد محطات الرادار ، وقواذف لو المضادة للدروع ، وقنابل موجهة بأشعة ليزر وقنابل روكاى • فمادا فى يد صاحبنا المصرى فى مشارف المدينة وداخلها •• رشـــاش قصير طراز بور سعيد ، أو بندقية آلية أو نصف آلية هـذا بالاضافة الى قنابل اقتناص الدبابات فقط • المقارنة واضحة وكفة الســـلاح هنا راجحة لصالح اسرائيل ••• ولم يبق الا المقـــارنة البشرية ، الانسان المصرى اليوم فى مقابل نظيره الاسرائيلى •

فى السادس من أكتوبر واجه الجندى المصرى الفلاح جحيـم خط بارليف وألغامه وما وراءه من مجهول غامض ، واجهه بجسـده ولم يكن يسمى شاردا •• وفى الثالث والعشرين من أكتوبـــر يواجه دبابات العدو وأسلحته الحديثة وهو شبه أعزل ، دون قائد يصدر اليه التعليمات ويوجهه تبعية لوحدة عسكرية ومن غـــير شئون ادارية تغطى احتياجاته من طعام وشراب وايواء •

يا لها من محنة لا يتحملها الا رجال اعتادوا على مصـــاعب الحياة وخشونة العيش ، استمر ضرب مشارف المدينة بمدفعيـه الدبابات ، واستمرت غارات الطيران منذ الصباح تطهر الطـــريق أمام الدبابات المعادية • وقد دمرت الدبابات بعض نقط الشرطـة العسكرية عند مداخل الطرق ومشارفها وفى الطرق الجانبيـــة ، واتجهت بعض الدبابات الى الزيتيات ، والبعض الآخر الى طريق مصر / السويس ، ثم تمركزت بعض الدبابات فى المنطقة الزراعية غـرب القناة •

وعند آخر ضوء تمكنت قوات العدو من تحسين مواقعها حول المدينة تمهيدا لاقتحامها فى الصباح الباكر •

ولم تنقطع مدفعية دبابات العدو من العمل ليلا · واستمر نشاط الجنود طوال النهار في الانتشار حول مشارف المدينة للتصدى للعدو ، وبين فترات صمت غارات الطيران يقوم بعض الجنـــود والاهالى بنقل الشهداء ، ونقل المصابين بشظايا الدبابات والطيران الى المستشفى لاسعافهم · كان الجنود المصريون والمواطنون من أهالى السويس يعملون جنبا الى جنب في مواجهة المحنة بصبر وايمـــان وبتصميم عنيد · يقولون عنهم أنهم شاردون ، ولكنهم فى حقيقة الأمر واعون تماما بموقفهم ، يعلمون أن المحنة قاسية وأن عليهـم أن يواجهوا المصير بأجسادهم وبقليل من السلاح والذخيرة لقـــد حملوا المسئولية التاريخية ببسالة نادرة ، أصبحت حماية المدينـة والجيش أمانة حول أعناقهم ·· فماذا يصنعون ؟

·· ·· ··

لم يكن هناك متسع من الوقت للتفكير ، أو التخطيط ، ولم يعد أمامنا الا طريق واحد هو التصرف السريع المناسب للموقف الحالى ·· فجاء السلوك طبيعيا وتلقائيا ، ومثلت أمام أبصارنا صـــور آبائنا ، أمهاتنا ، أخوتنا ، أهل بلدتنا ، النساء والاطفال ·· وكأنهم يرجوننا أن نعمل شيئا من أجلهم جميعا ·

وانتقلت الى المستشفى العام بالسويس ، والاطباء داخل غرف العمليات يجرون أصعب العمليات الجراحية فى أحرج الظروف ، لقد تجاهل الأطباء غارات الطيران وهدير مدفعية الدبابات ، وأطباء آخرون ينقلون المصابين ويباشرون علاجهم والممرضات يقمن بأعمال تفوق طاقتهن عشرات المرات ·

·· ·· ··

وتم نقل أسلحة الشهداء والجرحى من غرفة الامانات بالمستشفى وأرسلت الى المسجد حيث أنشىء مركز هام للمقاومة الشعبية ·

المســجد

منذ الأيام الأولى من بداية القتال ، كان عملى يقتضى التنقل بين مواقع قواتنا فى الشرق وفى الغرب ، وذات يوم انتقلت الى المستشفى ومعى عــدد من الجنــود الجرحى لاسعافهم وهناك قابلت رجلا ملتحيا يرتدى بدلة كاملة وطربوشــا ، وجدته واقفا عند مدخل المستشفى وبجواره سلة كبيرة بها علب من الحلوى ، ابتسم الرجل ، وتعارفنا : انه الشيخ حافظ سلامة امام مسجد الشهداء ... وبعد قليل تم نقل بعض المصابين من داخل المستشفى لتحويلهم الى القاهرة .. عندئذ تقدم الرجل ومعه بعض علب الحلوى يقدمها الى الجرحى يدا بيد وهو يسرى عنــهم ، ويتلو لهم بعض آيات من القرآن الكريم .. وواصلنا حديثنا فعرفت ان عنده ما يقرب من مائة الف كعكة يريد ارســالها الى قواتنا فى الشرق واتفقنا على كيفية ارســال هذه الهدية ..

ومرت الأيام الى أن وصلت الى المسجد يوم ٢٣ أكتوبر لنقل بعض الأسلحة .. وقابلت الرجل فوجدته حزينا ولكنه مطمئنا ، تحدث عن الايمان بالله والصبر عند الشدائد ، ثم صلينا المغرب ودعانا الشيخ لتناول طعام الافطار .

•• •• •• ••

كان بالمسجد مجموعة من الأهالى والمقاتلين ، جلسنا نتدبر الأمر ، ماذا سنفعل فى ليلنا ، وصباحنا ، كان الموقف غامضـا ، لا نعلم ما يخبؤه الغد لنا من أحداث ، العدو خارج المدينة يقصفها بمدفعية دباباته ، وجنودنا منتشرون فى كل مكان على مشـارفها وداخلها . ولم تغمض جفوننا هذه الليلة .

•• •• •• ••

وبعد صلاة الفجر ، برز من بين المصلين مسئول كبير بالمدينة ، شرح الموقف العام وأفاد بأن العدو يحـاول اقتحام السـويس وأن قواتنا المسلحة تحتشد الآن لضرب محاولة العدو ، وعلينا جميعا أن نطمئن ، وأن نستعد لمواجهة مسئوليتنا التاريخية .

وفى الساعة السابعة من صباح يوم ٢٤/١٠ نشط الطيران الاسرائيلى فى غارات مكثفة تلقى حمولاتها زنة الألف رطل فى أماكن متفرقة داخل المدينة لاخلاء الطريق أمام الاقتحام المنتظر .

•• •• •• ••

وبعد ما يقرب من ساعة تلقينا بالمسجد مكالمة تليفونية من أحد المهندسين المدنيين بمبنى معمل البترول فى الزيتيات ، يحذر من بالمدينة من أن العدو سيقتحم السويس اليوم بالدبابات . وأنه يقتل العسكريين ويأسر المدنيين . كما فعل بمنطقة الزيتيات .

وهناك فى ركن من الغرفة كان يجلس رجـل طويل القـامة ترتسم على وجهه علامات ادراكه للمسئولية الضخمة التى يحملها فى عينيه بريق عجيب ، وأحيانا كنت أظنه تائها ، ولكنه كان أكثرنا تيقظا وانتباها – كما سيتضح فيما بعد – رفض الرجل أن يخلع رتبته العسكرية أو أن يختبىء .

ماذا نفعل ؟

العدو داخل دباباته الضخمة وعرباته المدرعة فى طريقه الآن الى المدينة ، والجنود هنا معهم أسلحتهم الصغيرة بالاضافة الى بعض قنابل لاقتناص الدبابات ٠٠ انها من غير شك لا تكفى لمقاومة قوة العدو الهائلة ٠

وتساءلنا ٠٠ هل يمكن على ضوء ما لدينا من معلومات الدفاع عن المدينة بهذه الكيفية ٠٠ نعم ٠٠ لا شيء مستحيل ٠٠ اننا نملك رغبة أكيدة لمنع العدو من التقدم ٠

وكيف نواجه تطور الموقف واحتمالاته المتوقعة وغير المتوقعة ؟

ثم تجمع كل الشباب القادر على استخدام السلاح ، وأخذ كل رجل سلاحا مما أحضرناه من المستشفى بالأمس ٠ وتحول المسجد الى مركز للمقاومة الشعبية ، وتشكلت جماعات المقاومة ، رتم توزيعها سريعا على أماكن متفرقة من المدينة وعند مشارفها ٠٠ فقد اتخذنا القرار بالمقاومة مهما كانت القوتين غير متكافئتين ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

وقاربت الساعة التاسعة صباحا ، ولم ينقطع صوت طلقات مدفعية الدبابات ، الصوت يقترب ويزداد كثافة ، الجميع يهرعون الى الخارج ومعهم أسلحتهم ٠

المجازفة

تسللت دبابات العدو فى الساعة الثامنة من صباح ٢٤ أكتوبر فى رعونة ومجازفة حمقاء .. واعتقد القائد الاسرائيلى أنه لن يجد أمامه مقاومة فى المدينة ، ذلك لأن استطلاعاته وحساباته قد قدرت الموقف على المستوى المادى ، وحسبت التكافؤ من ناحية الأسلحة والمعدات ، وأغفلت تقديرات العدو العنصر البشرى للمرة الثانية. لم يستفد العدو غرب القناة من درس ظهر السادس من أكتوبر حيث كان للدور البشرى قيمة أفشلت التنبؤات العلمية فى تقديرها وعجزت العقول الالكترونية عن احتوائها .

حاولت دبابات العدو اقتحام المدينة من ثلاث طرق رئيسية :

(ا) طريق الجناين شمال مدينة السويس ، وهذا الطريق يؤدى الى منطقة حوض الدرس على الضفة الغربية للقناة مباشرة ، وهنا يوجد أحد معابرنا الموصلة الى الضفة الشرقية للقناة .

(ب) الطريق الرئيسى (مصر/السويس) : وامتداده يوصل الى قلب المدينة ، ومنه الى مدخل بور توفيق • ومنه أيضا تتفرع الأحياء الرئيسية للمـدينة • وفى وسط الطريق شريط السـكك الحديدية •

(جـ) طريق الزيتيات : ويمتد من منطقة الزيتيات حيث توجد شركات البترول والمعمل والنوادى والاستاد ، ويوصل هذا الطريق الى قصر الثقافة ، ومبنى المحافظة وهو ممتد على كورنيش خليج السويس ويستمر الى الشارع المؤدى الى بور توفيق •

وعلى ضوء ما سبق فقـد اندمجت جميع الفئات من الضباط والجنود والمواطنين من أهالى مدينة السويس ، وأصبحت الجماعات على النحو التالى :

(ا) جماعات احتلت مشارف المدينة داخل المساكن والحوانيت •
(ب) جماعات أحتلت مداخـل الشوارع الرئيسية داخل المسـاكن والمساجد •
(جـ) جماعات احتلت مداخل الشوارع الجانبية داخل المساكن •
(د) جماعات داخل مبنى المحافظة •
(هـ) جماعات اقتناص الدبابات منتشرة حول المدينة وعند مدخـل بور توفيق •

ومما هو جدير بالذكر أن هذا التنظيم جاء فى أغلب الأماكن تلقائيا وبدون تخطيط مسبق •

أما بعض الوحدات شبه المتكاملة ، وهى قليلة بالنسبة للفئات السابقة • فقد قام قادتها من الضباط باجراءات تنظيمية سريعـة تهدف الى انتشار العربات فى أماكن متفرعة على مشـارف المدينة وداخلها •

وأصبح العامل المشترك الذى ينظم جميع الفئات العسكرية والمواطنين يعتمد على عنصرين رئيسيين ، الأول أن الجميع مصريون والثانى ان العسكريين ينتمون الى أسرة القوات المسلحة الكبيرة ٠

محاولة أولى :

فى الساعة الثامنة من صباح يوم الرابع والعشرين من اكتوبر اقتحمت مجموعة من الدبابات والعربات المدرعة مشارف المدينة من الطرق الثلاث السابق ذكرها فى نفس الوقت تقريبا ، فتصدت لها نيران الأسلحة الصغيرة بغزارة فى كل مكان ، وعاودت مره تانية الدخول بقصف غزير من جميع أسلحة الدبابات ، وقد تمكن الجنود من ضرب عجلات احدى العربات المدرعة فى منطقة الزراير فعطلتها وسدت الطريق ، وآثرت بقية الدبابات فى هذه المنطقة السلامة وتقهقرت الى الخلف ٠

محاولة ثانية :

فى الساعة التاسعة من صباح نفس اليوم دفع العدو بمجموعة من الدبابات والعربات المجنزرة فى مشارف الطريق الرئيسى لمدينة السويس بقصد احتلال المدينة ، وفى نفس الوقت دفع بمجموعة أخرى من الدبابات عن طريق الزيتيات ، وأخذت الدبابات تمطر المدينة بنيران مدفعيتها ورشاشات النصف بوصة بكثافة شديدة فتهدمت البيوت وشبت الحرائق ٠

فماذا كان رد فعل جنودنا ومواطنينا ازاء هذا الموقف الخطير ؟ انتشر الجنود والمواطنون فى كل مكان فى مشارف المدينة وداخلها وجدوا أمامهم موجات من الدبابات الضخمة المعادية توجه اليهم نيرانها ٠

ارادة الرفض

كان المشهد العام لاقتحام الدبابات الضخمة لمشارف المدينة ، أمر ينبىء بسقوط مدينة السويس فى أقل من ساعتين ، ذلك لأن السلاح لم يكن متكافئا ، وجنودنا لا تحميهم مدرعات ، كما ان كمية الأسلحة وقنابل اقتناص الدبابات لم تكن بالقدر الكافى لمواجهة هذه الأعداد الضخمة من الدبابات والمدرعات ٠

ولكن الذى حدث وقتها جاوز القدرات العسكرية جميعا ، وكان امتحانا حقيقيا للانسان المصرى عندما يواجه المحنة الكبرى

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

المقاومة بدائية بسيطة ، الجنود معهم رشاشات قصيرة ، وقد سألت بعضهم فيما بعد عن مشاعرهم وما كان يدور بفكرهم لحظة مواجهتهم لدبابات العدو ٠ فجاءت الاجابات فى الاتجاه التالى :

ـ كانوا ٠٠ وقد هزتهم انتصارات السادس من أكتوبر ، قد ذاقوا حلاوة الانتصار ، وسعدوا بها ٠

ـ أدركوا أن بأيديهم مكاسب يستحقونها ، أحسوا انها مهددة بالضياع ٠

ـ ان احتلال مدينة السويس يعنى ببساطة تفكير الجندى المصرى ، ودون اقحام نفسه فى تفاصيل سياسية و استراتيجية ، ان كرامته ورجولته وشرفه سيقضى عليها تماما ، وهو فى الواقع لا يملك من الدنيا غير هذه الصفات ، فاذا سلبت منه فماذا يتبقى ليعيش من أجله ، الموت عنده هو البديل الوحيد وقد سقط فى مدينة السويس فى ذلك اليوم المجيد مئات الشهداء من الجنود والمواطنين العزل من السلاح ٠ ضحوا بحياتهم لمقاومة العدو ، وهم واثقون من عدم تكافوء ما بأيديهم أمام دبابات العدو ٠

ـ اذن فقد كان ثمة دافع قوى جعل الجميع يتحفزون للمقاومة بشكل يغلب عليه الطابع البدائى والسلوك الغريزى ٠ هذا الدافع أرى تسميته (ارادة الرفض) ٠

وهذه التسمية لها تشبيه قريب ومماثل ٠ ما دمنا نتحدث عن البدائية والغريزة ٠٠٠ فعندما يتناول الانسان طعاما دون رغبة أو ضد شهيته كأن تكون معدته تعانى اضطرابا عضويا ٠٠ ماذا تكون النتيجة ؟ ٠٠٠ ان المعدة (ترفض) هذا الطعام وتلفظه الى الخارج ٠٠٠ لم يفكر المريض فى ذلك ، ولكن الطبيعة قامت بدورها تلقائيا فالجهاز العصبى المستقل (الباراثمبثاوى) أى الذى يعمل بدون تفكير ، قد قام باعطاء اشارة سريعة الى أعصاب وعضلات المعدة وهذه بدورها قامت بلفظ الطعام ٠

كذلك أيضا يمكن تشبيه حالة الرفض بمثال زرع أحد الأعضاء فى جسم مريض ، فزراعة القلب مثلا فى الجسم تواجه مشكلة رئيسية اذا كان جسم المريض يرفض الجسم الغريب ٠٠

ولا يتوافق معه ·· وتكون النتيجة التلقائية عدم التكيف والرفض والعلاج اما نزع الجسم الغريب الأصيل أو الموت ·

·· ·· ·· ··

خرج الناس جنودا ومواطنين فى الشوارع بارادة الرفض ، اما نزع الجسم الغريب أو الموت ·

·· ·· ·· ··

وهذه هى الوقائع التاريخية لأحداث يوم ٢٤ أكتوبر :

(ا) مجموعة الدبابات التى تسربت عن الطريق الأيسر (الزراير) واجهتها جماعات من الجنود وأحد قناصة الدبابات ، وأصابت نيران البنادق الصغيرة احدى العربات المدرعة فسدت الطريق أمام الدبابات فتقهقرت الى الوراء ·

(ب) ومن الطريق الرئيسى على مشـارف المدينـة ، ومن الطريق الجانبى أيضـا تسللت مجمـوعتان من الدبابات والعربات المدرعة وعربات الامداد بالزخيرة ·

دبابتان طراز سنتريوم وباتون ضخمتان من أحدث ما أنتجت أمريكا · قادمتان بهالة ضـخمة من القصف الشـديد بجميع أنواع أسلحتها دفعة واحدة · أمام أحد أقسام الشرطة المدنيـة (قسم الأربعين) ·· وكان بداخل القسم جماعة من الضـباط والجنـود والمواطنين ·· اعتقد قائد الدبابة الأولى بغرور وصلف أن اللقمة سائغة ، وأن المكان مناسب لاحتلال قسم الشرطة ، واتخاذه مقرا للقيادة العسكرية فى المدينة ، وتحت ستار القصف الشديد ، دخل الضابط الاسرائيلى المبنى ومعه عدد من الجنود ، كل جندى يلصق ظهره فى ظهر زميله وبأيديهم الرشاشات يطلقون منها النيران فى

... سقط شهداء كثيرون فى هذه اللحظات وهم يقاومون المعتدين ويحاولون منعهم من دخول المبنى • وعندما تمكنوا من اقتحام القسم من الداخل هددوا من بداخله بالرصاص وبدأ الضابط الاسرائيلى يلقى تعليماته بلهجة فلسطينية ركيكة ، بأن قيادة جيش الدفاع الاسرائيلى فى هذه المنطقة قد تمكنت من السيطرة الكاملة على غرب القناة ، وأن وحدات اسرائيلية أخرى فى طريقها الآن الى القاهرة ، وقد سقطت مدينة السويس والاسماعيلية !! وأن جيش الدفاع الى صدورهم وهم يستعدون الآن للموت ، صرخوا فى وجوه المعتدين الأمن ... الرجال الشرفاء يرفضون كل كلمة ، الرشاشات موجهة الاسرائيلى يريد السلام !! وانهم لا يحبون القتل وأن المدنيين سوف يعاملون معاملة حسنة ولن يصيبهم أى أذى ، وأن القيـــــادة الاسرائيلية فى المدينة ستتولى تدبير شئون الحياة واستتبـــاب تململوا فى مكانهم ، غضب مكظوم فى حلوقهم •

الجندى المجهول

هناك فى مكان من داخل قسم الشرطة ، جندى يوصف بأنه شارد ، ولكنه لم يكن كذلك .. ولهذا الجندى المجهول قصة ينبغى تسجيلها ..

يجوب الطرقات منذ أمس ، سلاحه الصغير ، بندقية آلية ، يبحث لنفسه عن كمين يتمكن معه من توجيه نيران سلاحه صوب العدو ، لم يذق الطعام أو الشراب منذ أكثر من يومين ، لم يغمض له جفن منذ أيام ، وجد غايته منذ الصباح ، صعد الجندى المجهول الى مبنى قسم الشرطة ، وتسلل فوق السطح ، يشاهد الطريق ، ويصوب بندقيته على الدبابات التى بدأت تتسرب ، ولكن الطلقات لا تصيب أحدا من الأعداء ..

الدبابات الاسرائيلية تطلق نيرانها بغزارة ، تهدم المبانى كيفما وقعت القذيفة ، ونيران الرشاشات النصف بوصة تنهمر خارقة

الحواجز ، تصيب من يواجهها فترديه شهيدا ، وهو يحمل معه عدة طلقات قاربت على النفاذ ...

ويحمل معه أيضا ارادة الرفض ...

يطل برأسه من مكانه فيشاهد الدبابتين تتربصان وتربضان أمام باب القسم ، ينتقل بسرعة الى صحن المبنى فيرى مشهدا لم يصادف مثله من قبل ، ولكنه أدركه على الفور ، وعرف دلالته ومعناه .. رأى الضابط الاسرائيلى يلقى بيانا ركيكا كاذب المحتوى .. الجنود المعتدين داخل المبنى ملتصقى الظهور زائغى الأبصار ..

فرحة غامرة طغت عليه ..

انه يحاول منذ الصباح اصطياد أحد المعتدين ، ولم يفلح .. الله يحبه .. انه دعاء الوالدين ... الصيد الثمين يصل اليه ... جاء دوره الآن فى أن يصطاده ، مهمة سهلة وبسيطة ، عليه أن يسرع لتنفيذها . أطل الشاب برأسه وصوب بندقيته الآلية تجاه الضابط المغرور وهو يلقى بيانه ، لم يبق غير رصاصتين فى بندقيته . عليه أن يدقق جيدا فى (النشان) وليترك الضابط يلقى بيانه كيفما شاء .. المهم النتيجة . وما أن انتهى الضابط من بيانه حتى كان صاحبنا الجندى المجهول قد تمكن من تصويب بندقيته عليه وضغط على الزناد ، وسقط الضابط الاسرائيلى المعتدى قتيلا .. وفى نفس اللحظة صوب واحد من جنود العدو مدفعه الرشاش تجاه مصدر الطلقة فخرجت دفعة كاملة من الرصاصات تكفى لقتل عشرات الأفراد .

وسقط الجندى المصرى المجهول شهيدا .

كان يمكن لأفراد العدو السيطرة على الموقف بعد هذه الحادثة، ولكنهم ما أن رأووا جثة قائدهم ملقاة فوق الأرض ، حتى هرعوا الى الخارج مذعورين خائفين ·· تركوا القائد القتيل ولاذوا بالفرار دون وعى أو تفكير ·

وما أن وصلوا الى خارج المبنى ، حتى تلقفتهم طلقات الأسلحة الصغيرة فى أيدى الجنود وأفراد المقاومة المنتشرين فى كل مكان ·· فقد كانوا منذ الصباح يوجهـون نيران أسلحتهم المتواضعة صـوب العدو ·· وكنا نقول لهم لا تفرطوا فى الزخيرة حتى لا تنفد ، كنا نتهمهم بعدم الحكمة فى استخدام الزخيرة ·· واتضح بعد ذلك انهم كانوا على حق ، وكان الناصحون مخطئين ··

فقد تبين ان هذه الطلقات المستمرة من أسلحتهم الصغيرة ··· كان لها أثر عظيم ورد فعل قوى فى الحالة النفسية والمعنوية لقوات العدو الاسرائيلى المقتحم لديارنا ·

تملك المعتدين الفزع والهلع عندما واجهوا هذه الطلقات من كل مكان ، ولم يتمكنوا من السيطرة على ما بأيديهم من أسلحة فتاكة تفوق ما بأيدى رجالنا الأبطال ·

ثم تساقطوا واحدا بعد الآخر أمام باب القسم ···

انها ارادة الرفض وراء هذا السلوك التلقائى لجنودنا الأبطال وأفراد المقاومة من المواطنين الشرفاء ··

وانهمرت الرصاصات فى كل مكان ··

وظن العدو أنه وقع فى كمين خطير ، لم يستطع أن يدرك الأمر ويستوعب الموقف ·· ولأنهم كانوا خائفين فقد فقدوا السيطرة على دباباتهم ونيرانهم ·

وفى نفس اللحظة التى سقطت فيها الدفعة الأولى من المعتدين ... وعند ما شاهد من بداخل الدبابة الثانية الرابضة أمام القسم زملاءهم فوق الأرض ، قرر قائدها أن يلوذ بالفرار ، تحرك بدبابته ليدور بها فى اتجاه العودة ، ولكنه كان مزعورا خائفا فلم يتمكن من القيادة السليمة واندفع بدبابتهفوق الرصيف فاصطدم البناء الحديدى الضخم بعامود النور فكسره ، وسقط العامود الأجوف فوق الدبابة وأحدث ارتطامه بها صوتا عاليا رنانا ، اعتقد المزعورون أن صاروخا مضادا للدبابات قد أصابها ، وفى نفس اللحظة تلامست أسلاك كهرباء عامود النور بجسم الدبابة فأحدث بها ماسا كهربائيا . وفجأة فتح أفراد طاقم الدبابة البرج وهرعوا الى الخارج للنجاة بأنفسهم من الحريق ... استجاروا من هلاك المدرعة .. وما لبثوا ان واجهتهم الأسلحة الصغيرة بوابل من الرصاص فسقطوا فوق الأرض بجانب زملائهم ما بين قتيل وجريح ..

...

اللاحقون من طاقم الدبابة الثانية بجوار السابقين من الدفعة الأولى ..

الله أكبر ... الله أكبر ...

ودوى النداء العظيم فى أرجاء المدينة ، يهز النفوس ، وسرى الصوت الرهيب فى روح كل جندى وكل مواطن ... الشباب والشيوخ ، النساء والأطفال داخل المساكن الخشبية الواهية والبيوت المتهاوية والمحترقة ... الجميع ينادون .. الله أكبر .. الله أكبر .. نابعة من القلب يخرجون من كل مكان الى حيث سقط المعتدون .. الله أكبر .. الله أكبر .

رأيت صفا من الدبابات والمدرعات وعربات الامداد والتموين أولها أمام قسم الشرطة ، وآخرها خارج المدينة عند المدخل الرئيسى ٠٠ وأمام المبنى جثث لبعض الضباط والجنود الاسرائيليين ٠

وحميت المعركة ٠٠ معركة غير متكافئة بالسلاح ٠٠ أما الرجال فان أمرهم يفوق الوصف والخيال ٠٠

الجماهير فى الشوارع ٠٠ الأفرول العسكرى ، القميص والبنطلون ، البيجامة ، الجلباب والطاقية ، العمامة واللاسة والطربوش ، رجال ونساء وأطفال ٠٠ خرجوا جميعا عند مكان المعركة ٠٠ تحركهم ارادة قوية لمنع المعتدين من اقتحام المدينة ٠٠ انها ارادة الرفض ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

ان المظاهر السلوكية للجنود والجماهير المصرية فى حرب أكتوبر وخلال معاركها ٠ تستحق حقا تحليل ودراسة علماء البحوث النفسية والاجتماعية ، بل أكاد أقول انها جديرة بأن ينشأ لها فرع جديد من العلوم يطلق عليه اسم علم الانسان المصرى ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

وحدث تحول كبير فى انفعالات المقاتلين والجماهير ، وحدث أيضا تحول معاكس فى انفعالات المعتدين ٠٠

التحول العظيم

اقتحم العدو الاسرائيلى مشارف مدينة السويس صباح يوم الرابع والعشرين من أكتوبر ، وهم موقنون بأنهم الغالبون ، رأنهم مسيطرون على المدينة حتما ، والذى هيأ لهم هذا الاعتقاد عدة حقائق أهمها :

- علمهم بأن المدينة مكتظة بالأهالى المدنيين العزل من السلاح .

- ان الجنود الذين اختاروا الطريق الصعب واندفعوا الى داخل المدينة شاردون ، جائعون ، لم يناموا منذ عدة أيام .

- ان هؤلاء الجنود انعزلوا عن قياداتهم وهم بقايا مؤخرات . خلاصة اعتقادهم ، ان ضربة واحدة من دبابة واحدة كفيلة بأن تدب الخوف فى نفوسهم وتجعلهم يبادرون برفع الراية البيضاء راجين من العدو قبول الاستسلام .

وقد أضاف العدو الى عوامل دراسته للموقف عاملا آخر وهو أسلوب الحرب النفسية التقليدى ٠٠ فمنذ صباح ذلك اليوم قام باذاعة نداءات بمكبرات الصوت باللغة العربية فحواها أن الجيش المصرى قد خسر المعركة ، وأن القوات الاسرائيلية تسيطر تماما على المناطق المجاورة ، وأن الاستسلام للجيش الاسرائيلى خير طريق للنجاه ، وانهم يضمنون حياتنا اذا لم نقاوم ٠

كانت صدمة أليمة أصابتنا جميعا ، ولكنها بدلا من أن تجعلنا نستسلم دفعتنا الى المقاومة بكل ما أوتينا من قوة وارادة ، رفضنا نداءات العدو ، تحولنا جميعا الى نبذ كل ما يأتى عنه من دبابات ومدرعات وكلمات ، وكأن صوت المكبرات قد أمدنا بشحنات جديدة من العناد والتصميم على الرفض ٠٠٠ انهم يساوموننا بأعز ما نملك ٠٠٠ لقاء ماذا ؟ لقاء ضمان حياتنا وهل للحياة بعد الاستسلام قيمة أو معنى ؟ ٠٠ لقد سمعت أحد الضباط يعبر عما فى نفوسنا جميعا عند ما تلقى النداء فقال وكيف أواجه زوجتى وأبنائى اذا استسلمت للعدو ٠٠٠ يا له من عار ٠٠

اذن فقد كان القائد الاسرائيلى ومن معه من الضباط والجنود واثقين ان احتلال المدينة أمر سهل ، وأن رفع الراية البيضاء فوق المحافظة أمر متوقع وشيك الحدوث ٠٠٠ ويدل على ذلك بعض العلامات المادية منها مثلا أن بعض العربات المدرعة وعدد من العربات اللورى المكشوفة حاولت دخول المدينة ، وهذا أمر لا يحدث الا فى حالة التأكد من أن أحدا لن يقاومهم !!

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

وجاء التحول الكبير فى دقائق ٠٠٠

فكيف حدث ذلك ؟

في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ أمتنا المجيد .. أقول صراحة انه لم يكن هناك متسع من الوقت لاجراء تنظيم دقيق وشامل لأعمال المقاومة الشعبية ، ولم توضع خطط استراتيجية لحـــرب التحرير الشعبية بما فيها من تكتيكات أو معدات ، ولم يحدث تدبير مسبق لهذه الأعمال ، ولم يتول قيادة التنظيم الشعبى فى المدينة قادة أو مخططون لسير العملية ومتابعتها ولم ينبثق من بين الجماهير زعيم له سطوة ونفوذ فى نفوس المواطنين أصدر أمرا وسارت وراءه الجماهير .. لم يحدث شيء من هذا .. وانما حدث ان كل جندى أصبح مخططا ومنفذا وكل مواطن أصبح زعيما وقائدا ، وكل رجل دين أصبح موجها ومرشدا ..

أصبح مسجد الشهداء مركزا لتوزيع السلاح ، وقائد المسجد موجها للناس ومرشدا . ومسجد الأربعين كمينا لاقتناص الدبابات. المسئولون العسكريون بالمدينة قاموا بواجباتهم فى صمت وسرية ، المسئولون فى المحـافظة انتقلوا من مكان الى آخر للمشاركة بمـا استطاعوه ، الأطباء والممرضات بالمستشفى انهمكوا فى اســعاف الجرحى ، المواطنون من الرجال والنساء والأطفال قاموا بنقل الزخيرة من مكان الى مكان ...

خرج الناس من بيوتهم واندمجوا مع المقاتلين الذين لا مأوى لهم ... تفجرت الثورة ضد المعتدى من غير تدبير أو تنظيم ، وبدون سلاح متكافىء ، بارادة وتصميم لا مثيل لهما لرفض ونبذ معدات العدو وأفراده ، رفض الوجود الاسرائيلى ، لفظ الجندى المعتدى فى المدينة .. شكله وصورته .. بل رائحته غير مقبولة .. تأفف الناس جميعا من مجرد فكرة قبول وجود العدو فى مدينة السويس ..

وهذا أروع ما فى الأمر ..

فلو أن العدو دخل المدينة وواجه دبابات تقاوم دباباته ، ثم

ردته على أعقابه لكان الحدث أمرا عاديا لا يتعدى خبرا عسكريا وكم من بيانات عسكرية تناولت معارك ضارية بالأسلحة المختلفة .

ولو أن تنظيما شعبيا محكما ترتب عليه تدبير أعمال المقاومة الشعبية والالتحام التنظيمى مع القوات المسلحة ... وغير ذلك من استعدادات مسبقة لهذا الموقف لكان أمرا عاديا أن نقضى على محاولات العدو المقتحم .

ولو أن قواتنا فى العرب قامت بالضغط على قوات العدو فى غرب القناة وتكبيده خسائر جسيمة فى الأرواح والمعدات ، لتفتت وتبعثر ، وفقد توازنه ، ولم يحاول دخول المدينة ، ولأصبح ذلك فى عداد العمليات العسكرية اليومية العادية .

.. ..

ولكن أن يدخل العدو بكل ثقله التكنولوجى العسكرى ولا يجد أمامه سوى مجموعات من الجنود ومواطنين عزلا من السلاح معظمهم من أصحاب الحرف والعمال والبائعين المتجولين ، ثم ينهزم أمامهم هزيمة منكرة أمر بلغ فى عظمته حد العجز عن وصفه وتقديره .

بل لو أن العدو كان يعلم ان جيشا منظما سيقابله وأن تنظيما شعبيا فى مواجهته ، ولو عرف أن مخططا شاملا قد وضع لصده ، لاستطاع أن يضع خطة مضادة وتنظيما متكافئا لابطال فاعلية المقاومة واخضاع المدينة للاستسلام ... ولكنها ارادة الشعب وتصميم الجنود أبناء الأرض ، ارادة الناس الطيبين البسطاء ، الفقراء الكادحين فى الأرض ، الذين يسعون الى لقمة العيش فوق البارود ، ارادة الذين لا يملكون من الحياة سوى معانى عن الشرف والكرامة ، وسوى انتمائهم للأرض التى سقوا ماء نيلها ، وأطعموا مما تنبت أرضها

وتخرج بحارها ··· عز عليهم أن يستسلموا للعدو ، فهبوا يضحون بأرواحهم فداء للبلد والوطن ·

·· ·· ·· ·· ··

وسقط عشرات الشهداء ··· انهم الأبطال الحقيقيون ·· ارادتهم مستمدة من ارادة الله ، أحبوا الوطن ، ورفعوا رأس وهامة كل مواطن مصرى ، بل جميع من بالوطن العربى · سقط أبناء الأرض شهداء مدينة السويس الباسلة بقنابل الطائرات الفانتوم والاسكاى هوك ومدفعية الدبابات ورشاشات النصف بوصة · بكل هذه الأسلحة وأكثر ··

وسقط المعتدون بأبسط وسائل المقاومة ، بالبندقية الآلية ، برصاصات الـ ٩ مم انتاج المصانع الحربية المصرية ·

سقطوا بارادة الرفض ···

قتلوا زعرا وخوفا وهلعا ··· فقد اتضح بعد ذلك أن كثيرا منهم لم تكن اصابتهم قاتلة ، ولكنهم ماتوا من فرط خوفهم وهلعهم. كانوا مزعورين ، وهذه حقيقة أكدتها جثث قتلاهم بعد ذلك ··· رأيت ضباط وجنود العدو يوم ٢٤ أكتوبر ، الذين لم يصبهم رصاص المقاومة تفيض عيونهم بالرعب ، ألقوا أسلحتهم ، وحاولوا الفرار هاربين من الغضب العظيم ، غضب الجماهير ··

اندلعت الثورة الشعبية بكل مقوماتها ·· أليس هذا حق الجماهير الطبيعي ، العدو ينتهك حرمة ديارهم ، يقتحم المدينة بنية الشر والحاق الأذى بالسكان ·· من أجل القتل والارهاب ، وما مذبحتى دير ياسين وكفر قاسم بعيدة عن الأذهان ، أليس هذا هو أسلوب العدو ·· يقتحم المدينة أو القرية ، ويقتل الرجال ويذبح الأطفال ، ويبقر بطون الحوامل أمام الأزواج والأبناء ·

لقد أحس المواطنون بكل ذلك ، وتوقعوا أن يفعل العدو بنسائهم وأطفالهم مثلما فعل ذلك فى المدن والقرى العربية التى احتلها .

هذا هو منطق وتفكير المواطنين البسطاء الشرفاء ... فماذا ننتظر من الأهالى والجنود وقد انصهروا ؟ ان البادى دائما أظلم ، هم البادئون بالغدر واقتحام الديار ، لم نبدأ نحن بالعدوان واحتلال أراضى الغير ، لم نقتحم ديار غيرنا ونحتلها . لم نسط على حقوق أحد ، وهذا الشعب السويسى العظيم لم يسلب جنود العدو أموالهم ولم يحطم ديارهم ، ولم ييتم أطفالهم ولم يشرد الآلاف ... لم يحدث ذلك ..

ولكن هذا الشعب البطل .. ذاق مرارة الحرب منذ اندلاعها ، سنوات طويلة وهم يتجرعون عذاب العدوان ، قصف الطيران ، وضرب الدبابات والمدفعية الثقيلة ، تحطمت ديارهم ، وقتل منهم مئات الرجال والنساء والأطفال ، تهدمت المساجد والكنائس ، تشتت القوم مبعثرين ومهجرين الى مئات القرى والمدن .. تركوا أموالهم ، ومصادر أرزاقهم ورضوا بالكفاف .

ماذا ننتظر من شعب السويس العظيم ، الكادحين فى الأرض ، الذين يعملون هنا من أجل لقمة العيش الصعبة المنال ، الذين اختاروا النوم فى الخرائب من أجل استمرار حياة مدينتهم ولم يتركوا المدينة رغم علمهم بأنها معرضة لقصف الطيران .

.. ..

وماذا ننتظر من المقاتلين ... وقد هزتهم فاجعة الالتفاف خلف قواتهم .. كانوا حتى آخر لحظة منتصرين ، هل ضاع كل شىء ، أليس هناك أمل فى استعادة النصر ، انها الحرب . معارك فيها مكاسب وفيها خسائر ، والعبرة بالنتائج ..

نحن أمام موقف يتلاشى فيه التنظيم أو التخطيط ، ولم يكن لهما ظهر الرابع والعشرين من أكتوبر ، وأمام قسم الشرطة عند مشارف المدينة دلالة أو معنى ، نحن فى موقف التصرف التلقائى الغريزى ، وضع العدو نفسه فى مأزق ، دخل ديارنا بقصد القتل والنهب والسلب ،وأصحاب الأرض غاضبون .... هل يربتون على أكتاف المعتدين ، أم يرحبون بمقدمهم ؟! هل والحال هكذا ، يقولون لهم تفضلوا من هنا على الرحب والسعة ، أم يعدون لهم الطعام فى فندق بلير (*) .

واذا تركنا أسلوب التهكم ، واستخدمنا المنطق ، نتساءل هل يمكن أن ننقلهم فى هذه اللحظات المشحونة بشتى الانفعالات الى مقر القيادة ونقوم باستجوابهم ، ونسألهم عن سبب مجيئهم ومن أى فرقة ينتمون ، وأرقامهم العسكرية وغير ذلك من أسئلة تقليدية .

ان شيئا من ذلك لم يحدث ..

اننا أمام ثورة شعبية عارمة ، ثورة تتفجر فيها انفعالات القوم لتخلق مصير الأمة ، لحظات ليست فى حساب الزمن المعتاد ، وانما تقاس بمعايير أخرى مختلفة ، عقارب الزمن هنا تحركها سبعة آلاف عام من الحضارة المصرية الأصيلة ، انتصارات ثم انتكاسات ثم صحوات .. وهكذا .. تاريخ مملوء بالأحداث والحركة والديناميكية، صبت جميعها فى عقل وروح هذا الشعب ، فجعلته يتصرف هكذا ، العشوائية هنا لا تعنى الفوضى ، والتلقائية فى التصرف ليست تلك التى نعرفها عن غريزة الحيوان ، بل ان تصرفات المواطنين الشرفاء

(*) مطعم وفندق من معالم مدينة السويس .

التلقائية الغريزية هى فى واقع الأمر تصرفات هادفة وان كانت غير مخططة ، تصرفات ايجابية ذات فاعلية وان بدت فوضوية ٠

لم يربت الجنود المصريون أو أهالى البلد على أكتاف العـدو المقتحم ، أمام قسم الشرطة ، وانما ضربوه بالنعال ، وهذا حقهم ٠

أما بقية طابور دبابات العدو ومصفحاته وعرباته ، فقد حدث لمن بداخل الدبابة الثالثة مثلما حدث لسابقيها ، واحدة تلو الأخرى حتى آخر الطابور ، قفزوا جميعا من داخل دباباتهم وعرباتهم خائفين من قنابل قنص الدبابات ، فتلقفتهم ثورة الجماهير ، ووقعوا فى الغضب العظيم ، وسقطوا صرعى الأسلحة الصغيرة ٠

والذين مكثوا فى دباباتهم قليلا عجلت بحياتهم هجمات قنابل القنص ، وتقدم بعض الأطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم الثانيةعشرة بصدورهم نحو بعض الدبابات والقوا بداخلها خرقا مشـــتعلة بالكيروسين واستشهد منهم غلام بعد أن دمر دبابة ضخمة وأشعل بمن داخلها النيران ٠

باقات الرصاص

ظهران رأيت فيهما وجوه الناس مستبشرة ، تغمرهم الفرحة والنشوة ، ظهر يوم السادس من أكتوبر بعد نجاح عملية العبور العظيم ، وظهر يوم الرابع والعشرين فى مدينة السويس عندما تمت السيطرة كاملة على المعتدين ٠

كانت الدبابات الضخمة منذ ساعات قليلة تجوب مشارف المدينة ، فكيف أصبحت الآن ؟ المعتدون ملقون فوق الأرض ميتون وآخرون ينزفون ومنهم من حاول الهرب فوقع بين أيدى وأسنان الغاضبين ٠٠٠ منذ أقل من ساعة كانو يعربدون بدباباتهم ، حطموا البيوت وجعلوها أكواما من الحجارة والأنقاض أما العمارات فقد تهدمت جدرانها ولم تعد ثمة مسكن لا يخلو من فجوات انبعجت أبواب المحلات كلها بفعل ضغط الهواء ، تحول المدخل الرئيسى للمدينة الى خرائب مشتعلة بالنيران ٠

أصبحت الدبابــات مثل لعب الأطفال ، الجنــازير مقطعــة ، وممتدة بجانب جسم الدبابة كما لو كانت أذيال الخيبة التى لحقت بالعدو ، فوهات مدفعية الدبابات ممزقة وموجهة الى أسفل مثلمــا يحنى المذنب رأسه خزيا وخجلا ٠

لم يخش الناس البسطاء التكنولوجيا العسكرية المتمثلة فى المساعدات الأمريكية ، واجهوها بصدورهم ، انتصر الجندى الفلاح للمرة الثانية فى نفس الشــهر على الجندى المتحضر المتــأمرك انتصرت البندقية الآلية الرصاص ٩ مم على الرشاشات نصف بوصة سريعة الطلقات وغيرها من مستحدثات الدمار ٠٠٠ غلبت أدوات الحرفيين وأصحاب محلات البقالــة والجزارة ارادة العدو وحطمت مقاصده فى احتلال المدينة ٠

ولأول مرةيتعامل المواطنون مع معدات العدو وأدواته ،وأصبحت الدبابات والعربات فى أيدى رجال وأطفال السويس مثل اللعب٠٠ دخلوهــا وأخرجوا ما بداخلهــا مــن مهمــات المعتدين وذخائرهم وأسلحتهم الفتاكة ٠٠٠ شرائط طلقات الرشاشات أصبحت عقودا فوق صدور الرجال والنساء ، انها أجمل وأروع من باقات الزهور قلدوها حول أعناق بعضهم البعض ، الأجهزة اللاسلكية ومستحدثات العلم العسكرى فى أيدى الأطفال يقلبون فيها فرحين مستبشرين٠٠ ليرات اسرائيلية ودولارات أمريكيــة فى أيدى الجــنود والمواطنين لايميزون بينها ولا يعرفون قيمتها ، وانما يعرفون حقيقــة واحدة وهى أن الجــندى الاسرائيلى ليس قــادرا كما كانوا يظنون ، وأن الانسان المصرى أثبت بالتجربة قدرته ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

واجه الموطنون فى الســويس أفراد العــدو لأول مــرة فى حياتهم ٠٠ كانوا يسمعون عنهم ٠٠٠ ، فقط أحسوا بطيرانهم يقصف

مدينتهم ودمارهم يشمل بيوتهم ويفرق جمعهم ، ولكنهم لم يروهم قبل اليوم. الجنود الاسرائيليون الآن بين أيدى الجنود وأبناء السويس يقلبونهم ، وينقلون جثثهم ، أما الأحياء منهم فقد كانوا فى أشـد حالات الهلع الانسانى ، وما أن نقلوا الى المستشفى العام حتى كان الخوف قد قتلهم .

كلهم أبطال

وسارت أحداث الجبهة الأخرى من اقتحـــام مشارف مدينـة السويس على النحو الآتى : ـ

تقدمت مجموعة من الدبابات فى الساعة الثامنة والنصـف من صباح نفس اليوم عن طريق الزيتيات ، وهذا الطريق يمتد على كورنيش الخليج يمينا وبقصر الثقافة ثم مبنى المحافظة يسارا .. ويوصل هذا الطريق الى مدخل بور توفيق .

وبنفس أســـلوب الارهـاب فتحت الدبابات جميع أنواع أسلحتها تهدم المبانى وتشعل فيها الحرائق ، ثم وقفت دبابتـان بالقرب من مبنى المحافظة على حذر ، ووقفت دبابتان أخريان عنـــد مداخل الطرق الرئيسية بينما تدير فوهات مدفعيتهـا فى جميع الاتجاهات لتغرق المدينة بوابل من النيران .

وبينما كانت الدبابات تجول دون جدوى من التقدم أو التأثير على الأهالي ، كان بعض المواطنين داخل المسجد القريب من المحافظة يؤدون الصلاة في مواقيتها ، وصوت المؤذن في الميكرفون ينادي الله أكبر ٠٠ الله أكبر ٠٠ حي على الصلاة ٠٠ حي على الفلاح ٠٠ الناس يصلون داخل المسجد ، ودبابات العدو تطلق النيران على مصدر الصوت وكأن صوت الحق يكاد يسكت صوت العدوان ٠٠

مسجد الشهداء ٠٠ اسم مناسب للموقف ، فالذين ينتهون من الصلاة يخرجون ومعهم سلاح للوقوف في وجه العدو واستشهد منهم الكثيرون ، ترى أسماءهم عند مدخل المسجد الآن ٠ ومن بداخل المسجد معرضون جميعا للاستشهاد وهم راكعون ساجدون، زجاج المسجد يتساقط فوق المصلين بينما تزمجر مدفعية الدبابات ٠٠٠ كان بالمسجد ثلاثة من الجنود المسيحيين ، رحب بهم شيخ المسجد ٠٠٠ رأيتهم يؤدون صلاتهم في الصفوف الخلفية ويبتهلون ويرددون الدعاء مع المصليين المسلمين (يا أرحم الراحمين ارحمنا ٠٠ يا مغيث أغثنا ٠٠ حسبنا الله ونعم الوكيل) ٠٠٠ الدعاء من القلب ، وطلقات مدفعية الدبابات مركزة حول مصدر الدعاء ٠٠ فلا تصيبه بأذى بينما تتهدم المباني المجاورة وهي خالية من السكان ٠

ومرت الساعات ٠٠ العدو يحاول اقتحام المدينة واحتلالها٠٠ والجنود والأهالي مصممون على المقاومة بكل ما أوتوا من قوة ، بما في أيديهم من سلاح وبصدورهم ، وبصلاتهم ودعائهم واستغاثتهم بالله العلي القدير ٠

وكان الله قد استجاب للدعاء ٠٠ وسقطت الدبابات كما سبق شرحه في الفصل السابق ، واستبشر الناس بأن الخير آت قريب ، وأن بعد العسر يسرا ، وعندما سقطت أول دبابة لم يعد أحد يخشى

الدبابات ،وخرج الناس جميعا لا يهابون الموت ، وفى نفس الوقت الذى كانت الدبابات تجوب طريق الكورنيش قريبا مـن المحافظـة كانت الجماهير فى الشوارع تسير غير عابئة بالقصـف ، ففـد كانت ثمة واجبات ضخمة لاتقبل الارجاء ٠٠٠ !انطلقنا جميعا فى الطرقات، ضباطا وجنودا ، وأهالى من العاملين من المهندسين والموظفين والعمال وأصحاب الحرف ، وأصحاب الحوانيت ، وباعة الصحف والمجلات والحرفيين والباعة الجائلين ٠

النيران مشتعلة فى البيوت ، والشهداء والجرحى تحت الأنقاض وفى الطرقات ، وجثث المعتدين أيضا ملقاة فوق الأرصفة ، النيران تشتعل فى مخازن الدقيق والسكر ومحلات البقالة ومخازن المواد التموينية ٠

ووسط النيران وقصف الدبابات ، خرجت جميع فئات الشعب الى الطرقات ٠٠ تم انقاذ بقية جوالات الدقيق قبل أن تأكلهـــا النيران ، ونقلت الى مخازن أخرى ، وكذلك تم انقاذ كميـات مـن المواد الاستهلاكية التموينية ٠

خرجنا لجمع جثث الشهداء من تحت الانقاض ، وتشكلت جماعات لحفر المقـابر وأخـرى للدفن ، وتم نقل الجرحى الى المستشفى ، وكان مثل خلية النحل ، كل هـــذه الاجراءات تمت تحت وابل من القصـف الشـديد وطلقات الرصـاص من كل جانب ٠

شعب السويس العظيم يعيش ساعات حاسمة من تاريخه ٠٠ رأيت التجار وأصحاب المطاعم ومحلات الخضروات والفاكهة يفتحون

محلاتهم لهشمة وينقذون بضائعهم ، رأسمالهم التجارى ، ويوزعونه على الجنود والمواطنين دون مقابل ٠٠ المقاتلين وأفـــراد المقـاومة الشعبية يدخلون محلات الطعـــام ويتناولون ما يشـــــاؤون ثم ينصرفون وأصحاب المحلات يشجعونهم ويقدمون لهم المزيد ، ويدعون لهم بالتوفيق ، لم يعد للمال قيمة الآن ، والتعامل بين الناس ليس بالعملات الورقية أو المعدنية وانما بعملة التضحية من أجل انقاذ الأرض من المعتدين ولم يكن للطعام مذاق وانما كنا نبلعه بلعا من أجل الحفاظ على الحياة والقدرة على العمل فحسب ٠

قائد المسجد يحمل صينية مملوءة بالكعك والبسكويت ـ كان قد أعده ليقدمه الى المقاتلين فى سيناء يوم العيد ـ ويقدمه لمن بداخل المسجد وخارجه ، يأخذ المقاتل والمواطن حاجته ثم ينطلق الى موقعه، فقد كان الجميع يعملون ٠

وعند آخر ضوء ، انسحبت الدبابات التى كانت تحوم حول المحافظة ومشارف المدينة ، ما عدا دبابتين احداهما وقعت فى حقل الغام بثه امامها رجال الصاعقة عند بداية مدخل بورتوفيق ، أما الثانية فقد تعطلت أمام أحد الفنادق بالقرب من مبنى المحافظـة ، وعندما حاول أفرادها اصـــلاح العطل واجهتهم نيران بعض جنود كانوا بالمنطقة ، حاول الأفراد الاختباء فى الفندق ، فاقتحموه ودارت معركة بالطابق الثانى قتل فيها اثنان من أفراد العدو واستشهد اثنان من جنودنا الأبطال ـ وعاد بقية الطاقم الى الوراء بخفى حنين

وفى منطقة الزراير تقهقرت الدبابات التى حاولت اقتحـام

المدينة ، وذلك بعد أن دمر أحد الجنود احدى العربات المدرعة للعدو، فسدت الطريق أمام بقية الدبابات التى آثر قادتها السلامة ناجين بأنفسهم من هلاك أكيد ٠

أما الدبابات والعربات المدرعة واللوريات وجميع أفراد العدو الذين اقتحموا مشارف المدينة من الطريق الرئيسى ، فلم يتقهقر منهم أحد ، فقد دمرت الجماهير الثائرة جميع المعدات ٠

ولا شك أن قوات العدو غرب القناة شعروا تماما ولأول مرة أنهم فى مأزق فعلى ، فقد انقطعت الاتصالات اللاسلكية بين القيادة غرب القناة وبين مجموعة الدبابات التى اقتحمت مشارف المدينـــة من الطريق الرئيسى منذ الظهر ، وأصبح واضحا للجميع أن دخول الحمام ليس مثل الخروج منه ٠٠٠٠ كما يقول المثل الشعبى السائر، وقد كان دخول دبابات العدو مدينة السويس يختلف عن خروجها٠

وخيم الظلام على المدينة ، ونام الناس بعد طول عناء ، بعد أن أدوا أمانتهم نحو مدينتهم بل نحو مصر كلها ، وظل العدو خائفـــا مزعورا خارج المدينة ، ليس للأمان عنده مكان ، كأنما هم يخشون هؤلاء الوحوش الذين يستخدمون أســـنانهم عند الحاجة ، فربما تسللوا اليهم ليلا (وتعشوا) بهم مثلما (تغذوا) بزملاء لهم عند الظهر ! !

ولكى يأمنوا شر المخبوء ٠٠٠ أضاءوا المدينـــــة بالمشــاعل الكاشفة ليلا ، وقبل أن ينتهى مفعول المشعل يطلقون غيره ، وباتت المدينة كلها مضيئة ٠

وماذا هناك

أيام مباركة ٠٠ ليالى رمضان فى نهايتها ٠٠

العدو خارج المدينة مهزوما ٠٠دباباته ملقاة فوق أرصفة السويس مثل الحديد الخردة ٠٠ لا شك أنهم فى مأزق ٠

ولكى يصبح الموقف واضحا للقارىء ، يحسن بنا أن نستكمل الرؤية ، ونوجه عدسات التصوير الى منطقة الزيتيات حيث كان العدو يظن أنه يسيطر على المنطقة ، وحيث عادت اليهم بعض دباباتهم مساء ٢٤ أكتوبر تجر أذيال الخيبة ٠ وقد جمعت المعلومات الواردة فى الصفحات التالية من بعض المهندسين والعمال الذين شاهدوا الوجود الاسرائيلى فى هذه المنطقة ٠

بضع مئات من الآهالى المدنيين والعاملين بشركات البتـرول ومبنى المعمل يقفون فيقعون تحت تهديدات دبابات العدو ونيرانه داخل المبانى • قال لى المهندس سعد الهاكع بعد ذلك • رقد كان فى هذه المنطقة ، ان تصرفات العدو منذ كان بالزيتيات اتسـمت بالخوف والذعر • واشتدت علامات خوفه يوم الرابع والعشرين من أكتوبر ، كان العدو يبدى فى أول الأمر ثقـة مزيفـة بقدرتـه على احتلال المدينة ، فاستخف بالأهالى يوم ٢٣ أكتوبر وأذاع ، عليهم بيانات مضللة عن سيطرة قوات جيش الدفاع الاسرائيلى على منطقة غرب القناة • وأن عملية احتلال مدينة السويس مفروغ منه ••• ثم فجأة تغير أسلوبهم مساء يوم ٢٤ أكتوبر وحاولوا استمـــالة المدنيين ، فقالوا انهم لا يريدون الحرب وانما يبغون السلام، وأن جولدا مائير والرئيس المصرى يزجون بشعوبهم فى نيران الحرب•• الخ • وعندما لم يســتجب لهم المواطنون وأظهروا لهم احتقـارا وسلبية ، عادوا ثانية الى أسـلوب التهديد •• وفى تأرجحهم بين الاستمالة والتهديد انكشفت حالتهم النفسية الفعلية ، فضـحوا أنفسهم ولم يتمكنوا من تخبئة أو مداراة خوفهم ، ولاحظ العاملون أنه اذا تحرك أحدهم حركة عادية انتاب أفرادهم الاضطراب والخوف المفاجىء ، كانوا يخشون حركة المواطنين العزل من السـلاح بينما هم يصوبون فوهات رشاشـــاتهم فى صدور الأهالى • تظهر على الحارس علامات الاضطراب ثم يأمر المصرى بعدم التحرك ، رقد عرف العاملون بذكائهم المصرى الفطرى أن شيئا قد حدث لجنود العدو فى مدينة السويس ، وأن الموقف أصبح فى غير صالحهم تماما ، فأخذ بعضهم يقوم بحركات مقصودة مثل السعال أو وضع اليد فوق الفم عند التثاؤب •• فيهتز الحراس يمينا ويسارا ، وقد أثار هذا الموقف الصعب سخرية الرجال فأخذوا يسرون عن أنفسهم فى هذا الموقف

الصعب بالمبالغة فى الحركات والالتفاتات ويسلوا أنفسهم بمشاهدة الحراس المضطربين •

العدو يحتاج الى الماء :

واستدعى القائد الاسرائيلى فى منطقة الزيتيات المهندس المسئول عن جماعة الموظفين والعمال ، وأخبره أن المياه لاتصل الى الصنابير ، وطلب منه الكشف على المحابس وفتحها ، وقد أدرك المهندس أن الفرصة متاحة للكشف عن موقف العدو وتخويفه ، فأخبره أن صهاريج المياه فوق سطح المبنى وأنه (أى الضابط الاسرائيلى) يمكنه الصعود وفتح المحابس ، ومرة أخرى كشف العدو عن موقفه اذ رفض ذلك وطلب من المهندس أن يصعد وحده الى السطح لفتح محابس الماء •

ونفذ المهندس الذكى الأوامر ، ولكنه بدلا من أن يفتح محابس المياه التى تجعل الماء يتدفق الى المبنى والمبانى المجاورة أحكم اغلاقها . وقام بفتح المحابس التى تجعل مخزون المياه فى الصهاريج يتدفق عائدا الى خزانات المياه الموجودة الى مدينة السويس • وكان لهذا التصرف العبقرى بالغ الأثر بعد ذلك على حياة الناس فى المدينة كما سيأتى ذكره بعد •

وعاد الرجل الى مكان الضابط يبلغه أن العملية معقدة ، وأنه لم يتمكن من عمل شىء ، وأنه (أى الضابط) يمكنه أن يصعد بنفسه الى السطح لمعالجة المحابس ، ولكن الخائف آثر السلامة على العطش •

العدو يستميل الجنود :

وقد حاول العدو بشتى الطرق استمالة بعض المواطنين وطلبوا منهم أن يحضروا لهم جنودا وسوف يمدونهم بالمال والطعام، وأن ينقلوا اليهم معلومات عن المدينة ، وقد تظاهر هؤلاء الافراد بالموافقة ، والوعد بأنهم سيحضرون لهم عددا من الجنود الجائعين وينقلون لهم معلومات عن المدينة ، وقد جاءوا جميعا الى داخل المدينة ، وبدلا من أن ينفذوا طلبات العدو ، نقلوا الى المسئولين صورة كاملة عن الموقف فى المنطقة ، وأفادوا أيضا عن نوايا العدو فى مغامرة أخرى :

فعندما فشلت مغامرة دبابات يوم ٢٤ أكتوبر ، فكر العدو فى محاولة أخرى لدخول المدينة بأسلوب ماكر ، بأن يضعوا المواطنين المدنيين من المهندسين والعمال فى منطقة الزيتيات داخل عربات وفوق الدبابات ، ثم يقتحموا المدينة بهم من طريق الزيتيات ثم يحتلون المحافظة ، وقد اعتقدوا أن الجنود وأفراد المقاومة لن يجرؤوا على تدمير الدبابات والمقاومة مثلما حدث بالأمس ، وعندما وصلت هذه المعلومات الى المسئولين بالمدينة ، تم اتخاذ قرار بأن تطلق نيران أسلحة المقاومة واقتناص الدبابات فى وجه العربات والدبابات مهما كلف الأمر من خسائر فى الأرواح .. وصدرت تعليمات حاسمة ومحددة للجنود فى كمائنهم ، واستعدوا مع أفراد المقاومة ، ونظموا أنفسهم فى جماعات لمواجهة العدو واقتناص دباباته ، وأنشأوا الكمائن استعدادا للمغامرة الجديدة .

•

نعود مرة أخرى الى موقع العدو فى منطقة الزيتيات ، قال المهندس المسئول عن جماعة المدنيين هناك ، ان الضابط الاسرائيلى استدعاه وأخبره أن القيادة الاسرائيلية قررت أن يقيم المدنيون

بشركات البترول فى مدينة السويس ، وأن يستعدوا الآن للانتقال الى الداخل ، وطلب المهندس التشاور مع مندوبين عن جماعة الموظفين والعمال ، وعند عرض الأمر عليهم اكتشفوا خطة العدو وأن الأمر ينطوى على خدعة ، وعاد مرة ثانية الى الضابط الاسرائيلى يخبره برفض القرار ، لم تستطع القيادة الاسرائيلية اجبار المواطنين دخول المدينة بعد أن انكشفت الحيلة ٠

وأصبح وجود الموظفين والعمال فى مبانى شركات البترول يشكل خطرا كبيرا على الوجود الاسرائيلى فى هذه المنطقة ، اذ أنهم يعرفون الأرض جيدا ، ويمكنهم اضافة متاعب أخرى فوق ما يعانيه أفراد العدو من خوف ومصاعب ٠٠٠ وعاد الرجال الى مواقع قواتنا بعد أن أحبطوا خطة العدو فى مغامرة أخرى ٠

وقد أضاف المهندس انطباعاته عن العدو بعد معارك ٢٤ أكتوبر بأن الضباط والجنود الاسرائيليين لم يستطيعوا اخفاء يأسهم وقلقهم ، وكان القادة مترددين فى تعليماتهم وقراراتهم الأمر الذى دعاهم الى التعجيل فى اطلاق سراح المدنيين حتى لا ينكشفوا أمامهم أكثر من ذلك ٠

الباب الخامس

القـــــرار

- خلايا النحــل •
- جلسة تاريخية •
- الانتقـــــام •

خلايا النحل

وجاء آخر أيام رمضان ، الموافق ٢٥ من أكتوبر ••• ومنذ الصباح الباكر وقذائف الدبابات لم ينقطع سقوطها فوق المدينة ، الحرائق تشتعل فى المنازل •• والناس فى الشوارع يعملون فى نشاط وسرعة •• منذ ليلة أمس أدرك المواطنون والجنود أن لافرق بين الأفرول وبين الجلباب •• عمل مشترك وعدو واحد ، كل فرد يعلم دوره جيدا •• الجنود يندفعون الى مداخل الطرق والى الأماكن التى يحتمل أن يتسرب منها العدو مرة ثانية •• القنابل اليدوية توزع على الناس •• قنابل المولوتوف تصنع فى البيوت ومحلات الجزارة والبقالة •• آخرون ينقلون المواد التموينية من مخازنها المحترقة الى أماكن أخرى •

المزارعون فى منطقة الجناين حيث يوجد العدو منذ يومين •• لا يهابون الموت ولا يخشون بأس العدو وأسلحته الفتاكة ، تجاهلوا أفراده تماما وأخذوا على عواتقهم المسئولية المناسبة ••• هم

يعلمون أن الجنود المصريين داخل المدينـة يتعرضـون لدباباته وهجماته القاتلة .. وقد انقطعت صلتهم بالجهة التى تمدهـم بحاجتهم من الطعام والشراب .. الكرم المصرى فى دمائهم والذكاء الفطرى من سماتهم .. ما عليهم الا أن ينقلوا الاقفـاص المملوءة بفاكهة الموسم .. البلح السويسى الشهير بأنواعه المتعددة ومذاقـه الحلو .. والبرتقال الاخضر .. وفوق الحمير توضع أقفاص الفاكهة والخضر وما تصنعه وتحتفظ به الزوجات والأمهات فى البيوت الريفية من خبز وجبن وزبد وعسل ، يمتطى الفلاح حماره ويتحرك به بين دبابات العدو كأن الأمر لا يعنيه والعدو داخـل حصنه المنيـع يشاهد هذه التحركات فى مواقعها الزراعية فلا يستطيع أن يصنع شيئا .. ليس قادرا على ترك دبابته ومنع هذه التحركات خشية من التعرض للمخاطر المخبوءة .. ولا يملك القـدرة على التصـرف العسكرى بتصويب مدفعية الدبابات عليها وأغلب الظن أنه لم يجد فى قاموسه العسكرى الاجراء المناسب حينما يجد أمامه دواب تتحرك تحمل فلاحين كأنهم لا يهمهم أمر الحرب .. وتسير قوافل الدواب من مواقع العدو فى المنطقة الزراعية الى داخل المدينة حيث يضعون أقفاصهم أمام الجنود يأكلون منها وينصرفون الى مواقعهم .

ما زالت الحرائق تشتعل فى كثير من مساكن المدينة وتحولها الى أكوام من الرماد ، الحركة مستمرة منذ الصباح الباكر .. فى كل أنحاء المدينة توجد حركة دائبة هادفة .

وكانت المهام التى قمنا بها جميعا فى تعاون تام ، هى استـمرار لنشاط أمس ، أسجلها فى التلخيص التالى :

- المدنيون السويسيون يبحثون تحت الأنقاض عن جثث الشهداء وينقلونها الى مكان قريب من المستشفى .
- الجنود يقومون بحفر مقابر للشهداء .. ودفنهم بداخلها .
- اطفاء الحرائق فى المحلات التجارية وانقاذ مخازن الطعام .

- موظفون وعمال ومهنيون يكونون جماعات صغيرة للمقاومة وانشاء الكمائن ٠

- مهندسو وعمال السكك الحديدية بالمدينة ينزعون القضبان الحديدية والفلنكات الخشبية ويعطونها للجنود لعمل الكمائن لهم عند المداخل الرئيسية للمدينة ٠

- ضباط وجنود ينقلون العربات المحترقة ويسدون بها مداخل الشوارع الرئيسية لاعاقة الدبابات اذا عادت مرة أخرى ٠

- مواطنون ينقلون الحجارة الكبيرة والألواح الخشبية ويضعونها أمام الشوارع الفرعية ٠

- النساء فى البيوت أخرجوا ما بداخلها من أغطية وملابس وطعام لمن يحتاج من الرجال ٠

- الأدوار السفلى فى البيوت ٠٠ النساء والأطفال بالغرف الداخلية والجنود والمواطنون بالغرف الخارجية استعدادا لمقابلة العدو ٠

- الجزارون والبقالون وأصحاب الحرف المختلفة يجهزون أدواتهم انتظارا للقاء العدو مرة ثانية ٠

- عربات محملة بالقنابل المضادة للدبابات تمكنت من الوصول من الجيش الثالث الميدانى فى الشرق تفرغ حمولتها وتوزع على الجنود وأفراد المقاومة الشعبية من جميع الفئات ٠

- الأطفال فى الشوارع ينتقلون من بيت الى بيت يحملون الذخيرة ويوصلونها الى الكمائن ٠

- أصحاب المحلات التجارية - البقال - الجزار - الحلاق - الحلوانى محل الالبان - محل الخردوات - تركوا محال تجارتهم مفتوحة والبضائع فى متناول الجميع ٠٠ تركوا كل شىء واشتركوا فى أعمال المقاومة استعدادا لمقابلة المعتدين ٠

– وهناك فى المستشفى رأيت مشاهد انسانية يعجز القلم عن وصفها
·· رأيت المتطوعات من نساء وفتيات يعملن فى خدمة الجرحى ·
رأيت المريضات نزيلات المستشفى العام يتركن أسرتهن وقد نسين
أمراضهن ومنهن الحوامل فى انتظار ولادة عسرة ·· رأيتهـــــن
يقمن بأعمال التمريض ونقل الجرحى واعداد الطعام والمســـاعدة
الفعالة للخدمة العامة بالمستشفى · (١)

الجميع يعملون فى همة ونشاط

ولا عجب فقد أصبحت المدينة كلها متل خلايا النحل

ارتباط الانسان المصرى بالمسجد

تحولت المساجد الى مراكز لأعمال المقاومة الشعبية وتنظيم الدمائن

والسويسيون مرتبطون ارتباطا دينيا واجتماعيا بالمساجد وخاصة
مسجد الشهداء ، يدخلونه للصلاة ولسماع الخطب الدينية ولحضـور
الندوات التى يديرها كبار العلماء من الأزهر ومن وزارة الأوقاف ··
وللاستشارات الدينية ·

---

(١) رأيت الأطباء من هيئات التدريس بكليات الطب .. وقد جاءوا لتقديم
خبراتهم الطبية فى العمليات الجراحية العاجلة .. ويقومون باجراء العمليــات
الجراحيــة الخطيرة الغريبــة ·· يعملون ويوصلون الليل بالنهار لانقاذ المصابين ··
وفى نفس الوقت يزدادون خبرة بل ويتعلمون فى الطب والجراحة مالم يمكن أن
يتعلموه فى عيادات المدن طول حياتهم .. فالرصاصة تدخل فى جسم الجنـدى
وتخترق العضو لتستقر فى عضو آخر مارة بأجهزة الجسم المختلفة الوظائف ..
وقد أثبت الجراحون المصريون مهارتهم الفنية فى تتبع سير الاجســام المعدنيــة
القاطعة داخـل الجســم .. وكانوا يعملون فى أصعب الظروف التى عرفت فى
تاريخ الطب ·

ويترددون على المسجد لاعمال تتصل بشئون التجارة والصناعة ولتدبير أحوال الناس فى المدينة وخاصة بعد عدوان ٦٧ وبعد تهجير معظم الاهالى · أصبح المواطنون الباقون بالمدينة فى حاجة الى مكان يجمعهم يتدارسون فيه أحوالهم وشئون أعمالهم وتجارتهم ·

والفقراء من المواطنين يدخلون المسجد للوضوء والصلاةوالراحة من عناء الحياة ولتطمئن نفوسهم بذكر الله ·· وليتناولوا وجبات طعام ساخنة تقدم لهم وقت الحاجة اليها ·· ويأخذوا من المسجدالكساء الصيفى والشتوى لهم ولأفراد أسرهم · ومبالغ مالية شهرية مقررة تعينهم على الحيـــاة ·· واذا مات الفقير يتكفل المســجد بكل مصروفات الوفاة والدفن ومساعدة أسرته بالمال والعمل ·

وفوق كل هذه الاعمال فان المسجد يقوم بأعمال وطنية على جانب عظيم من الأهمية ·· فى مساعدة المصابين من العسكريين والمدنيين وتقديم الطعام والهدايا للجنود فى الاعياد والمناسبات الوطنية والدينيه ·· وكذلك فى تنسيق وتنظيم شئون الوعظ فى منطقة الجيش الثالث مع القوات المسلحة ·· وأصبح المسجد معروفا لكبار قادة القـــوات المسلحة وأصبح (قائد) المسجد بحكم دوره ونشاطه الوفير وتكريس حياته لخدمة المواطنين علامة هامة فى مدينة السويس ··· حمل الرجل مسئوليته الضخمة فى هذه الايام ، واصل الليل بالنهــــار ولم ينم ولم تتلاش الابتسامة من وجهه فى أشد ساعات المحنة ، ابتسامة ملؤها الايمان العميق والثقة ·· واســـتمرت الدعوات المخلصة فى كل صلاة ·· يا أرحم الراحمين أرحمنا ·· يا مغيث أغثنا ·· حسبنا الله ونعم الوكيل ·· ويقوم الرجل من الصـــلاة ليوزع الكعك على الناس ·· وينتهى من ذلك ليشترك فى عمليات توزيع الاسلحة على المواطنين ومعه معاونوه من الاهالى ومن الفئـات المهنية المختلفة متضامنا مع العسكريين بالمدينة ·

جلسة تاريخية

وفى داخل المسجد ،وفى غرفة المكتب بالدور الثانى ٠٠ الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ الموافق ٢٩ رمضان يوم وقفة عيد الفطر كنا عشرة رجال ٠٠ خمسة من الضباط وخمسة من المدنيين مسئول كبير فى مدينة السويس يجلس معنا نتدارس جميعا الموقف من جوانبه المختلفة ٠٠ المناقشة غير منظمة ولكن الهدف واحد والمشكلة واضحة تماما ٠٠ كنا وقتها نشعر أن العدو قد رد على أعقابه بالأمس وخاب رجاؤه ٠٠ لم يفشل فى احتلال المدينة فحسب وانما أهدرت كرامته وانخفضت معنويات قادة الثغرة والجيب ومن بداخل الشريط الزراعى ما بين الدفرسوار الى ميناء الأدبية ٠٠٠ وكنا نتوقع أن يقوم العدو بعمل انتقامى سريع - انتقاماً ليومين أسودين فى عمر اسرائيل ٠ يوم عيد الغفران فى ٦ أكتوبر ، والوقت المناسب للانتقام هو يوم عيد الفطر وهو أقرب أعيادنا للعدو ملائمة للانتقام من يوم الأمس حيث لوى السوسيون والجنود رقبته لويا عنيفا ٠

نتوقع أن يعاود العدو محاولته لاحتلال المدينة بوسائل أخرى أكثر ردعا وقوة ٠٠ وكنا موقنين أن القوة العسكرية والمقاومة الشعبية داخل المدينة لا تكفى لصد هجمات العدو ٠٠ وما حدث بالأمس أمر محير حقا ٠٠ انها معجزة يصعب اخضاعها للبحث العلمى ، والمعجزات نادرة . ونحن لا نعيش فى عصر المعجزات ٠٠٠ ما زالت ارادة الرفض سارية المفعول فى نفوس المواطنين ، لم يلن جانبهم ٠٠ بل ازداد اذدراؤهم للعدو ٠٠ وتشمموا رائحته فلم ترق لهم بل زادتهم تأففا وقرفا ٠٠ شاهدوا ضباطه وجنوده وهم خائفون مرتجفون ، شعورهم طويلة ومتخنفسون ، يصعب تمييز معظمهم عن النساء . ملابسهم الداخلية ذات ألوان فاقعة ٠٠ عز على أبناء البلد وجودهم فوق أرضهم ٠٠ هم رجال لهم تقاليدهم الوطنية وعاداتهم الشعبية ، أما وقد عرفوه بالأمس وقلبوه بين أيديهم ، فقد أضيفت الى معارفهم عنه صفات أخرى منبوذة ، هل يسمحون لأشباه الرجال أن يحتلوا أرضهم ٠٠ لن يحدث ذلك ومهما كانت التضحيات ٠٠ الرجولة تقتضى منهم الموت قبل أن يتمكن العدو من تحقيق مآربه .

كنا عشرة رجال نذكر أحداث الامس ٠٠ ونعبر عن مشاعرنا نحو العدو الاستياء يغلب علينا لعلمنا أنه ما زال خارج المدينة ٠٠ نستعد للقائه أيضا اليوم ، وسوف نضحى بأعز رجالنا بأيدينا ونيران رشاشاتنا لنمنع العدو من تحقيق مآربه .

ودق جرس التليفون :

ورد المستشار العسكرى ٠٠ ومرت فترة ثقيلة من الصمت وانتهت المكالمة ، ونظر الينا الرجل ٠٠ فى عينيه بريق ٠٠ تعبيرات وجهه تحمل معانى الجد والمسئولية والرهبة ٠٠ كلنا آذان صاغية ٠٠ نشعر أن أمرا خطيرا يحدث الآن ٠٠ قال الرجل :

علمت ٠٠ أن القائد الاسرائيلى فى منطقة الزيتيات طلب رفع الراية البيضاء فوق مبنى المحافظة والحضور الى استاد المدينة ٠٠٠ وأنذره انه ان لم يتم ذلك فان سلاح الجو الاسرائيلى سيتـــولى المهمة ، مهمة تدمير مدينة السويس بمن فيها بعد نصف ساعة ٠٠٠ أمامنا الآن عشر دقائق لنقرر فيها الرد ٠

عشرة رجال أمامهم عشر دقائق ٠

من خلال هذه الجماعة الصغيرة يتقرر المصير ٠٠٠ مصـــير مصر ٠٠ بل مصير الأمة العربية كلها ٠٠ أو على الأقل شعرنا وقتها بذلك ٠٠

منحنى التاريخ يتم الآن ٠٠ تحديد الاتجاه التاريخى يرسم الآن حيث يتغير بهذا الانحناء مسار كل شىء ، موازين العالم ٠٠٠ حضارة الدولة ٠٠ اما أن نخسر كل شىء مرة واحدة ٠٠ واما أن نحافظ على ما كسبناه من حق مشروع ٠

ولو أن هذه الجلسة كانت فى مكان آخر ، ومع أشـــخاص آخرين فى هذه المدينة لكانت النتيجة واحدة ، وذلك لأن الناس قد انصهروا فأصبحوا عقلا واحداً وارادة واحدة ويعملون فى ذلك من أجل هدف واحد ٠

رأيت تعبيرات وجوه الجالسين وقد تحولت بفعل خطورة الموقف وعظمته الى ملامح محددة واضحة ومتشابهة ٠٠ وأصبحنا جميعا متماثلين فى التفكير والرؤية والمشاعر والانفعالات ٠٠٠ كما لو تحولنا الى عين واحدة وأذن واحدة وعقل واحد ٠٠ ان أى علامة من علامات الضعف الانسانى تتكشف لنا فى نفس اللحظة التى تنفلت فيها ٠٠ شعرت أن شبكة مواصلات تربط بين عقولنا جميعا وتوصل انفعالاتنا بعضنا ببعض ٠٠ الضعف البشرى مكشـــوف

.. الخوف .. والقلق يصعب حجبهما .. والقوة البشرية والمزايا الانسانية أيضا مكشوفة وظاهرة للجميع .

القضية الآن أصبحت واضحة .

أما أن نوافق على تسليم المدينة .. والنجاة بأنفسنا من الهلاك اما أن نوافق على تسليم المدينة وهذا القرار لن يكلف غير الموافقة على رفع العلم الأبيض فوق مبنى المحافظة .. والقماش متوافر .. ثم الموافقة على ذهاب مسئول الى الاستاد .. والمسافة لا تزيد عن مائتى متر .

واما رفض الاستسلام .. وهذا لن يكلفنا غير الموافقة على ضرب المدينة بالطيران .. ذلك لأنه ليس بأيدينا الأداة التى تمكننا من اسقاط طائرات الفانتوم والسكاى هوك والميراج .

الموافقة فى حالة الاستسلام تقتضى حركة لرفع العلم وتحرك المسئول الى الاستاد وتنفيذ تعليمات القائد الاسرائيلى .

وفى حالة رفض طلبات العدو .. لا أكثر من تجاهله .. وعدم تنفيذ طلباته .. لا نحضر العلم ، ولا نرفع فوق المحافظة شيئا أبيض أو أحمر . ولا يذهب مسئول الى الاستاد ، فقط نصمت وننتظر .. سمعت فيما سمعت آراء كثيرة .. لحظات مرت .. والحياة حلوة ، والاختيار صعب والنتيجة فى كلتا الحالتين مرة .. ومن الذى يستطيع أن يقاوم الطيران الاسرائيلى .. وبأى أداة ونحن فى عزلة عن القيادة وعن قواتنا الجوية ... ولا نعلم ما يدور فى الغرب أو الشمال أو الجنوب .. الآراء مختلفة ولا تخلو من المنطق والتعقل .. ولكن الخوف من الاحتلال الاسرائيلى وعواقبه جاثم فوق الصدور هل يمكن أن نستسلم لهؤلاء المخنثين ذوى الشعور الطويلة والملابس الداخلية الزاهية الألوان .. هؤلاء

الذين كانوا بالأمس يرتعدون خوفا وهلعا من المواطنين السويسيين العزل من السلاح ·· هل نستسلم لهم وينقضى الأمر ·· مقابل أى شيء ·· مقابل الحياة ·· يا لها من حياة رخيصة عندئذ ·· لا لن نستسلم مهما كان الأمر ·

ودخل الرجل قائد المسجد ·· وعرف القضية ·· قرأ آيات من القرآن وقال بهدوء واطمئنان لن نخضع للعدو أبدا سنقاومه وليفعل ما يشاء ·· وهب عشرة رجال وراءه ·· سنقاوم الى آخر قطرة من دمائنا ·· وتم الاختيار تلقائيا وانحنى التاريخ ليرسم اتجاها صحيحا مشرفا للوطنية المصرية ·· وليحدد مسار الارتقاء الحضارى للأمة العربية ·· وأكرر مرة ثانية ، لو كان هذا الاختيار فى مكان آخر غير المسجد ومع أفراد آخرين غيرهم لكانت النتيجة واحدة ·

لم يشترك المسئول الكبير فى المناقشة ·· وانما كانت عيناه اللامعتان تدوران حول الجالسين ·· ثم يسرح ببصره قليلا مفكرا حتى ظننت مخطئا أنه يفضل الاستسلام ·

رفع الرجل سماعة التليفون فى الدقيقة العاشرة ، وأدار القرص بتصميم وقال كلمتين بارادة حاسمة : اخترنا المقاومة ·

ونظر الينا قائلا : (انتشروا فى البيوت المجاورة ··· لا تتكدسوا هكذا فى مكان واحد) ·· من الواضح الآن أننا اخترنا الموت ·· فالطيران الاسرائيلى لا يعرف المزاح علينا أن نواجه مصيرنا بشجاعة ·

ورغم الاختيار الصعب فقد شعرنا براحة الضمير ·· وأدركنا حقيقة الحياة الحرة الكريمة ·· ورأينا أمامنا كيف ينبثق الوازع الوطنى فى لحظات محطما حواجز التعلق بالبيت والزوجة والولد ··

كنا رغم قسوة الموقف كمن أدى الامانة وبلغ الرسالة ·· وشعرنا أننا نحمل على كاهلنا مصير الامة كلها ·· وأننا مسئولون أمام الله والوطن والتاريخ ·· كانت مشاعرنا متقاربة ··· وانفعـــالاتنا متماثلة ·· ونوايانا وأهدافنا واحدة ·· وأحسست وقتها بمزيج غريب من المشاعر والأفكار النبيلة ·· ألسنا هنا في موقع المسئولية التاريخية ·· ألم نصنع هنا قرارا تاريخيا حاسما ·· ألم نقف فى وجه العدو صامدين متجاهلين قوته العسكرية الرهيبة بالامس ·· ونواجه اليوم سلاح طيرانه ·

نحن الآن على حافة الموت ·· الاستشهاد في مسجد الشهداء ·· مثلنا مثل الجندى المصرى الفلاح الذى كان يسخر منه العدو ويهزأ به · ثم قام يوم ٦ أكتوبر بجسده وارادته وعبر القنـــاة فوق قارب المطاط متحديا المستحيل وواجه مصيره بنفسه ··وحقق المعجزة ·· ومثله أيضا يوم أمس وقد التف حول جسده الثعبـــان فقاومه وخلص نفسه منه ومزقه تمزيقا ·· كنا نفخر بالجنـــدى المصرى والمواطن السويسى يوم أمس ، وجاء دورنا اليوم ·· ومثلما انتصر الجنـدى المصرى مقتحم القناة ، وزميله الشارد بالامس ·· سننتصر بعون الله وارادته · كانت الروح المعنوية للجنود والمواطنين مرتفعة للغاية وأصبح التهديد لا يشكل خوفا على أحد وانمـــا عقبة طارئة يعلمون أنهم سيجتازونها ·

أحسسنا جميعا بأن الله يرعانا ·· سلاحنا المضاد للطائرات هو الايمان بالله ووسيلتنا الاحتفاظ بالتصميم والارادة القوية ··· والتماسك بعضنا ببعـــض كلنا جسد واحد وروح واحـــد وارادة واحدة ·

انتشروا ·· لا تتكدسوا فى مكان واحد ·· خرجت من المسجد ومعى عدد من الرجال ·· الانتظار صعب ، والوقت يمر ثقيـــلا

كئيبا .. وخير وسيلة للاحتفاظ بتصميمنا وارادتنا وتماسكنا أن نستمر في العمل الذى بدأناه منذ اول النهار .. العمل كفيـــل بعلاج الموقف .. أن نشغل انفسنا بعمل انساني لا يقبل الارجاء .. علينا أن نجمع بقية شهداء أمس وأن نحفر المقابر لهــم وأن نساعد العاملين في المستشفى .. وانهمكنا في العمل ، ولم نشعر بمرور الوقت وانسانا العمل مأساتنا .. وهانت أمامنا ذواتنـــا وحياتنا .. شعرنا أننا أقوى من الخوف والقلق .. بل أقــوى من الموت نفسه .. حملنا الشهداء تحت وابل من قصف مدفعيـة الدبابات ونيران الرشاشات المنهمرة فالذى يحمل الموتى لا يرهب الموت ، والذى يعيش مع الجرحى ويحـــاول ايقاف نزف الدم لا يخشى الجروح .

ومرت الساعة الأولى .. ولم نشعر بالوقت .. ولم ينفـذ العدو وعده وساعة أخرى والعمل مستمر .. وكتمنا السـر ... لم نتحدث عن انذار العدو بقصف الطيران ليس بقصد عدم اشاعة الخوف بين الناس .. ولكننا لم نجد متسعا من الوقت للكلام.. الظروف غير ملائمة .. الوقت مناسب للعمل فقط .. فشاهدنا الممرضات بالمستشفى يساعدن المرضى .. الأطباء يقومون بأعمال التمريض بجانب العمليات الجراحية العاجلة .. المستشـــــفى ينقصها الدم والاكسجين .. والجرحى مكدسون ، الممرضات يتبرعن بدمائهن .

وسط هذا المشهد الانساني الرائع يهون كل شيء ماذا تفعل عندما تشاهد امرأة حاملا تقوم بأعمال التمريض وهى فى حاجـــة الى الراحة والرعاية .. أو عندما ترى فتاة فى سن العشرين تتبرع بدمائها للجرحى .. أو عندما ترى غلاما فى سن الثانية عشـــــر

يقوم بأعمال النظافة داخل دورات المياه ·· لا شك أن هذه المشاهد كفيلة بدفع الرجال الى العمل بحماس لا مثيل له ·· عيب علينا أن نفكر فى حياتنا ·· أو أبنائنا أو مستقبلنا ···

مدفعية الدبابات مستمرة فى قصف المدينة ·· وسط زحمة العمل لم أسمع صوتها ونسيت جلسة الصباح ، ثم شعرت بالجوع أكثر من ثلاثة أيام لا نأكل سوى ثمرة أو كعكة صغيرة ·· والصيام مستمر نهارا وليلا ·· أجسامنا تحتاج الى الغذاء رغم أن الشهية منعدمة ، ولكن مشهد الموتى والدماء أنسانا الجوع ما أروع المصريين حينما يواجهون المحن ، الشهامة الريفية فى دمائهم ··· القادرون يشاركون الجرحى آلامهم ·

وبين فترات صمت مدفعيه الدبابات يهرع الناس فى الشوارع وكلما أشعل العدو نارا هرعوا لاخمادها ، وكلما أسقطت مدفعية الدبابات شهيدا هبوا لنقله ودفنه ·

وفى الساعة الرابعة ·· طافت الطائرات المعادية تلقى حممها فوق مواقع الجيش الثالث بالضفة الشرقية للقناة ··· هل بدأ العدو ينفذ ما وعد به فى الصباح ؟ لقد أهملناه ولم نعره اهتماما ·· كان ينتظر الرد فى شكل مسئول يصل الى الاستاد ····· وكان ينتظر علما أبيضا يرفرف فوق المحافظة ولم يصل المسئول ·· ولم يرفرف العلم ·· لقد نسينا الأمر تماما وانشغلنا بما هو أهم وأجدى ·· انشغلنا بأعمال الانقاذ والاسعاف والمساعدة ·· العمل خير علاج وقت الازمات ·· مساعدة الآخرين وسيلة فعالة للتخلص من التمركز حول الذات ·· لم نعد نشعر أن العدو يهددنا بالطيران ونسينا ما وعد به ·· وتذكرنا الأمر حينما شاهدنا الطائرات بعد الظهر ·· ابتدأ العدو بقصف مواقعنا فى الشرق وسوف يعود الى المدينة « السويس » قريبا ·

انغمسنا فى عمليات الانقاذ ·· انقاذ المصابين ·· وانقـــاذ مخازن الدقيق والتموين ·

أرخى الليل أستاره ·· وبدأ العدو يلقى مشاعل الاضاءة فوق المدينة حتى جعلها مضيئة مثل النهار ·· واستمر فى قصف مدفعية دباباته وقد تعودنا على سماعها ·· انتهت أيام رمضان ··· وغدا أول أيام عيد الفطر ·· أيام مباركة ·· وانقضى الليـــــل طويلا كئيبا ·· ونحن فى بيت الله ندعوه بايمان · لقد قربتنـــا الأزمة من الله ·· الناس يبتهلون بصدق ويرفعون أكفهم الى السماء ويناجون ربهم ·· رأيت من لم يتعود على الصلاة طول حياته راكعا ساجدا ·· ووسط ظلام المسجد نسمع أصوات المصليين والمبتهلين يناجون خالقهم · وقرب الفجر يستعد الناس للوضوء والصلاة ·· يسيرون فى الظلام وحتى لا يصطدمون يذكرون الله بصوت مسموع

وكان للنزعات الدينية الغامرة تأثير كبير من سريان شعور بالامان والثقة فى أن العدو سوف يخيب أمله ، ولم يصبح للموت رهبة فى النفوس · ايمان عميق بقواتنا الذاتية واستهانة بتهديدات العدو مهما عظم شأنها ·

الانتقام

صلينا الفجر وأخذنا نردد الادعية المألوفة قبل صلاة العيد ..
والعيد يأتى عادة ومعه الفرحة والبهجة .. ولبس الجديد والتهنئة
.. العيد اليوم مختلف تماما ، ويحاول الناس نسيان ما هم عليه..
فيهنئون بعضهم البعض كل عام وأنتم بخير .. وامعانا فى تجاهل
خطورة الموقف تم وضع منديل أمام المنبر وأخذ المصلون يدفعون
زكاة العيد .

ودخل المسجد طفل لا يجاوز العاشرة ، انه علاء ابن الجزار
لقد كان بالأمس يعمل بالمستشفى ويساعد فى نقل الجرحى ،
وكانت ملابسه ملوثة بدمائهم الطاهرة . رأيته أمس فأشفقت عليه
وأكبرته .. انه اليوم يلبس حلة جديدة زاهية اللون يبتسم
ويحى المصليين .. علاء الطفل رأيته رجلا ، أحببته وعرفت فيه
أمل المستقبل .. مصر بخير ما دام فيها مثل علاء .. وصلينا
العيد وقام الواعظ لالقاء الخطبة .. وصعد المنبر .. الله أكبر ...
الله أكبر ... قالها مرتين ، وفجأة سمعنا صوت طائرة قريبة
ألقت حمولتها فأحدثت دويا رهيبا .. ومع صوت الطائرة المفاجىء

هرع الواعظ من مكانه الى العتبة الاولى من سلم المنبر ·· وسمعنا أقصر خطبة دينية فالوقت غير مناسب للخطب ·

ثم بدأ تنفيذ تهديد الأمس ·· الساعة تقرب من السابعة صباحا · أسراب الطائرات المعادية تقصف مدينة السويس بالقنابل ·· الطيران يقوم بما لم تستطع أن تقوم به الدبابات أول أمس وهو احتلال المدينة ·· دوى الطائرات شديد وقريب والقنابل تدك المدينة دكا ·· وكلما مرقت طائرة سمعنا أصواتا هائلة تهز الأرض من تحت أقدامنا ·· وبلغ من شدة الصوت وعنفه وقربه أن آذاننا كادت أن تصم مع سماع صفير وشعور برعشة بدنية قريبة الاحساس بالتماس الكهربائى ·

استمر قصف الطيران حتى قرب الظهر ·· وألقيت فوق مدينة السويس مئات الأطنان من القنابل بأنواعها المختلفة ·· ودكت أحياء بأكملها واشتعلت النيران فى المدينة ·

تهدمت المساكن المجاورة للمسجد ·· وألقيت قنابل الألف رطل فى الشوارع ففجرت المياه من باطن الارض ·· وهناك على امتداد الشارع تهدم مسكن أسرة علاء وكانوا جميعا فى الدور الاسفل من المنزل فلم يصيبهم أذى ·· يا لهم من أبطال ·· النساء والأطفال يجابهون قصف طيران العدو فى أول أيام العيد وأثناء قصف المدينة بالطيران رأيت الناس فى المدينة يتحركون ويعملون ويساعدون · رأيت عم محمد الرجل العجوز الفقير الذى يسترزق من بيع التمر والبرتقال ينقل أقفاص الفاكهة الى المسجد وسط قصف الطيران لا يهاب شيئا ولا يتقاضى ثمنا لبضاعته ·· كان أول أمس يخرج جلبابه الابيض الجديد الذى سيلبسه فى العيد ويعطيه لأحد الجنود ليتسلل الى مواقع العدو ويستطلع أخباره ·· عم محمد نموذج للمواطن الشريف ·· وقد أصابت طلقات العدو المكان الذى يأويه ويضع فيه بضاعته ·

رأيت الحاج غندور الحلواني يطهو الأرز في محله معرضـــا نفسه من غير خوف لنيران العدو .. ويحمل الاواني بنفسه حيث يقوم بتوزيعها على الجنود والاهالى الجائعين .. فالحياة يجب أن تستمر رغم استمرار التدمير .

وغاب الشيخ عبد الله واعظ المسجد قليلا ثم عاد ليخبرنـــا أن مسكنه قد تهدم تماما بفعل الطيران وان النيران مشتعلة الان فى أثاث البيت .. يقول ذلك وهو يبتسم ويحمد الله .. ثم يؤذن لصلاة الظهر ويؤم المصلين وبعد الصلاة ومعه بعض الجنود يفتش فى المساكن المجاورة ، سألته عما تبحث يا شيخ عبد الله ، أخبرنى أن العدو قـد يرسل أفرادا لمعرفة أخبارنا وعلينا أن نتأكد من ذلك بالتفتيش فى المساكن المجاورة التى لم يلحقها الدمار بعد ... الشيخ يقوم بدور رجل الاستطلاع .

رفعنا رؤوسنا الى السماء ودعونا .. فقد كانت الطائرات تقصف عن بعد .. تلقى القنابل فوق قواتنا بالشرق فتسقط حلزونية ثم تنفجر وترج الأرض رجا .. وليس بأيدينا سلاح نقاوم به الطيران.. وكأن الله قد استجاب للدعاء ... وتوقفت غارات الطائرات حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر .

ومثلما فعلنا فى اليومين السابقين بعد معارك الدبابات وسـط شوارع المدينة ، وخرجنا اليوم أيضا للبحث تحت الانقاض عن المصابين والشهداء وجمعنا عددا لا يزيد عن العشرة . ما زالت الحرائق مشتعلة فى البيوت منذ يومين وقد أضيفت نيران أخرى أكثر عددا واشتعالا اليوم .. وفى الطرق شاهدنا القنابل الزمنية تنفجر وأخرى اسطوانية لم تنفجر بعد .. وغيرها كروية الشكل فارغة من حمولتها ، وقنابل البلى .. وأشكالا غريبة من مستحدثات التكنولوجيا الامريكية ... وفوق الفوارغ أرقام انجليزية وعلامات أمريكية توضح تاريخ الانتاج فى أواسط عام ١٩٧٣ . متى أنتجت ومتى شحنت ؟ لا بد أن أمريكا

قد أمدت اسرائيل بهذه الشحنات فور انتاجها ·· وربما شحنت من أمريكا داخل الطائرات فوق حاملاتها ، ومنها لتسقط فوق مدينة السويس ·· الشوارع مملوءة بالفجوات التى أحدثتها القنابل الثقيلة ·· والارض مغطاة بشظايا القنابل بأحجام وأشكال مختلفة ·· وان شظية واحدة مهما كانت صغيرة قد تؤدى بحياة الانسان فى لحظة واحدة ·· وقد تحدث به عاهة مستديمة ·· وقد تخترق مجموعة من أجهزة الجسم وتشل وظائفها ·· آثار الدمار فى كل مكان ·· لا يوجد بيت واحد لم تصبه احدى قذائف الدبابات أو الطيران·· كل بيت وكل مسكن بل كل حائط أخذ نصيبا من القذائف ·

وهناك عند مدخل المدينة،فى حى العوايد قنبلة زنة الألف رطل بجوار شريط السكة الحديد ·· حفرت فجوة ضخمة امتلأت بمياه معدنية جوفية ملونة ·· ونتج عنها تمزيق شريط السكة الحديد وانثناء الشريط الآخر وارتفاعه الى أعلا حتى استقر طرفه الآخر داخل غرفة بالدور الثالث لأحد البيوت المجاورة ·

لقد نفذ العدو وعيده بالأمس متأخرا عن موعده ما يقرب من عشرين ساعة وماذا حدث ؟ مزيد من المساكن قد هدمت·· واشتعلت الحرائق واستشهد عشرة مواطنين شرفاء ·· ولم يحقق العدو هدفه ، لم يتمكن من احتلال المدينة ولم ينل من الروح المعنوية للرجال ·

وماذا حدث لنا نحوه ؟ ازددنا كرها له ، ازددنا تصميما على مقاومته أصبحنا نستهين به ونشعر بضعفه وجبنه ·· لن يفعل العدو بنا أكثر مما فعل اليوم ·· وهل بعد سلاح الطيران والقنابل الفتاكة شىء جديد ، لو استطاع أن يلقى قنابل الغازات السامة (الحرب الكيماوية) لألقاها دون أى وازع انسانى رغم انها ممنوعة دوليا ·· ولكنه أحجم عن ذلك ليس احتراما منه للقوانين الدولية ولكن لأن قواته تبعد عن المصريين عشرات الامتار ، والقاء قنابل الغازات سيصيب

أفراده حتما • ولو استطاع أن يستخدم قنابل الميكروبات والاوبئة لفعل ذلك أيضا دون تردد •• ولكنه امتنع لأنها سريعة الفتـــك بأفراده المدللين قبل هلاك جنودنا الفلاحين •

اذن فقد كشف العدو أوراقه كلها •• وأصبحنا جميعا بمن فينا من نساء وأطفال وشيوخ لا تخشاه •• لن يحدث بعد ذلك أكثر مما حدث حتى الآن •• أربعة أيام من القصف المركز فوق المدينـــة من حولها ومن داخلها ومن فوقها •• من الدبابات والطائرات والرشاشات

لقد اكسبتنا الايام الأربعة الماضية عادة الصبر والتحمـــل والخشونة •• جعلت الطفل فينا رجلا والشيخ شابا والضعيف قويا •• هذه الايام بما تحتويه من ضغوط جعلت المرأة التى تخاف من الجرذان بطبيعتها الانثوية تعبر عتبة الخوف كله وتواجه مشاهـــد الرعب بالصبر الجميل والجرأة والشجاعة لم يعد للخوف فى نفوسنا مكان •• فالأطفال يقفزون من مكان الى آخر ومعهم الذخيرة وفـــوق رؤوسهم تمرق طلقات المدفعية والرشاشات •• الشيوخ حركتهـم البطيئة المناسبة لعمر الشيخوخة تحولت الى حركات سريعة مندفعة كأنهم جرعوا أكسير الشباب فأعاد اليهم حيويتهم المفقودة منـــــذ سنوات طويلة •

لقد أفادنا العدو ، دون قصد •• ،فجر فى نفوسنا مواهب وقدرات خارقة ساعدنا بعدوانه الأحمق فى التغلب على الضعف البشرى ورواسب الهزيمة وآثار الزمان •• لقد طهـرنا القصـــف المركز من الخوف والقلق ، ومحى صوت الطيران وطلقات المدفعيـــة سلبياتنا وحولها الى طاقات خلاقة ومزايا انسانية راقية •• أمدتنا معركة قسم الشرطة بشحنات مضاعفة من الايمان بالله والقدر •منحتنا غارات الطائرات بشحنات مضاعفة من الايمان بالله والقدر • منحتنـــا غارات الطائرات المكثفة الاستهانة بالموت •• والذى لا يخشى الموت لا يرهب ما هو دونه •

الباب السادس

وعادت الحياة

- التنظيم
- المعسكر
- الورطة
- وجاء السلام

التنظيم

فرغ طيران العدو من مهمته ، وألقى حمولات القنابل ٠٠ وعاد الى قواعده ٠ وجاء الليل وبدأ نشاط دبابات العدو ومدفعياته ٠٠ وأضاءت المشاعل مدينة السويس ٠٠ أمر اعتدنا عليه ٠٠ هذه المشاعل تفضح العدو وتوضح ضعفه ٠٠ العدو يخشى أن يتسلل أفرادنا ليلا الى مواقعه خارج المدينة وتقضى على أفراده ٠٠ انهم داخل دباباتهم ومدرعاتهم يخشون الجنود المصريين والمواطنين السويسيين البسطاء فقد لقنوهم درسا لن ينسوه مدى الحياة ٠

تركت الأيام الماضية آثارها على الجنود ، تمزقت ملابسهم وأحذيتهم طالت لحاهم ، نقص طعامهم وشرابهم فليس عندهم شهية للطعام أو وقت للبحث عنه ٠٠ وليس لهم مكان للمبيت فهم ينامون داخل الحفر أو فى مداخل المنازل التى لم يلحقها قصف المدفعية والطيران وقت خلوهم من خدمات الحراسة ٠

وفى صباح يوم ١٠/٢٧ ، قمنا بتوزيع معلبات الطعام على المواطنين والعسكريين وتجمع الناس فى طوابير ٠٠ وتم صرف ثلاثة معلبات لكل فرد مع تعليمات باستهلاكها فى مدى عشرة أيام ٠

واستدعانا القائد العسكرى حيث اطلعنا على تقسيم مدينة السويس الى قطاعات ٠٠ وتسلمنا المهمة الموكولة الينا ٠٠ وكانت تتركز فى القيام بمهام اعادة تنظيم المقاتلين بالمدينة ، ايوائهم ، وبحث احتياجاتهم الضرورية ، الموقف الراهن يقتضى القيام بواجبات مناسبه حسب الضرورات اللازمة للقوات ٠

قمنا بالبحث عن مكان لنتولى فيه تنفيذ المهام الجديدة ،الناس يسيرون فى الطرقات غير عابئين بالمخاطر المحيطة بهم ٠٠ منهم من يبحث عن مكان للاقامة ومن يحمل طعاما ٠٠ رأيت بعض المحلات التجارية المحطمة يحاول أصحابها اصلاحها واعادتها كما كانت ٠٠ دبت الحياة بسرعة فى المدينة بشكل مثير حقا للدهشة ٠٠ لم أجد أحدا لا يعمل ٠٠ أفراد الكمائن يخرجون من مواقعهم بعد استبدال الافرادويبحثون عن الطعام ٠٠ الاهالى يحملون صوانى وأوانى بها طعام يقدمونه للجنود فى الطرقات – وعاظ المساجد وشيوخها ينتقلون من بيت الى بيت لمعرفة أحوال الأهالى ونتائج الغارات ٠٠ فالناس فى المدينة معروفين بعضهم لبعض وتغيب أحدهم يعنى اما أنه استشهد أو أنه مصاب تحت الانقاض ٠٠ حركة دائبة فى الشوارع وداخل المنازل المحطمة

المواطنون السويسيون يتولون بأنفسهم فتح المساكن التى لم تصب بالطيران لايواء الجنود والاهالى المشردين بعد قصف مساكنهم

محلات البقالة والمخابز والالبان وغيرها فتحت للزبائن ٠٠ من معه نقود يدفع ثمن ما يأخذه ٠٠ والذى لا يملك نقودا يأخذ حاجته ولا يدفع شيئا ٠٠ هكذا كانت الحياة تسير فى مدينة السويس فى

هذه الايام ·· الرحمة والمودة والتعاون بين الناس ·· ألم يروا الموت بأعينهم ·· ألم تعلمهم التجربة حقيقة الحياة ·· أنهم أصبحـــوا اليوم فلاسفة أشبه بالزاهدين أو المتصوفين يرون الحياة بمنظـــار الحكمة والتعقل ·· التاجر الذى شاهد بضاعته لم تمس بأى ســوء بينما جميع المبانى من حوله قد تهدمت وخربت تجارة زملائه وضاعت رؤوس أموالهم فى لحظة ·· كيف يفكر هذ الرجل ·· لا شـــك أن نظرته للحياة قد اختلفت تماما عن ذى قبل · القنبلة تسقط فوق بيت فتحترق الاسقف لتستقر فوق الارض بجوار السكان من الرجال والنساء والاطفال ·· ثم لا تنفجر · وقنابل أخرى تنفجر فى الجو قبل أن تسقط فلا تصيب غير الهواء ·

رصاصات الرشاشات النصف بوصة تنهمر فوق الرؤوس فلا تصيب أحدا · وقد رأيت فيما بعد مئات من هذه الرصاصات وقــد اخترقت الجدران ·· جدار بعد جدار من فوق أجساد النائمين أو الجالسين ·· ولو كانوا مستيقظين أو واقفين لاخترقت رؤوسهـــم وأنهت حياتهم ·

هذه المعجزات حولت الناس هنا فى مدينة السويس الى أشباه ملائكة ·· أصبح الاهالى فى مدينة السويس مثل سكان مدينـــة أفلاطون الفاضلة أو مثل أهالى المدن المثاليـــة التى تحدث عنهـــا الفلاسفة الطوباويون ·

وجدنا البيت المناسب ليكون مقرا للعمل الجديد

واجبنا ينصب فى تنظيم الحياة العسكرية داخل المدينة ·

الانضباط والنظام هما الاساس الذى تقام عليه الجيوش ·· وبغير انضباط أو نظام لا يوجد جيش ، وانما جماعات فوضوية ·· علينا أن نعيد للجنود ·· والشاردين النظام والانضباط ·· علينـــا أن نأويهم ونضمن لهم الطعام والشراب وننظم خدماتهم ونعيـــد

تدريبهم .. علينا أن نمدهم بالكلمة ونؤمنهم وننظم حياتهم فالعـــدو خارج المدينة غادر لا أمان له .

كيف نأويهم .. والمدينة خراب .

كيف نطعمهم .. والطعام فى المدينة قرب على النفاذ ،والطريق مغلق .

كيف نسقيهم .. وقد ردم العدو ترعة السويس التى تمـــد وابور المياه بالماء .

انها مهمة صعبة .. ولكننا كنا نشعر تماما بأن الانســـان الذى عبر القناة واستطاع تحمل أعباء وضغوط الايام السابقة يمكنه تحمل أى شىء بعد ذلك .

سرت ومن معى فى شوارع المدينة نتكشف أحوال الناس .. فماذا شاهدنا ؟

ما زالت النيران مشتعلة فى المساكن ـ والشوارع الجانبيـــة سدتها أنقاض البيوت المهدمة ، المدينة تحولت الى أكوام من الحجارة والاخشاب المحترقة شعرت بالحزن والاسى فمشهد الخرائب يســرى فى النفس الألم والكآبة . ولكن سرعان ما تلاشى حزنى وشعرت بنشوة غامرة حينما رأيت الصف الطويل من دبابات العدو وعرباته المدرعة وعربات امداده وتموينه وقد نال منها الجنود والمواطنون ، شفوا غليلهم فيها ـ حرقوها ودمروها .. كتبوا أسماءهم وأسماء قراهم ومحافظاتهم بالطباشير حول جدرانها الحديدية المهشمة ... تعرت الدبابات ورأيت هياكل الاجسام البشرية الاسرائيلية محترقة فوق المقاعد . هكذا فعلوا بأنفسهم الحقوا بجيشهم العار والدمار .. جرهم قادتهم الى حيثلا يشاؤون .. أين أمهاتهم وزوجاتهمومواطنوهم فى اسرائيل .. أين هم ليشاهدوا ما لحق بهم .. لو شاهدوا ماأرى

الآن لما حقدوا علينا ، ولما رغبوا فى الانتقام من أهالى السويس ٠٠ فمنظر الدمار من حولهم سينبؤهم من المتسبب فى كل ذلك ٠٠٠ انهم قادة اسرائيل وساستها الذين دفعوا بشعبهم الى تبـــــنى نظريات خاطئة كاذبة ٠٠ واحتلوا أرضا ليست أرضهم ، دفعـــوا بشبابهم فى أتون قضية خاسرة فماذا كانت النتيجة ؟

سرحت بخاطرى وتذكرت مشهد الجنود الاسرائيليين أمس الاول ٠٠ شباب شكلت أفكاره بالايديلوجية الصهيونية فضللتـــــه وخدعته ودفعته الى مصير محتوم ٠

وفى حى الاربعين ٠٠ أحد الاحياء الشعبية عند مشارف المدينة والناس فى الشوارع ٠٠ عسكريون ومدنيون وقد اختلطوا واندمجوا ٠٠ أصبحت لا أميز بينهم ٠٠ فعندما شاهد المواطنون اخوانهم الجنود وقد تمزقت بعض ملابسهم من جراء عمليات الايام السابقة ٠٠ هل يتركوهم هكذا ؟ أعطوهم ملابس مدنية يكملون بها زيهم العسكرى ـ يحملون أسلحتهم وحول وسطهم القنابل اليدوية ٠٠ مشهد رائع ومسلى ونادر ٠٠ ضحكت كثيرا لأول مرة فمنذ فترة طويلة لم نكن نجد ما يدعونا للضحك ٠٠ الحياة تدب فى المدينة والناس يسيرون فى الشوارع يبحثون عن الطعام والشراب والتسلية ٠٠ المحـــلات التى بها بقايا من تجارة لم تصبها نيران العدو فتحت أبوابها المنبعجة وتستقبل الرواد ٠٠ الجنود داخل المقاهى يلعبـــون الورق والطاولة والدومينو ويمرحون ٠٠ هؤلاء الذين كانوا بالأمس القريب وجها لوجه أمام الموت ، كانوا يناهضون دبابات العدو نيرانه بأجسادهم يشعرون اليوم بلذة النصر ٠٠ رأيتهم كأنهم فى أحد مقاهى المدينة أو البنـــدر أو القرية ٠٠ المقاهى مفتوحة لا تقدم القهوة والشاى لأنه لا يوجد بها ماء ومشروبات ، والجنود بداخلها يتلمسون الحياة الطبيعية ، فقد سأموا بطبيعتهم الانسانية الخراب والدمـــــار ، تركناهم يمرحون ويعيشون يومهم بالأسلوب الذى يختارونه الى أن ندبر الأمر ٠

المعســكر

وفى اليوم التالى الموافق الأحد ٢٨/١٠ ·· خرجنا نبحث عن مبنى يصلح لايواء الجنود وتنظيم حياتهم العسكرية · وجدنا أن أنسب مكان هو مدرسة الستآمنة الابتدائية ·· مبنى مكون من ثلاثة طوابق به ما يقرب من خمس وعشرين غرفة خالية تماما من المقاعد والفراش ومهجورة منذ عام ١٩٦٧ بها فناء يصلح لعمل لقاءات مع الجنود ، الارض خشبية ـ ولكن النوافذ محطمة · أعددنا المبنى لايواء الجنود

وأثناء الحروب تنشأ مثل هذه المعسكرات وتسمى معسكرات الشاردين لتجميع الجنود الذين تبعثروا أثناء العمليات أو انعزلوا عن قياداتهم ·· أو للذين أنهكتهم العمليات الحربية ، وجنودنا اليوم يجمعون هذه الصفات وأكثر منها ، ولكنهم يتميزون بمواصـــفات خاصة نادرة ·· هم فئات مختلفة كما سبق ذكره ، وقد قاموا بأعمال مجيدة فى الايام السابقة تجعلهم فى مصاف الابطال ·· واندمجوا فى صفوف المقاومة الشعبية وصمدوا فى وجه العدو بأسلحته المختلفة برا وجوا ·· لم يستسلموا لنداءات العـدو بمكبرات الصوت ولم

يخضعوا للحرب النفسية المعادية ، بل ازدادوا قوة واصرارا • ولم ينهاروا ولم تحدث لهم اضطرابات عقلية ونفسية • بل ان مشهدهم اليوم وهم يمرحون ويبحثون عن التسلية ، دليل واضح على أنهم يتمتعون بصحة عقلية عالية •• انهم أصحاء وأقوياء بل عظماء وأبطال •• فكيف نسميهم شاردين ••• وجدنا أن أفضل تسمية هيمعسكر الايواء •

وبدأنا العمل ••

سرنا فى الطرقات نبغى جمع الجنود •• وكلما جمعنا عشرين وذهبنا بهم الى المعسكر أخذوا يتناقصون الى أن نصل المعسكر بمفردنا •• وأصبح واضحا تماما أن الجنود يتوقعون انسحاب العدو قريبا بعد مالاقاه من خسارة وخيبة •• وبالتالى ينتظرون العودة ثانية للانضمام الى وحداتهم وقياداتهم الاصلية •

والواقع أن الشعور الذى كان سائدا صباح يوم ١٠/٢٨ ، أن العدو سوف ينسحب خلال ساعات •• ربما كان ذلك أمل الناس انتشر فى شكل شائعة أو أن وجود العدو غرب القناة أصبح لامبرر له ، وفى غير صالحهم •

ومن ناحية أخرى سمعنا فى الاخبار أنه قد تمت الموافقة على عقد اجتماعات عسكرية بين الجيشين المصرى والاسرائيلى لبحث الموضوعات المترتبة على قرارات وقف النيران ، والمشاكل الناجمة عن خرق اسرائيل لهذه القرارات • وان المناقشة تتناول الجوانب العسكرية المتعلقة بتنفيذ قرارى مجلس الأمن رقمى ٣٣٨، ٣٣٩ الصادرين فى ٢٢ ، ٢٣ أكتوبر • ولم تلفت أنظارنا الأخبار العسكرية أو السياسية كثيرا ، فقد كنا نعيش فى مطبخ العمليات والأحداث العسكرية •• كنا نصنعها ونعدها ، والطباخ عادة يهمه أن يعرف رأى الناس فى طعامه ولا يرغب فى أكله وأصبح الذى

يهمنا الان أن يعرف الناس ما صنعناه ـ أن يرى الآخرون الدبابات المحطمة ٠٠ وكيف يتم ذلك والطريق مغلق ؟

وبدأ المعسكر العمل بفرد واحد جاءنا بقدميه ٠٠٠ أردنا الا نكره أحدا على الحضور ، وفى نفس الوقت لابد من جمع هؤلاء الجنود لتنظيم الحياة العسكرية فى المدينة ٠

ومر يومان ٠٠ استطعنا خلالهما أن ننشىء السجلات ـ ونعد المكاتب ونحدد وظائف المشرفين على المعسكر ٠٠ وواجهتنا المشكلات التالية :

ـ لا يوجد فراش أو غطاء لنوم الجنود ٠٠ والجنود المصريون يستطيعون التصرف فى جميع الظروف فهم ينامون اليوم فى المساكن المهجورة وقد تمكنوا من توفير الفراش والغطاء لأنفسهم بشكل أو آخر وكان لابد لنا أن نوفر لهم ما يعوضهم مكان مبيتهم المؤقت ٠

ولمعت الفكرة فى ذهن واحد منا ٠٠ ذهب الى أحد وعاظ المدينة وأفهمه حقيقة الموقف وأشار عليه بالاستفادة من الحصر التى بالمسجد ٠٠ وتم نقل ما يقرب من خمسمائة حصيرة من مساجد المدينة وفرشت أرضية المعسكر بطبقة من الحصير ٠٠ وفوقها طبقة أخرى للغطاء ٠

وشعر الجنود بحاجتهم الى الانتماء الى جهة كمعسكر الايواء فجاءوا بأرجلهم يقدمون أنفسهم الى المعسكر بالمئات ٠ ونشط المشرفون على المعسكر وانهمكوا فى العمل منذ الصباح الباكر حتى المساء ، واستقبلنا المئات منهم وسجلت أسماؤهم وجميع البيانات العسكرية المتعلقة بهم فى سجلات ٠

وجلست مع الجنود فى لقاء أحدثهم فيه عن الغرض من انشاء المعسكر ، ودورهم النبيل المقبل ٠٠ وعن موقف العدو ومحاولاته الفاشلة ٠٠ الخ عرفت أن الكلام لا يجدى لأنهم يعرفونه لا عن علم ودراسة ولكن عن تجربة وخبرة ٠ والكلام المفيـــد هنا هو متى سيعودون الى وحداتهم ٠ وماذا يأكلون لأنهم جائعون ، وكيف ينامون ٠٠ وما دام المكان يسمى معسكر الايواء ٠٠ اذن يجب أن تتوافر فيه عناصر الاعاشة من طعام وشراب ومكان للنوم والراحة ٠٠ كلام معقول ٠

ان معلوماتى لا تزيد عن معلوماتهم شيئا ٠٠ فمصادرمعرفتى هى جهاز راديو صغير مثلهم تماما ٠٠ علينا أن نواجه الحقيقة معا ٠ ولكن ليس قبل حضور الرغيف ٠٠ المعدة أولا ثم الكلام ٠

وجاء الرغيف فى اليوم الأول ٠٠ جاء لا نعرف له وجها من ظهر – لكل جندى أو ضابط فى المدينة رغيف وشلن كل يوم ،هذا فضل كبير ٠٠ أجمل ما فيه الضمان والنظام ٠٠ قليل دائم خير من كثير منقطع ٠٠ أما الرغيف فقد التهمناه ، بشهية ٠ وأما الشـــلن فلم نجد ما نستبدله به غير بقايا ما فى المحلات التجارية من سجائر وحلوى ٠

ونفدت المواد التموينية من المتاجر ، وأخرج محافظ المدينة ما فى مخازن المحافظة لتباع فى المحلات بأسعار زهيدة ٠٠ والتهم الشلن اليومى كل شىء فى أيام قليلة ٠

وقد تم تعيين قائد لقوات السويس العسكرية جاءمنالشرق ٠٠ بدأ النظام يأخذ مكانه فى المدينة ٠٠ الحياة العسكرية تقتضى النظام والانضباط العسكرى ولكن فى ظروفنا هذه تتطلب أيضـــا المرونة والرأفة والرحمة ٠٠ ذلك لأنه اذا أردت أن تطاع فامر بما يستطاع ٠

وكان القائد حازما ورادعا وعادلا ، وكل هذه صفات مطلوبة .. وعلى الفور تم حصر كل الضباط والجنود ووحداتهم الاصلية .. وتم تعيين قادة من الضباط للقطاعات المختلفة لمدينة السويس .. وتسلم كل قائد مهمته فى مواجهة العدو المتربص حول المدينة .

مرة أخرى ، ما أروع الجنود المصريين .. يواجهون العدو المتحصن داخل دباباته وفى المبانى .. العدو يخرج فوهات مدافعه ورشاشاته من بين تحصينات منيعة يختبئون وراءها .. وجنودنا أمامهم لا يحتمون بشىء ويواجهونهم داخل حفرهم ليلا ونهارا ... فى حرارة النهار وبرودة الليل والملابس خفيفة وبالية .

الورطـة

كان أفراد العدو فى ذلك الوقت خارج مدينة السويس لا يستطيعون التحرك شبرا واحدا الى الأمام خشية أن يلحق بهـم مثلما لحق بزملائهم يوم ٢٤/١٠ ٠وكان موقفهم سيئا للغاية يعرضهم لهجمات الجنود المصريين ٠ فلم يغادروا دباباتهم ليلا أو نهارا ٠٠٠ ولم يتمكنوا من انشاء مواقع محصنة لهم أو ملاجئ يحتمون بها أو سواتر ترابية تقيهم رصاص المصريين ٠٠ والعـــدو الاسرائيلى لا يتحرك الا من وراء حصون ـ اختبأوا فى أماكن بعيدة عن رؤية جنود المدينة ٠

وكانت قوات العدو عند مدخل مدينة السويس مرابطـــة بعيدة عن مبانى عمارات المثلث ، أما القوات فى منطقة الجناين فقد اختبأوا فى المزارع بعيدا عن المساكن الريفية ، والقوات فى منطقة الزيتيات تحتل مبانى الشركات بعيدا عن مدينة السويس وقـوات أخرى تختبئ فى مبانى عند مدخل الطريق الموصل الى مبـــنى المحافظة ٠

خلاصة القول أنهم كانوا داخل دباباتهم لا يستطيعون التحرك لعمل الاستحكامات والتجهيزات الهندسية .. وكانوا يضيئون المدينة ليلا بالأنوار الكاشفة .. حتى وصلت مشاعلهم المضيئة فوق المعبر الذى يصل المدينة بالشرق عن طريق القناة خشية من تحرك قواتنا من الشرق الى المدينة .

وهذه قواتنا

أما جنودنا فكانوا يختلفون تماما عن جنود العدو فى تصرفاتهم وتحركاتهم فمنذ أن بدأت مقاومة القوات المعادية يوم ٢٤ أكتوبر ، أنشأ الجنود الكمائن حول مدينة السويس فى أماكن كثيرة ... وكانوا يحفرون الارض كما يفلحونها فى الاراضى الزراعية دون أن يختبئوا من رشاشات العدو ونيران دباباته .. فلسفتهم فى ذلك أن كل رصاصة مكتوب عليها اسم صاحبها ، وقل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ... تراهم يتحركون هنا وهناك بأسلحتهم الصغيرة أمام العدو المختبىء وراء الجدران والحصون .. حفر الجنود المصريون فى الارض شريطا ممتدا حول المدينة ، يمر الشريط فى داخل الاراضى الزراعية أو بين المبانى أو فوق قضبان للسكك الحديدية وقد يمر فوق قناة جف ماؤها . وكانت قواتنا تبعد عن قوات العدو ومدرعاته حول المدينة مسافة لا تزيد عن بضعة أمتار .

وعلى مشارف المدينة وجد العدو نفسه شبه محاصر داخل دباباته وعرباته فاذا عاود اقتحام المدينة مرة أخرى تحطمت دباباته وهلك .. واذا خرج من الدبابات لتجهيز هندسى أو حتى لقضاء حاجته تعرض للقناصة المصريين .. فكان كلما أراد التحرك فتح نيران مدفعيته ورشاشاته فى الهواء أو كيفما اتفق .. فتواجهه قواتنا المرابطة فى مواقعها بسيل متدفق من النيران .

وجاء السلام

وعند ظهر يوم ١٠/٢٨ ٠ وصلت أول دفعة لقوات الطوارىء الدولية الى مدينة السويس وقد انتهز العدو فرصة وصول الدفعة الأولى من هذه القوات ، فخرج بعض أفراده وتسللوا وراء قوات حفظ السلام وتسربوا داخل عمارات المثلث على مشارف المدينة حيث اختبئوا داخل أدوارها السفلى ، رأينا الدفعة الأولى لقوات الطوارىء الدولية بزيهم العسكرى التقليدى ذى اللون الزيتى والطواقى السماوية الزرقاء ، العربات البيضاء فوقها أعلام الأمم المتحدة ترفرف ٠

دخل غصن الزيتون مدينة السويس ٠٠٠ كان القتال من أجل السلام وجاءت بوادر السلام والأمل بعد أن حققنا معجزة العبور ، وبعد أن أحبطنا محاولة العدو فى سلب ما استرددناه من حقوق شرعية ٠٠٠ جاء السلام فى وقته المناسب ، ومن يحب القتال ؟ الحرب كره لنا ٠٠ نحن شعب نحب السلام ٠٠٠ طبيعة الحياة الزراعية متأصلة فى نفوسنا منذ أجيال طويلة بعيدة ٠ لقد حاولنا

من أجل ذلك اليوم ... مرحبا بقوات الطوارىء الدولية من أجـل السـلام فى الشرق الأوسـط ، وصلت الكتيبة الفنلندية مدينـة السويس .

الضباط والجنود الفنلنديون بيض وحمر الوجوه شـعورهم صفراء كأسلاك الذهب ، عيونهم في زرقة السماء ، ملابسهم نظيفة . أحذيتهم لامعة . دخلوا مدينة السويس لأول مرة . فرحنا بمقدمهم ، يلوحون لنا بأيديهم .

هم أول من شاهدوا آثار العدوان الاسرائيلى ، رأوا المنازل المهدمة عند المثلث وآثار الحرائق ... رأوا عجائب الحرب والدمار ممثلة فى بيت نزع من الأرض نزعا ، فأصبح مائلا بزاوية أكبر من زاوية ميل برج بيزا ، دون أن يقع . وهذا القضيب الحديدى نزعته قنبلة الألف رطل من وضـــع امتداده الأفقى فاذا به يعلو رأســيا ويخترق الدور العلوى لأحد البيوت ، شاهدوا أحـدث ما أخرجته المصانع الحربية الأمريكية من دبابات وعربات أصبحت خردة لا قيمة لها ، ملقاة بجوار الرصيف .

شاهدوا عجائب الصراع بين مصر واسرائيل ...

الباب السابع

التكيف

- الموقف
- وتفجرت العيون
- خيرات بلدنا
- أساليب فريدة
- السيجاره والرغيف
- الملابس والغطاء
- والأجر بالأجل
- أزمة طاقة
- الجرحى

الموقف

طبيعة الموقف :

عندما تسللت القوات المعـادية غرب القناة . كانت متشرة ومبعثرة بشكل يعرضها للخطر الحقيقى ، ولحصار قواتنا لها من كل جانب .. فلما صدر قرار وقف اطلاق النيران فى ٢٢ أكتوبر ، لم يكن لهذه القوات سبيل لفك حصارها سوى المخادعة وضرب القرار الدولى عرض الحـائط واسـتخدام الأسلوب الاسرائيلى المعـروف بالالتفاف والتطويق .

التزمت قواتنا بنص القرار وثبتت فى مواقعها المنصوص عليها فيه .. وتسللت القوات المعادية غرب القناة ليلا وتجمعت لتحسين مواقعها بقصد الالتفاف حول القوات المتمثلة فى وحـدات الجيش الثالث بشرق القناة ومدينة السويس كما سبق ذكره .

على ذلك يمكن القـول بأن طريق القاهرة السـويس قطعته القوات المتسللة يوم ٢٢ أكتوبر ، وأصبح الاتصال والانتقال متعذرا ابتداء من ذلك التاريخ .

ولما كانت القوات المتسللة غرب القناة قد أحاطتها وحدات قواتنا فى الجيشين الثانى والثالث من الشـمال والغرب من ناحية ومن شرق القناة من ناحية أخرى ، فان طبيعة الموقف العسـكرى تميزت بصفتين رئيسيتين :

(أ) أن القوات المتسللة أصبحت متداخلة مع قواتنا غرب القناة ٠

(ب) انه يمكن للقوات المصرية الضغط الشديد على قوات العدو فى أى وقت ٠

وعلى ذلك فان كلمة الحصار لا تعنى حصارا على قواتنا فقط وانما تعنى أيضا حصارا على قوات العدو غرب القناة قبل حصارهم لمدينة السويس وقواتنا فى الشرق ٠

نوايا مصر :

مصر تريد السلام ٠٠٠ وقد حققت النصر بعبور القناة فى ٦ أكتوبر ٠ واستردت كرامة الجندى المصرى ٠٠٠ وكرامة الشعب المصرى كله والوطن العربى لا نريد مزيدا من الدمار ٠٠٠ وكفى الله المؤمنين القتال ٠

التزمت مصر بوقف اطلاق النيران الكامل ٠٠ جاءت قوات الطوارىء الدولية واستعدت مصر من جانبها لتنفيذ تطبيق القرارين ٣٣٨ ، ٣٣٩ ٠

وفى يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٧٣ تمت الموافقة على عقد اجتماعات عسـكرية بين الوفدين من الجيشـين المصرى والاسرائيـلى لبحث الموضوعات المترتبة على قرارات وقف النيران والمشاكل الناجمة عن خرق اسرائيل لهذه القرارات ٠

واهتم الجانب الاسرائيلى فى اجتماعات الكيلو ١٠١ بضرورة المحافظة على وقف النيران وترتيب تبادل الأسرى ، وفك الحصار المصرى على باب المندب · ونجاهل الالتزام بتنفيذ قرار مجلس الأمن القاضى بالعودة الى مواقع ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ···· والسبب آن ذلك سيعرض قواته لوضع سىء للغاية ·

وقدم الجانب الاسرائيلى اقتراحات ساذجة منها اقتراح الانسحاب المتبادل على جانبى القناة · وكان رأى مصر واضحا تماما برفض الارتداد المصرى عن أية مناطق شرق القناة · أو التنازل عن المكاسب العسكرية ·

وتكررت الاجتماعات دون الوصول الى اتفاق جاد فى موضوع فض الاشتباك بين القوات · وفى يوم ٩ نوفمبر أعلنت الحكومة الأمريكية أن مصر واسرائيل قد وافقتا على اتفاقية من ست نقاط تهدف الى تمهيد الطريق أمام المحادثات للوصول الى تسوية دائمة فى الشرق الأوسط ·

وتضمنت الاتفاقية التى أعلنت يوم ١١ نوفمبر النقاط الست التالية :

(أ) توافق مصر واسرائيل على الالتزام بدقة بوقف اطلاق النيران الذى دعا اليه مجلس الأمن ·

(ب) يوافق الجانبان على اجراء مناقشات تبدأ فور التسوية مسألة العودة الى مواقع ٢٢ أكتوبر ، فى اطار اتفاق بشأن الفصل بين القوات تحت اشراف الأمم المتحدة ·

(ج) تتلقى مدينة السويس امدادات يومية من الأطعمة والمياه والأدوية ويتم اخلاء جميع المدنيين الجرحى من مدينة السويس ·

(د) تحل نقاط مراقبة تابعة للأمم المتحدة محل نقاط المراقبة الاسرائيلية على طريق القاهرة / السويس ، وعند نهاية الطريق قرب السويس ويستطيع الضباط الاسرائيليون أن يشتركوا مع الأمم المتحدة فى الاشراف على الطبيعة غير العسكرية للشحنات عند ضفة القناة ٠

(هـ) بمجرد اقامة نقاط المراقبة التابعة للأمم المتحدة عن طريق القاهرة / السويس يتم تبادل جميع أسرى الحرب بما فى ذلك الجرحى ٠

نوايا مصر الحقيقية هى السلام ٠٠٠ حاربنا بشرف ، وانتصرنا بقدراتنا ونسعى الى السلام جادين ٠

ومن أجل السلام كان الصمود عظيما ٠

وتفجرت العيون

هل يمكن أن يعيش انسان دون ماء ؟ الماء هو شريان الحياة ... وبانقطاعه تنتهى .. ردم العدو ترعة السويس التى تمد وابور المياه بالماء . وفتحنا صنابير المياه صباح يوم ١٠/٢٦ لم يتدفق منها الماء كالمعتاد .. العدو يقصد أن يضغط علينا حتى نستسلم ... فليفعل ما يشاء . آلاف الجنود والأهالى داخل المدينة مهددون بالموت عطشـا .. بالمستشفى يحتاجون الماء - للشرب ولاعـداد الطعام وللنظافة . الماء لا يعرف قيمته الحقيقية الا من يحرم منه .. هذا السائل الذى يتسرب بين أيدينا كل يوم دون أن نشعر بأهميته توقف وامتنع . كيف يعيش الناس .. قوات الجيش الثالث شرق القناة ، والجنود والاهالى فى مدينة السويس ..

أما فى الشرق فقد تفجرت عيون مياه جوفية فى عدة مناطق فى الصحراء ، بالاضافة الى الماء المتدفق من بعض آبار عيون موسى التى كانت قواتنا تسيطر عليها .. ولكن الكمية محدودة والتوزيع

يتم بنظام دقيق .. وتجمعت مياه السيول فى الحفر التى كونتها دانات الطيران المعادى .

وعندما كان رصيد الماء قليلا .. ونصيب الفرد الواحد فى اليوم لا يتجاوز نصف لتر من الماء ، سمعت الواقعة التالية من أحد الضباط فى احدى النقط المواجهة مع العدو والمتداخلة معه :

شاهد أحد افراد العدو جنديا مصريا يحمل (جركن) نصفه مملوء بالماء وكان هذا الماء نصيب وحدته المكونة من عشرين فردا فناداه الجندى الاسرائيلى وبيده جركن مملوء بالماء .. خذ يا مصرى الماء .. عندنا كثير وكأن لدغة ثعبان أصابت صاحبنا المصرى .. العدو فوق أرضه ويمن عليه بالماء .. ولكن ليثبت للعدو أنه ليس فى حاجة الى مائه .. بادره برد سريع اذ سكب نصيب وحدته من الماء فى الرمال قائلا عندنا ماء كثير ، وهذه الكمية كنت سأستحم بها ولكنى عدلت عن ذلك .

المشكلة الفعلية كانت بالنسبة لمدينـــة السويس .. تمت دراسة موقف المياه وحصرت الكميـــات المخزونة فى الصـــهاريج والخزانات فاتضح أنها تكفى مدينة السويس لمدة ثلاثة أشـــهر بمعدل لتر واحد يوميا لكل فرد من العسكريين وثلاث لترات اسبوعيا لكل فرد من المدنيين . وصدرت التعليمات فى الأيام الأولى بالتحفظ على كميات المياه المختزنة لحين البحث عن مصـــادر أخرى .

ومن العجيب حقا أن تنفجر المياه الجوفية فى مدينة السويس من أماكن ومصادر مختلفة .. رأيت عينا من الماء تنهمر داخل دكان .. وأخرى وسط شارع رئيسى وثالثة بجوار أحد غرف المجارى وعين رابعة تخرج من كورنيش الخليج تنصب فى ماء البحر .

وقال الناس البسطاء الطيبون انهم لاحظوا المياه المنهمرة تتفجــر بكثرة اذا انتظم الناس فى صفوف لملأ أوعيتهم ٠٠ وأن الماء يتعثر فى تدفقه اذا تجمهر الناس حول العين ، وينقطع تماما اذا اختلفــوا أو تشاجروا !!

ومهما كان تفسير مصادر المياه ٠٠ مياه جوفيه أو مياه الامطار والسيول المتسربة من الصخور ، أو أنها كانت مياه مجارى وقــد رشحتها الرمال والصخور ، أو أن سبب تفجر المياه وخروجها من عيون جاء بتأثير الهزات الأرضية التى أصابت أرض مدينة السويس من جراء قنابل الالف رطل ، وربما حركت هذه الهزات المياه من مصادرها المختلفة وجعلتها تخرج للناس بهذه الصــــورة قــــد تكون هذه أو غيرها هى سبب هذه الظاهرة فان الأمر يعتبر حقــا مدهشا ويدعو للتعجب ٠٠ أن يقصد العدو حرمان الناس من الماء ويسد منافذها ٠ فتنهمر مياه أخرى من باطن الأرض ٠

وأدرك الجنود والمواطنون أن العناية الالهية وراء كل قطرة ماء ٠٠ استبشروا بالخير وحمدوا الله وكبروا ، شيخ المسجد يشن فى مكبر الصوت حربا نفســية على العــدو ، فى خطبة الجمعة والميكرفون موجه لمواقع العدو ٠٠ قال الشيخ بصــوته الحاد « اراد العدو الاسرائيلى أن يحرمنا من الماء لنموت عطشا ولكن الله بفضله ورحمته وحكمته ورعايته ، فجر لنا من الأرض عيونا تخرج ماء سلسبيلا » فسجد الناس حمدا لله وشكرا ٠ أما صاحب فكرة سد ترعة السويس فقد شعر بخيبة الأمل ، خاصة وان قواته فى الغرب حرمت من ماء الترعة ولم يفجر الله لهم فى الارض عيونا تخرج ماء سلسبيلا ٠

ولكن كمية الماء لا تكفى وخاصة لأن الحياة فى المدينة تتطلب مياها أكثر للنظافة والشئون الصحية ٠٠ فاســتخدم الناس ماء البحر لاعمال النظافة ٠ وكان المرحوم الدكتور محمد أيوب مدير

الشئون الصحية بالمستشفى العام يشرف بنفسه على ملء الخزانات من مياه البحر المالحة للنظافة العامة بالمستشفى ·

وبتحديد كميات المياه العذبة عرف كل فرد نصيبه ، وكان توزيع الماء يتم بنظام ودقة ·وكان الضابط المسئول عن ذلك يخشى أن تستمر الحالة أكثر من ثلاثة اشهر ·· وكلما مرت الايام ازداد قلقا وحرصا · وكأن كمية المياه العذبة كانت كميتها محددة لفترة الحصار ·

والواقع أن لتر ماء للجندى فى اليوم ، ولترا كل يومين للمواطن فى السويس لم تكن تكفى لحاجته فى الشرب وصنع الشاى وطهى الطعام ·· ولكن هذا الشعب الأصيل اعتاد خشونة الحياة وتحمل الأعباء والصبر ·· فقد عاش الناس رغم قلة الماء ·· وأحسنوا التصرف والتكيف وفلسفوا حياتهم وتبركوا بعيون الماء وحمدوا ربهم وباتوا هانئين · وكان الوقت شتاء والحاجة الى الماء للشرب والاستحمام أقل من الحاجة اليها فى فصل الصيف ·· واعتبرنا ذلك فضلا من الله علينا عظيما ·

خيرات بلدنا

فى الأيام الأولى لم يكن الطعام له أهميته عند الناس ، ذلك لأنهم انشغلوا بقضية بلدهم لا ببطونهم ، ولم يكن لنا شهية فى طعام ، ولم يتوفر الوقت لتناوله · وأخرج المواطنون ما فى بيوتهم للجنود فى كل مكان فأكلوا القليل وانصرفوا الى كمائنهم · وفتح التجار محلاتهم وأخرجوا ما فيها من فاكهة وطعام وقدموها للناس بغير ثمن لمن يرغب فى الطعام ·

الفلاحون ينتقلون كالمعتاد فوق حميرهم من منطقة الجناين الى داخل المدينة ، ومعهم البرتقال والتمر السويسى الشهير ، داخل أقفاص — يمرون بين دبابات العدو غير عابئين به — يتجاهلونه تماما ·· والعدو ينظر اليهم مندهشا والناس فى المدينة يأخذون حاجتهم من الفاكهة والخضر ·· كميات قليلة لا تكفى حاجة الجنود والاهالى ولكنها لازمة فى وقت انقطعت فيه موارد الطعام عن المدينة ·

وفجأة انقطع الفلاحون عن زيارتهم اليومية ، وكان السبب

كما عرفنا أن أحدهم قد تعثر فى طريق الجناين ووقع فى حفرة هو وحماره فسقطت الاقفاص وتبعثر ما بداخلها من فاكهة ، ومنع العدو هذه الزيارات ٠

وفى يوم ١٠/٢٩ أمر القائد العسكرى للمدينة بتشغيل الأفران واعداد الخبز بالدقيق الذى أنقذناه من الحريق ، ولم يكن قد تحدد موقف الماء بعد ، فتم عجن الخبز بماء البحر ، استخدمت طلمبات المطافىء فى ملء خزانات الماء بالأفران ٠٠٠ فجاء الرغيف غريبا فى شكله ومذاقه ولونه ٠

أخذ كل فرد فى المدينة رغيفا كل يوم ابتداء من يوم ١٠/٢٩ وعند ما استقرت الأوضاع ، وأحس الناس بشىء من الأمن والنظام تنبهوا الى بطونهم ، وشعرنا بالجوع والعطش خاصة وأننا كنا صائمين فى شهر رمضان وممتنعين عن الطعام بسبب ظروف الأيام السابقة ٠ ولم يعد الرغيف يكفى وفينا من يقضى الليل ساهرا حارسا فى موقعه أمام العدو ٠٠٠ فى برد الشتاء والجسم يحتاج الى طاقة (وقوود) ٠ وجاء الشلن ودار فى الأسواق .وأحدث رواجا ، وأخرج التجار بقية الطعام وطهوا أصنافا جديدة من المأكولات تتناسب مع ما عندهم من حبوب وبقول ، وكلما نفد صنف من الحبوب أو المواد المساعدة لاعداد الطعام استبدل بغيره من الأصناف الموجودة حتى ينتهى وهكذا ٠٠٠ حتى انتهى الأمر الى صنع (الطعمية) من الذرة ومن غير خضروات أو توابل ٠ ثم صنعوها بعد ذلك من فتات الخبز ٠

وكانت بعض الوحدات الادارية تحتفظ بعربات بها معلبات ومواد تموينية ابتلعتها القوات بالمدينة فى يومين بواقع تعيين الفرد الواحد على سبعة أفراد ٠

وانتهت المواد التموينية بمحلات البقالة والمطاعم وغيرها من

محلات المأكولات وأصبحت المدينة خالية من السجائر والطعـــام الا قليلا نادرا . وانتهى أيضا ما مع الناس من نقود متبقية . وأصبح الشلن لا قيمة له ، ماذا نشترى به والمدينة خالية والطـــريق مغلق .

وبدء تنفيذ الجزء الأول من البند الثالث من اتفاقية البنـود الستة . وتجمعت عربات الطعام عند الكيلو ١٠٢ تمهيدا لادخالها مدينة السويس وقواتنا فى الشرق .

يا حبيبتى يا مصر :

وقفنا عند المدخل الرئيسى لمدينة السويس ننتظر ، فقـــد أرسل المسئول منذ الصباح عدة عربات الى خارج المدينة وفى منطقة الوجود الاسرائيلى وفوقها بعض الضباط والجنود والعمال فى ملابس مدنية لنقل المواد التموينيـــة القادمة من القاهـــرة وأيضا لمعرفة الموقف هناك .

وجاءت العربات آخر النهار مملوءة بالمواد التموينية ــ خيرات بلدنا ــ بها كل شىء .. وجدت نفسى أقول يا حبيبتى يامصر .. رأيت الناس تترقرق الدموع فى عيونهم فرحا وانفعالا .. هــذه مصر تشعر بأبنائها المحاضرين وترسل أهم الخيرات انه شـــعور الانتماء الى الوطن والأهل والأقارب والأصدقاء .شعور تبعيتى الى بنى وطنى .. وكأن أسرتى هى التى أرسلت لى الطعام ؛ أمى وأخوتى هناك يرسلون لى طعامهم .

ووقف طابور العربات .. ثلاثون عربة أمام محل عمر أفندى وقد تحول الى مخزن ، وأخذنا نفرغ العربات من حمولتها الدقيـق والسكر والشاى والبقول والسمن والزيت والصابون والبسكويت وآلاف المعلبات وغيرها كثير وامتلأ المكان بالمواد بخيرات بلدنا ... دمت لنا يا مصر حرة كريمة .

وانتظر الناس فى اليوم التالى أن يطعموا بما رأوه بالأمس ونقلوه ، لكن الرغيف جاء وحده ومن غير شلن . وتساءل الجائعون — متى ؟

كانت القيادة المسئولة عن القوات بالمدينة وعن المواطنين ساهرة لوضع نظام توزيع المواد التموينية ، مع وضع خطة دقيقة للاحتفاظ بمخزون احتياطى للمواد التموينية خشية انقطاع الامداد فى المستقبل وتعنت العدو . كانت النية مبيتة على الصمود والاستمرار مهما طال الوقت .

وبدأ توزيع الطعام بمعدل ثابت وعادل . فنصيب الضابط مثل نصيب الجندى مثل نصيب المواطنين رجالا ونساء وأطفالا كل فرد فى المدينة أصبح له كل يوم مقررات تموينية ثابتة ومحددة لافرق بين أحد وآخر فى الكمية والصنف .

وبلغت أكبر كمية مواد تموينية صرفت يوم ١٩٧٤/١/٢٠ على النحو التالى للفرد الواحد ضابطا كان أو جنديا أو من مواطنى المدينة .

٣	رغيف	١٤٠	جرام طماطم
٣٠٥	جرام لحم	١	جرام شاى
١	لتر ماء	٣٠	جرام سكر
١٥٠	جرام خضر	٥٠	جرام عجوة
١	علبة سجائر	١٥٠	جرام برتقال
١٥٠	جرام مكرونة	٤٠	جرام بصل
٧٠	جرام عدس	٢٠	جرام سمن

واستمر الامداد بالمواد التموينية يسير بنظام ثابت ما عدا بعض الأيام تأخرت العربات فى المنطقة المحتلة لأن العدو كان يريد

التهديد بمنع ادخال التموين للمدينة ، وذلك بسبب ضرب جنودنا لمواقعه ومضايقتهم له (كان العدو يتفادى الاصطدام بأفرادنا حول المدينة رغم أنهم كانوا أقل منه عدة وعتادا) ولكن تهديده بمنع الطعام كان يقابل من جانبنا بمزيد من النيران وقنص أفراده ... فيتراجع باكيا شاكيا لمندوب قوات الطوارىء الدولية وتعود العربات محملة بالمواد التموينية كاملة .

خمس وأربعون عربة محملة بالمواد التموينية تتجمع كل يوم خارج المنطقة المرابط بها العدو . يتم توزيع بعضها للمدينة والبعض الأخر لقواتنا بالضفة الشرقية ، كان العدو يخشى أن تكون بالعربات أسلحة أو زخيرة أو مهمات ذات طبيعة عسكرية ... يقوم بتفتيشها بأسلوب يدل على خوفه وفزعه انه الخوف والزعر والجبن انكشف فى نفوسهم منذ ٦ أكتوبر وطغت عليهم منذ معركة الأربعين فى الرابع والعشرين من أكتوبر .

وعاد الرغيف الى حالته الطبيعية .

خصصت كميات من الماء للمخابز ، بعد تنظيم صرف المياه ، وعاد الرغيف الى شكله المعتاد نظيفا له وجه وأظهر فقد عملت المخابزليلا ونهاراً لتوفير الكمية المناسبة للقوات والمواطنين وزاد التعيين فأصبح رغيفين لكل فرد فى اليوم .. وقام الخبازون المدنيون والعسكريون ليلا ونهارا فى المخابز .. وشعر الرجل العادى بالشبع والاكتفاء فى الطعام .. ولكن بعض الرجال لم يشبعوا لأسباب تتعلق بطبيعتهم .. ولأنهم يعملون فى الخدمات ليلا والطعام العادى لا يكفيهم ، فظهرت أساليب فريدة وطريفة لملء البطون . ولا يعيبهم أنهم لم يشبعوا ، كما لا يعيب المسئول عن توزيع الطعام عدم منحهم كميات زائدة ، لأن العدالة فى التوزيع أساس لضمان استمرار الحياة فى هذه الظروف بنظام وكفاية .

أساليب فريدة

الجنود المصريون رائعون فى تكيفهموتواقفهم ·· رأيتهم وهم فى حالات الجوع والحرمان صابرين متجلدين ··· العدو يحيطبهم حول مدينة السويس ، ويلقى أمامهم المعلبات من وراء حصونهم كان العدو يريد اغراءهم وتصيدهم بالطعام والسجائر ··· فلم يعيروه اهتماما ! ! احتقروهم وتركوا معلباتهم وسجائرهم ··· ولكنهم ما زالوا جائعين فماذا يصنعون ؟

رأيتهم وقد تسلقوا النخيل كالقرود الأشقياء ، يقطعون قلب النخيلة ويخرجون ما بداخلها من جمار ويأكلون طعاما شهيا ·

رأيتهم يتسلقون أشجار للزينة ويقطفون ثمارها فاذا هى صالحة للأكل وعرفت أنواع جديدة من ثمار الأشجار ذات طعم غريب ولكنها على أى حال فيها مواد سكرية ومشبعة ·

وبينما يتوارى العدو داخل دباباته وحصونه عند منطقة الزيتيات خشية من جنودنا وخوفا من أن يقتنصوهم بأسلحتهم الصغيرة·· نجد

جنودنا فى الشريط الممتد على كورنيش الخليج وعلى مدى نيران العدو وأمامهم يقفون فى الماء ويصطادون السمك بأساليب مختلفة عجيبة، سنارة أو طبق توضع بداخله قطعة خبز ويلقى فى الماء الى أن تصادفه سمكة . أو ما يسمى بالسخوه .

يتم ذلك كله فى شريط ساحلى ممتد أمام العدو دون أن يخشوه أو يهابوا نيرانه .

ولنا أن نتساءل ... الخليج أمام الجندى الاسرائيلى ويستطيع أن يخرج من حصنه ويتمشى قليلا أو يتنزه عصرا أو يصطاد سمكا مثل رجلنا المصرى . لماذا لم يفعل الجندى الاسرائيلى ذلك ؟

ما زلت أتذكر مشهد الجنود الاسرائيليين فى الضفة الشرقية للقناة قبل ٦ أكتوبر وهم مزهوون بأنفسهم يخرجون من مواقعهم يتمشون ويتريضون ويسخرون من الجندى المصرى أمامهم .. يقولون له يا مصرى يا فلاح .. وكانوا يصطادون السمك فى القناة .. ودارت الايام وأصبح الجندى المصرى الفلاح هو الذى يصطاد السمك اليوم وهم قابعون فى حصونهم خائفين .. من المحاصرين ومن المحاصرون ؟

ان حرب أكتوبر صنعت الكثير .

السيجارة والرغيف

انتهت السجائر المخزونة في المدينة ، والمدخنون كثيرون ، والامتناع عن السجائر فى مثل هذه الظروف أمر صعب لا يقدر عليه أقوى الناس اراده ٠٠ فهذا وقت مناسب للتدخين ٠ ولا أعرف لماذا تأخر دخول السجائر المدينة ، رغم تدفق المواد التموينية بغزارة ٠ وزاد اشتياق المدخنين لها ٠ وتم البحث والتنقيب عن كل سيجارة فى المدينة ، أخذ الجنود يفتشون الى أن اكتشفوا مخزنا من التبغ والأدخنة المختلفة ـ معسل وسجائر ٠٠ وجدوه تحت أنقاض أحدى المنازل المهدمة ٠٠ شموا رائحة الدخان وهم يبحثون وكأنهم عثروا على كنز ، أخرجوا كميات قبل ذلك وهى حلال لهم بحكم أنها كانت تحت الانقاض ، وهم يستحقونها ، ولكن أحد الجنود ينبههم قبل استخدامها لخطورتها فربما أصابتها أمراض التخزين فهو خريج كلية العلوم ، أخذ بكمية منها وقام بتحليلها فى معمل المستشفى ولحسن الحظ وجدها صالحة قام المكتشفون بتوزيع كميات الدخان على المدخنين منهم ٠ والدخان جف ، صحنوه ثم خلطوه بأوراق بعض

الشجر ولفوه داخل ورق أبيض رقيق حتى أصبح مثل السجائر ·· واستمتعوا بالتدخين عدة ليالى حتى نفذت الكمية ·

اكتشفوا أيضا نوعا من الأشجار به ألياف وأوراق صنعوا منها سجائر ··

وامتنع الناس في المدينة عن عادة المجاملات الشخصية السخيفة ·· فلم يعد أحد يقدم لصديقه سيجارة ··· اختفت هذه الصورة · وعند الضرورة يمكنه أن يدعوه لنفس من سيجارته ·

وعلى كل حال فقد كان للسيجارة شأن عظيم بين الناس ،ومنهم من كان يقوم بخدمات كثيرة مقابل سيجارة واحدة · أصبحت نقطة ضعف عند المدخنين ورغم ذلك رفض أشد الجنود تعلقا بالسيجارة سجائر العدو التى كان يلقيها من وراء حصونه ، وتركوها ملقاة فوق الأرض ·

وفى منتصف شهر ديسمبر بدء توزيع السجائر بمعدل ثلاثة سجائر كل ثلاثة أيام ثم كل يومين ، ثم كل يوم ·· وأخيرا علبة سجائر لكل فرد فى المدينة يوميا وعادت المجاملات المصرية كما كانت عليه وأخذ الذين لا يدخنون يقدمون سجائرهم لزملائهم المدخنين ·

وامتلأت المخازن بالمواد التموينية ، كميات هائلة من الطعام تكفى المدينة شهورا طويلة · ولكن التوزيع استمر بنظام دقيق ـ وأخرج المسئولون كميات من المواد التموينية المختلفة لتباع فى الاسواق بأسعار زهيدة · وتولت محلات الحلوى عمل البسبوسة بالمواد الخام الضرورية اللازمة ـ دقيق وسمن أو زيت وسكر ·· وقدمت محلات الحلوى أصنافا مختلفة من الحلوى · وتنافس أصحاب محلات الحلوى لا من أجل الربح فقد كان سعر الكيلو

عشرون قرشا • ولكن المنافسة كانت من أجل تقديم أكبر كميـــة للأسواق لسد حاجة الجنود والأهالى •

وكان الجنود يحضرون من الشرق لزيارة المدينة والتسوق فهم لا يرون هناك غير السماء والرمال •

وفى بعض المناسبات وفى الأعياد تم صرف خمسين قرشـا لكل فرد فى المدينة ودارت النقود فى الاسواق ، ونشطت حـركة البيع والشراء ، وأصبح الناس يجدون بعض حاجاتهم فى الأسواق •

وعادت المدينة لحالتها شبه طبيعية ، الا أن الجنود والأهالى اعتادوا نمط الحياة الجديدة ، وزاد اصرارهم على الصبر والصمود، وتكيفوا مع ظروف حياتهم ، وحتى لا يتذكروا أبناءهم وذويهم فقـد انشغلوا بأعمالهم اليومية وتفننوا فى صنع أشياء جديدة تتناسب مع الموقف •

الملابس والغطاء

الجنود الذين دخلوا مدينة السويس منذ يوم ٢٢ أكتوبر ..
كانت ملابسهم ممزقة ومستهلكة نتيجة الحرب والعمليات القتالية التى مروا بها .. وقد منع العدو خارج المدينة دخول المهمات والملابس والبطاطين باعتبارها من وجهة نظره مهمات عسكرية ، ولم تكن فى المدينة مخازن للمهمات أو للأغطية ..حتى ابر الخياطة وبكر الخيط منعوا دخولها .

وكما تكيف الجنود بالنسبة للطعام والماء والسجائر استطاعوا أن يتدبروا الأمور ، بحثوا فى الأنقاض والمنازل المحطمة وأخرجوا منها ملابس مختلفة الاحجام والأنواع وعدلوها بقدر المستطاع لتناسبهم .

أما الاغطية فقد حصلوا على بعضها من الأهالى واستكملوها بما تحت الانقاض وما بداخل المنازل المهجورة ، كما صنعوا أكياسا محشية بالقش للغطاء ورغم شدة البرد وقلة الملابس وعدم

كفايتها للتدفئة ، فان الجنود المصريين داخل مدينة السويس وفي شرق القناة حيث البرودة الشديدة استطاعوا أن يصمدوا ويتحملوا قسوة الشتاء وهم في خدماتهم في العراء ، وأمامهم العدو مختبيء وراء حصون ، وأفراده يرتدون البلاطى الثقيله .. لو أن العدو كان فى مثل هذه الظروف لاستسلم منذ أول يوم ، جنودنا المصريون قادرون على تحمل الظروف الجوية القاسية حرا وبردا .. تعودوا قسوة الطبيعة وضراوتها .. بينما جنود عدونا مدللون مرفهون لا يقدرون على الحياة الخشنة .

ثم وردت الملابس والاغطية ، وتم توزيعها بأولوية هؤلاء الذين يقومون بخدماتهم أمام مواقع العدو .. الأحقية والعدالة فى التوزيع كانت الاساس . كان نصيب الضابط أو الجندى طاقم ملابس داخلية وبطانية ، أما الأفرول فقد اعتبره العدو أيضا مهمات عسكرية منعوا دخولها الى المدينة . وقد أمر قائد قوات بدر بارسال كمية من (الأوفرولات) والفانلات الصوفية والمهمات العسكرية الخاصة بقواته الى قوات المدينة ، وتم توزيعها بأولوية الجنود الذين يقومون بخدماتهم فى مواجهة قوات العدو . ثم وردت الى المدينة كميات من الملابس المدنية تم توزيعها على الأهالى رجالا ونساء قبل عيد الأضحى بأيام .

والأجر بالأجل

طال شعر الجنود ، والماء قليل لا يكفى للشراب والطعام ، وماء البحر شديد الملوحة لا يصلح للنظافة ، وكان لابد من الوقاية من القمل والأمراض الجلدية وحلاقة الرأس ضرورة لازمة ٠

عثرت على جندى حلاق فى المدينة أفهمته أن المطلوب حلاقة صحية لبضع مئات من الجنود طالت شعورهم ، حلاقة سريعة بماكينة رقم ٢ أجرة الرأس قرش ونصف ، ومدة الحلاقة دقيقة واحدة للفرد لا أكثر ٠ حتى نضمن أن يحلق الجميع ٠ واستأجر الجندى عدة حلاقة وذهبنا الى المعسكر ٠

جمعنا مئات الجنود داخل فناء معسكر الايواء ، وفى لقاء سريع ، أوضحت لهم أهمية النظافة وضرورة الحلاقة ٠ وتم تنظيمهم فى صفوف وأغلق باب المعسكر الخارجى لضمان عدم الهرب فمنهم من وجد شعره مسترسلا فأعجبه وأحب الاحتفاظ به ٠

وبدأت الحلاقة ، ودارت ماكينة الحلاقة حول رأس الأول دفعة واحدة ولحسن الحظ أنه لم توجد مرآةليرى ما حدث لرأسه والثاني والثالث .. وجاء حلاق آخر من جماعة جنود المعسكر ، قال ان عمله المدنى (كوافير) وعرض مساعدة الاسطى ابراهيم ، ولكنه رفض اذ أراد أن يأخذ الرؤوس كلها لحسابه . وكان ابراهيم يدخن سيجارة وطلب منه عكاشة نفسا من سيجارته فرفض أيضا واستمر فى عمله ، غير عابىء بتوسلات زميله فى المهنة . أمامه مئات الرؤوس يريد انجازها بسرعة .

وخرجت الرؤوس عارية من الشعر ، وظهرت عيوب كان الشعر يسترها وكلما تمت حلاقة رأس جندى دخل الى زملائــــه الذين لم يأتى دورهم فى الحلاقة . ويبدو أن الحلاق عكاشة أثار الفتنة بين زملائه فتذمروا وأحدثوا هرجا ، فلما خرجت اليهـــم وجدت الرؤوس المحلوقة بينهم يقلبونها مستائين لما حدث لزملائهم وما سوف يحدث لهم ، وبسرعة جمع الحلاق عدة الحلاقة وفر هاربا خوفا على نفسه من الثائرين . واتفقنا أخيرا على أن يخف الشعر ويدرج فقط .. وقام الحلاقان بالمهمة معا ، وتم انجاز المهمة فىوقت أطول .. والأجر بالأجل !!

ورغم صعوبة الحياة فى تلك الايام فقد لاحظت أن الجنــود لم ييأسوا أو يهملوا مظهرهم الشخصى أو نظافتهم ، فكثــير منهم كانوا يحتفظون معهم بالمرآة والمشط يمشطون شعورهم ويعتنــون بشواربهم .

وقد اعتبر العدو شفرات الحلاقة مهمات عسكرية (أسلحة !) فمنعوا دخولها المدينة ، وفرغت الكمية القليلة الباقية فى الأسواق مما اضطر بعض الجنود والاهالى الى ترك لحاهم وشواربهم دون حــلاقة . منهم من هذبهــا ومنهــم من تركها واعدا بعدم حــلاقتها الا بعد انسحاب العدو واعلان النصر .

أزمة طاقة

اعتبر العدو البترول والسولار والجاز وغيره من مواد الوقود ذات طبيعة عسكرية لا يصح دخولها ضمن الامدادات اليومية المتفق عليها فى البند الثالث من الاتفاقية ذات البنود الستة ٠

وترتب على ذلك أن أصبحت كمية الوقود التى بالمدينة محدودة وصدرت تعليمات القيادة العسكرية لمدينة السويس بحظر استخدام الوقود الا للأغراض الضرورية ٠

وعلى ذلك قيدت الاضاءة وأصبحت لا تزيد على خمس ساعات فى اليوم لأن كمية الوقود المنصـــرفة لمحطة توليد الكهـــرباء محدودة ٠

كما حددت كمية الوقود للعربات ، وأعطيت الاولوية لتلك التى تقوم بنقل المواد التموينية من منطقة تفتيشها الى المخازن داخل المدينة ، فلم يكن يسمح للعربات المحملة بالمواد التموينية والقادمة من القاهرة بالدخول الى المدينة رأسا ، وانما يفرغ ما بها باشراف

قوات الطوارىء الدولية ويتم تفتيشها للتأكد من خلوها من الامدادات ذات الطبيعة العسكرية ثم يعاد نقلها الى عربات أخرى حيث ينقلها سائقون من مدينة السويس الى الداخل ·

وأصبحت التنقلات داخل المدينة سيرا على الأقدام ، ولا تستخدم العربات الا عند الضرورة القصوى ·

واستخدمت عربات الكارو يجرها الخيل والبغال والحمير لنقل المواد التموينية من المخازن الى القطاعات لتوزيعها على الجنود ولنقل الماء أيضا ·· وأصبح مألوفا أن ترى أحد الضباط أو الجنود فوق عربة كارو يقودها من مكان لآخر · والدواب تريد أيضا وقودا ، ودخل الكسب ضمن المواد التموينية وهو غذاء كامل ولكن الدواب تزداد عطشا اذا أكلت الكسب ، والماء قليل فى المدينة ·وقد قدم أصحاب الدواب دوابهم لنقل المواد التوينية داخل المدينة ولخدمة الضباط والجنود دون أجر ، كل الذى طلبوه أن تطعم دوابهم فقط ·

أما الافران فى المدينة فقد خصصت أكبرها وأصلحها للخبز – فالرغيف كان له أهمية كبيرة فى حياة الناس ،واستخدمت أخشاب الأشجار لتشغيل الافران · وقدم مهندس السكك الحديدية كميات من الفلنكات الخشبية للأفران فقد اتضح انها وقود صالح لتشغيل الأفران بكفاءة ·

واستخدم الجنود والاهالى أخشاب الاشجار ، والانقاض الخشبية للمنازل المهدمة فى اشعال النار للتدفئة ولطهو الطعام وصنع الشاى · ونقلوا أصلح الأشجار للوقود من مدينة بور توفيق ·

الجـرحى

ان الأعمال المجيدة التى أنجزت فى مستشفى السـويس العام ، منذ بداية العمليات الحربية حتى اخلاء المستشفى من الجرحى والمرضى تحتاج الى كتاب مستقل لتسجيل مواقف انسانية وتاريخية رائعة ٠

قام الأطباء من هيئـة التدريس بكليات الطب وأطباء وزارة الصحة والأطباء العسكريين وعددهم جميعا ١٠٥ أطباء بما لم يستطع أن يقوم به اضعافهم فى غير أوقات الحرب ٠ كان العمل مستمرا ليلا ونهارا فى غرفة العمليات لاجراء أصعب الجراحات وأعقدها فى تاريخ الطب ٠ وتحت وابل من مدفعية دبابات العدو ومن القصف الجوى المستمر ٠ والمستشفى تتسع لمائتى سرير فقط ٠

وتطوع بعض المدنيين من الفتيات والسيدات للخدمة العامة فى المستشفى وسط الظروف العصيبة ، وكان عدد الممرضات يقرب من التسعين ملحقات من وزارة الصحة قمن بأعمـال ينوء بحملها

أشجع الرجال من تمريض ونقل الجرحى ومواساتهم واعداد الطعام لهم ونظافة المستشفى . وكان الأطباء أنفسهم يقومون بأعمال التمريض والمساعدة فى اعداد الطعام وخدمة الجرحى .

وعند تنفيذ البند الخاص باخلاء الجرحى من المستشفى شعرنا جميعا بالارتياح فقد كان المستشفى ينوء بمن فيه ، حتى أن الطبيب المسئول بهيئة الأمم المتحدة (الصليب الأحمر) زار المستشفى وشاهد المجهودات التى تبذل من أجل المحافظة على الصحة العامة وأبدى الرجل دهشة من كفاح الأطباء والممرضات وحسن تصرفهم فى وقت لا يتوافر فيه الماء والدواء والمكان المناسب وقدم الرجل تقريرا يشيد بصمود أطباء وممرضات المستشفى ..

ثم دخلت عربات نقل الجرحى المجهزة لهذا الغرض يقودها سائقون من أفراد الصليب الأحمر الدولى ، وجاء الجنود والأهالى يودعون زملاءهم الجرحى ويحملونهم تحياتهم الى ذويهم .

وبلغ من جبن العدو وخوفه أنهم قاموا بتفتيش الجرحى خشية أن يحملوا معهم خطابات أو رسائل بها معلومات عن المدينة الى الجهات المختصة ولكن القيادة الرشيدة فى مدينة السويس تنبهت لذلك ، وحذرت الجرحى من حمل أى رسائل معهم .. وحتى يتأكد العدو بأن الاخلاء يتم بالنسبة للجرحى فقط وليس لغيرهم من الضباط أو الجنود أو المسئولين بالمدينة قام بعض الأطباء الاسرائيليين بالاطلاع على التقرير الطبى لكل مريض عند نقطة التفتيش والتأكد بمطابقة التقرير لحالة المصاب المنقول .

وبعد اخلاء المستشفى من الجرحى وتزويده بالأدوية ، عاد الى الحالة الطبيعية وتم تطهيره ونظافته واعداده لاستقبال المرضى كالمعتاد .

ان الاشتباكات اليومية بين قواتنا وافراد العدو ترتب عنها حـدوث اصـابات يومية ، كما أجـرى الأطباء كثير من العمليات الجراحية المختلفة • واستقبل المستشفى حالات ولادة عادية وعسرة فترة الحصار •

وقام أطباء هيئة التدريس بتنظيم ندوات ومحاضـرات طبية في التخصصات المختلفة ، كما قام بعض الجراحين بمناقشة تطبيق أساليب جراحية حديثة ، واكتشاف نظريات جديدة في الجراحة • ذلك لأن نوعية الاصابات واختراق الرصاصات والشظايا في جسم المصاب ، تقتضى اتباع أسـاليب متنوعة تختلف باختلاف مسـار الرصاصة أو الشظية في الأعضاء أو الأعصاب ومدى تأثيرها •

وقد خصص لكل قطاع من القطاعات العسـكرية طبيب مقيم ومعه ممرضان للاسعاف السريع عند حدوث اصابات وللكشف على المرضى وتقرير حالتهم وعلاجهم أو تحويلهم الى المستشفى • وأصبح الاعفاء من الخدمات الليلية يتم فى أضـيق الحـدود • وكثير من الجنـود كانوا يقومون بأعمال الحراسة الليلية على مواقع العـدو وداخـل المدينة وهم مرضى يعالجـون بالعقاقير ويستدعى مرضهـم الراحة ••• الا أن حجم المسئولية كان أقوى من المرض نفسه •

الباب الثامن

مواقف انسانية

- الصـــــــراع
- الفطـــــــائر
- عمـــامة الغـريب
- رمضان فى الحصار
- الدنيـــــا بخـــير
- رزق البحـــــر
- بطـل رغـــم أنفه
- وللفـــن مكـــان
- الحنان فى الصدور
- فرحتهـــم أعظـــم

الصراع

الرجال يعرفون وقت الشدائد ، حكمة شعبية مأثورة نذكرها عندما نكون فى محنة ، ونجـد الناس قد انفضوا من حولنا . أو عندما نجد بعضهم يشاركوننا المحنة . وتظهر طبائع البشر وحقيقتهم وقت الأزمات . ولا يخلو مجتمع ما من المزايا والنواقص ، والصفات الطيبة تعرف بنقائضها .

عشت مع المقاتل المصرى قبل بدء عمليات ٦ أكتوبر العظيم ، وعشت معه جميع مراحل الحرب ، رأيته حزينا قلقا قبل العبور ، ورأيته مضحيا بحياته سعيدا عند العبور ، ومتحملا كل المسئولية بأمانة وشرف ، تاركا وراءه آماله وطموحه الشخصى ، ناسيا أسرته وأبنائه ... فكل ما يفكر فيه هو انجاز المهمة وتحرير الأرض .

وحدث الالتفاف حـول المقاتل المصرى بعد أن حقـق نجاحا لا مثيل له فى تاريخ الحروب الحديثة . وجاءت الشدائد بثقلها ، وجد المقاتل المصرى نفسه وجها لوجه أمام مسئولية كبرى ، أعظم

امتحان يمر به الانسان فى حياته ، امتحان ليست نتيجته نجاح أو رسوب لشخص أو جماعة من الناس ... بل انتصار شعب وأمة أو هزيمتها لأجيال قادمة .

ونجح المقاتل والمواطن المصرى فى الامتحان الصعب ويا له من نجاح ، دافع الرجال عن بلدهم ... وضعوا أجسادهم أمام نيران العدو وليمنعوه من احتلال المدينة ، وسقط مئات الشهداء ، وانتصر المصريون فى الحـــرب وانهـــزم المعتدون الاسرائيليون أمام ارادة الرفـــض .

انفلت الضعف الانسانى لحظات ، ومن منا لا يخاف الموت .. ولكن العبرة بالنتائج ... لم تدم لحظات الضعف ، بل انفجـــرت الثورة الشعبية العارمة ، قضت تماما على مظاهر الضعف والسلبية، تحولت فى لحظات مظاهر الصراع بين الضعف وبين القوة الى صراع قوى عنيف بين الشعب الثائر وضد المعتدى على أرضه وعرضه .

رأيت رجلا فى حى الأربعين يقبـــض فى يده على سكين يوم ١٠/٢٤ ويستعد لقتل ابنتيه البكرين اذا تمكن العدو من احتلال المدينة انه يخشى أن يدنس العدو أرضه وعرضه .

ثم سمعت وعرفت بعد ذلك عشرات المواقف الانسانية كلها توضح حقيقة هامة ، وهى أن الانسان المصرى عظيم وأن صراعه مع العدو كان يمثل صراع الخير ضد الشر وكان صراعا شريفا .

وأخيرا أجد ماثلة أمامى الآن بعض المواقف الانسانية الرائعة التى توضح صفات ومزايا الانسان المصرى ، شجاعته ، طيبتـــه شهامته ، حسن تصرفه ، وقدرته على التكيف فى المواقف الصعبة . ولا تخلو المواقف من روح الفكاهة والدعابة وما يسمى (بخفة الدم) . هذه الصفات متأصلة فى الشعب المصرى منذ القدم وتمثل حضارته

الأصيلة عبر التاريخ عاداته وتقاليده الريفية التى نجدها الآن فى القرية المصرية ، وفى المدينة أيضا .

والمواقف التالية تمثل بعض مظاهر صراع الانسان المصرى ضد قسوة الحياة وضد الأزمات وضد المعتدى المتربص حول المدينة بسلاحه وعتاده .

الفطائر

جمع الرجل كميات من الدقيق والسكر والسمن وصـنع فى المسجد كميات كبيرة من الكعك قام بتوزيعها على القوات والأهالى ٠٠ كما تولى تحويل جوالات الفول الى كميات هائلة من الفول (النابت)٠ قدمها بنفسه الى الجنود والأهالى داخل المدينة ٠٠ وكان مشهدا رائعا ٠٠ أن نرى رجال الدين ينتقلون مع ضباط وجنود الجيش ويجلسون معهم فى مواقعهم يتدارسون معهم أمور الدين ويعيدون سيرة صبر وصمود الأنبياء والصالحين ومعارك المسلمين الأوائل ٠

المنافسة من أجل اسعاد القوات :

وعندما توفرت المواد التموينية بالمدينة عرضت مشروعا لعمل فطائر للجنـود وعند البدء تطوع الحـاج غندور الحلوانى بتنفيذ المشروع وتكريس معمله لصـالح القوات بالمدينة ٠ وقام بنفسـه وبمساعدة بعض الجنود فى صنع الفطائر يبدأ العمل بعد صـلاة

الفجر ويستمر حتى بعد الظهر .. ثم ينقل الجنود الصاجات فوق عربات يد الى مخبز الأسطى سيد – وكانت الفطائر تجهز بالجبن والعجوة والسمسم ، وتم انتاج أكثر من ١٥ ألف فطيرة تم توريعها على الجنود .

وأراد مهندس السكك الحديدية أن يقدم شيئا للجنود فعرض مشروع لعمل (الفطير المشلتت) وجهز مع الموظفين والعمال كمية كبيرة ، وتم خبزها فى فرن فوق سطح البيت الذى يقيمون به ، وأرسلت الكمية الى قواتنا بشرق القناة .

عمامة « الغريب »

عنـدما ترك الجنود الصامدون أماكنهم فى مسـاكن المـدينة المهجورة ، وتم تجميعهم فى معسكر الايواء،وألحق الأخرون بقطاعات المدينة للدفاع عنها وأعمال الحراسة ، لم يكن بالمعســكر أو فى قطاعات المدينة أسرة وفرش أو أدوات المعيشة اللازمة لهم ‥ فماذا يفعلون ؟

كان معسكر الايواء خاليا من الفرش ، ولم يكن به غير كمية من الحصر مفروشة فوق الارض وأخرى تستعمل كغطاء لهم أما الضابط النوبتجى فلم يكن فى غرفته غير مكتب وكرسى ، ووقت راحته يسند رأسه فوق المكتب ويغفو قليلا ٠

فى خلال يومين أو ثلاثة قام الجنود بتجهيز غرفة مفروشة للضباط فقد مدهم الأهـــالى باحتياجاتهم من فرش وأدوات المبيت اللازمة لاقامتهم بالمعسكر ، ونبش الجنود الأنقاض فأخرجوا من تحتها ما يحتاجون من مقاعد ومكاتب وكتب ومجلات قديمة ٠٠٠

الخ وأصبح مسجد سيدى الغريب أحد المصادر الهامة لايواء الجنود وامدادهم باحتياجاتهم من الفرش · فقد تهدم المسجد بفعل طيران العدو ، كانت المأذنة عالية فكانت هدفا للطيران ، وسيدى الغريب معروف لأهالى المدينة بأنه (حامى حمى السويس) ويبدو أيضا أنه ولى فاضل كريم فقد أخذ الجنود حصير المسجد واستخدموه فراشا وغطاء لهم وكذلك عمامته الخضراء · •

ويوما بعد يوم يزداد المعسكر وأماكن مبيت الضباط والجنود فرشا وتنميقا ، حتى احتوى على مكاتب وكراسى جلدية وفرش ومقاعد عرائس ، وأدوات مطبخ لطهى الطعام وكلما وجد جندى شيئا يصلح للمكان أتى به ، مصباحا كهربائيا ، أبجورة ، نتيجة حائط ، زهرية · كل جندى حسب ذوقه وهوايته وشملت الجدران أيضا صورا للسيدة العذراء علقها بعض الجنود الأقباط فى يوم عيد القيامة المجيد ·

رمضان في الحصار

أوقفني في الطريق ليلا ليسألني عن هويتي ، عرفته جنديا يقوم بحراسة المنطقة ، وكان الجندي يرتدي بنطلونا كاكيا وقميصا مدنيا ، عاري الرأس ، حذاؤه أبيض ، فلم تكن مهمات الملابس قد وصلت المدينة بعد ·· رأيت فيه شيئا ، جذبني اليه لعل مظهـره كان غريبا ومضحكا ·

وفي اليوم التالي رأيته يرتدي زيا آخـــر ، سروالا صــوفيا وسترة ثقيلة ، وفي نفس اليوم رأيته يرتدي ملابس خفيفة وممزقة، سألته عن ملابسه الثقيلة فأجاب أنه أعطاها لأحد الجنود يخـــدم في العراء أمام مواقع العدو ·

ـ من أين تأتي بهذه الملابس ؟

ـ من تحت الأنقاض · ويوجد أيضا غيرها كثير ·

ـ ولكنها ليست ملكك · وليس من حقك أخذها ؟

ـ الدنيا برد يا أفندم والناس أحق بيها ، وليس لها أصحاب معروفين . اقتنعت بوجهة نظره ، فالذين قاموا بصد العدو عن المدينة ويدافعون عنها الآن لا يعيبهم أن يرتدوا ملابس أهل البلد التي تحت الانقاض . ولو استطاع أصحابها لا أرسلوا لهم ملابس جديدة .

وكنت كلما رأيت جنديا يحتاج الى ملابس أو فراش أرسلته الى رمضان ، يمده بما يحتاجه ، كان الفتى يفتش ويبحث بهمه ونشاط عن احتياجات الجنود من الملابس والفرش والغطاء ويعطى الناس ما يحتاجونه .

وفى أحد الايام وقبل دخول الامدادات التموينية بالمدينة كان الطعام نادرا ، وأصر رمضان أن أتناول الغذاء مع قائده .. وعرفنى به وقدم لنا طبقا به سمك مشوى اصطاده بسنارته وتركنا نأكل .. وذهب يصنع لنا الشاى . سألت قائده عنه وعن تصرفاته فأخبرنى أن رمضان كان ضمن جماعة المشاه الذين عبروا القناة فى اليوم الاول واقتحموا المواقع الحصينة . وأن أفراد العدو فروا أمامه هاربين ... وأنه كان ضمن المشتركين فى معركة قسم الشرطة ، وأنه انسان نادر ، هوايته خدمة الآخرين . ولا يخص نفسه بشىء مما يكتشفه من الملابس والفرش بل انه ينام على حصير فوق الأرض وغطاؤه بال .

وامتد نشاط رمضان واكتشف بعض المواد التموينية من بقول ومعلبات تهدمت فوقها الجدران وأخذ يمد الجنود بما يحتاجونه وجاءنى يوما يطلب سيجارتين .

ـ بتعمل ايه يا رمضان الأيام دى .

ـ والله عندى مشروع ـ ربنا يسهل .

علمت بعد أيام أن رمضان اخترقت رأسه رصاصـــــة من رشاشات العدو فقتلته ·

كان العدو يرابط خارج المدينة فى منطقة بها بعض المواشى ـ تركها دون طعام أو شراب داخل الحظيرة · رأى رمضان أن المواشى تموت واحدة تلو الأخرى وأن الجنود بالمدينة يحتاجون لحمها · فتسلل مع زميلين الى الحظيرة ، ولكن أحد أفراد العدو شاهد تحركهم ففتحوا نيران رشاشاتهم عليهم · ولـما رأى الزميلان رمضـان قد مات · قررا أن ينتقما لصـديقهما وعادا من المهمـة ومعهما جثتان أحداهما لصاحب المشروع ·

الدنيا بخير

وصلت اشارة من قســم البوليس تفيد بأن بعض الجنــود يترددون على منزل فتاة صاحبة بار ، وأن هذه الزيارات مشبوهة ٠ ونظرا لأن البوليس ليس له سلطة بالنسبة للجنود فقد قمت مع ضابط المباحث للتحرى عن سبب وجود الجنود فى المنزل ، والاشارة بهذا المعنى تثير الشكوك ٠

وجدنا بعــض الجنود بالشقة ، وبعــض المدنيين ٠ زقامت تحريات البوليس ، ورغم أن أركان الجريمة لم تكن متوافرة الا أن الاتجاه كان يميل الى تصديق التهمة ٠

ولكنى شعرت أن الفتاة بريئة ، وأن زيارتنا الليلية لها سوف تسىء الى سمعتها تماما ، والحقيقة يجب أن تعرف دون تحيز أعمى وبهدوء ٠٠٠ فوجود رجال فى شقة فتاة ليلا لا يعنى انحرافها ٠٠٠ وتحدثت معها ٠ ومع الجنود ، وآخرين ، وعرفت الحقيقة ٠

كان والدها يعمل منذ سنوات طويلة فى بار صاحبه يونانى وأوصى الرجل بأن يؤول البار الى العامل بعد وفاته ، ولما آل اليه حوله الى مقهى وحلوانى ، وقامت عمليات ١٩٦٧ ، ومات الرجل تاركا وراءه سبعة أبناء أكبرهم هـذه الفتاة ، كان عمرها يومئذ سبعة عشر عاما ٠

وتم تهجير سكان المدينة ولكن الفتاة سعت للبقاء وادارة المحل مصـدر رزقهم الوحيد ، تركت التعليم وكانت على أبواب الجامعة هاجرت أسرتها الى مدينة الزقازيق ، وبقيت هى بمدينة السويس تعمل وترسل لأسرتها المال ، أخوتها جميعا يدرسـون فى مراحل التعليم المختلفة أكبرهم فتاة فى كلية الطب وآخر بكلية الهندسة ٠٠ تتحدث عن اخوتها باعجاب وفخر فهى ترى فيهم أملها فى المستقبل أنها تعمل هنا من أجلهم ٠٠ ذاقت مرارة الحـرب وهى فى ربيع العمر ٠٠ تجاهلت شبابها ومستقبلها تعرضت لقصف المدينة أثناء حرب الاستنزاف ٠٠ ولم تهاجر عند بدء عمليات أكتوبر بل استمرت فى عمل الفطائر والحلوى تقدمها للجنود قبل عبورهم، بل وترسلها اليهم فى سيناء ٠

لقد أصبحت مثل الرجال ، لم تشعر أنها أنثى ، ان كـل الظروف من حولها تساعد على ذلك ، المحل يفتح أبوابه بعد الفجر ، وتقوم بادارته وتشغيل العمال والاشراف على انتاج الفطائر والحلوى بعد خبزها ٠٠٠ وأعمال كثيرة فى الشراء والبيع والحسابات ، تقوم بها وحدها٠ وجاء الحصار ولم يصب محل عملها بسوء ، ولكن أصابت شقتها احدى دانات دبابات العدو فهدمت جدارا وأحرقت غرفـة بمحتوياتها ٠

ولكن ما حكاية هؤلاء الجنود وزياراتهم المشبوهة ؟

الدنيا بخير ··· هؤلاء الجنود بعضهم من السويس وآخرون من الزقازيق ،يعرفونها ويعلمون انها فتاة وحيدة ، وظروف الحياة فى أيام الحصار عصيبة ، تحتاج الى ماء لعمل الحلوى وتحتاج الى أن تقف فى طابور لكى تحصل على نصيبها فى التموين ، تحتاج الى أخشاب لخبز الحلوى ·· تحتاج الى أشياء كثيرة ·· كانت متوافرة قبل ذلك وأصبح الحصول عليها الآن بمشقة وجهد لا تستطيعه فتاة ·

قام الجنود بواجبهم نحوها ··· منهم من حمل اليها الماء من وابور المياه ومن العيون ، ومن البحر للنظافة ··· ومنهم من نقل لها الدقيق والسكر من المحافظة ومنهم من أحضر لها كسر الخشب للوقود ·· الجميع أصدقاؤها ، ومواطنوها ، وبلدياتها ، ومعارفها، يساعدونها لا عن طمع فى مال أو غير ذلك وانما عن شهامة مصرية أصيلة ، اطمئنت الفتاة عندما أخبرتها اننا جئنا بسبب ترك الجنود خدماتهم لا لسبب آخر ، وأننا لا نمانع فى مساعدتهم لها ولكن فى وقت راحتهم · رأيتها بعد فتح الطريق ··· وجدتها تعمل كالعادة وسألتها لماذا لم تسافر ··· قالت ولمن أترك بلدى ··· السويس بلدنا وسوف تعود أسرتى اليها قريبا ·

رزق البحر

لمعت الفكرة فى ذهن أحد جنود المعسكر ... انه من دمياط .
السمك طعامهم الرئيسى يأكلونه مع الأرز ، والأرز متوافر يأتى لنا
كل يوم ، والسمك متوافر أيضا .. الكنز أمامنا ونحن تائهون عنه.
هل نسينا أننا عبرنا القناة ، هل نسينا أن الأسماك فى قناةالسويس
تتكاثر منذ أكثر من ست سنوات وأنها تقفز أمامنا ثم تختفى تحت
سطح الماء ، نراها أثناء عبورنا فوق المعبر أو فوق القوارب وكأنها
تدعونا لصيدها .

عرض الفكرة ومضى لحال سبيله ... وتركنا ساهرين نفكر فى
مشروع كبير لصيد السمك – ليس مثل الصيد بالصنارة أو بالأطباق
أو السخوة فهذا يكفى حاجة أفراد قلائل .. نريد صيدا ثمينا يسد
حاجة الجنود للبروتينات . كان الصيد ممنوعا قبل ذلك. وأصبحنا
نملك قناتنا ، وعادت الينا أسماكنا . جمعنا بعض الصيادين المدنيين،
وعرضنا عليهم المشروع ، ولم نكن نعرف أى شىء عن الصيد

ووسائله ، وأنواع السمك التى بالقناة والخليج · كل الذى نعرفه أن سمكا كثيرا فى القناة وخليج السـويس · والمطلوب اخـراجه ليأكله الجنود ·

وظهرت شهامة الصيادين السويسيين ، هم لن يربحوا من المشروع مليما واحدا فالمشروع ليس للبيع والشراء · قام معنا جماعة من الصيادين وجمعنا وسـائل الصيد التى تركها أصـحابها عند تهجيرهم من المدنيين وحصلنا على قوارب صيد ··· وتم اختيار مكان مناسب للصيد عند منطقة حوض الدرس ولسان بور توفيق ·

ذهبنا بأدواتنا عند موقع تنفيذ المشروع · وجدنا معظم شباك الغزل تالفة أو ممزقة والقوارب مثقوبة يتسرب الماء بداخلها · أحضر الصيادون خيوط الغزل لاصلاح الشباك .المشروع يحتاج الى رجال لاصلاح الغزل والقوارب ولتنفيذ المشروع · ويكفى الصيادون جهدا انهم جعلونا نهتدى الى أدوات الصيد ·

من أين لنا الرجال ·· ؟ لماذا نذهب بعيدا ؟ وجاء عشرة جنود كانوا قبل تجنيدهم صيادين فى المدن الساحلية · وقاموا باصلاح الشباك واعداد أدوات الصيد للعمل ··· وأصلحت القوارب وبدأ العمل ــ وتعلمنا كيف توضع شباك الغزل فى البحر ، وأنسب مكان للصيد وأفضـل الأوقات لوضـع الشباك ، وأنواع السـمك التى يصطادها كل نوع من الشباك ، وغير ذلك كثير ·

وفى اليوم التالى جمع الجنود الصيادون الشباك التى ألقوها بالأمس فاذا بها مكتظة بكميات هائلة من الأنواع المختلفة من السمك الضخم والمتوسط والكابوريا والجمبرى · وامتلأت الصناديق وبدأ توزيع الانتـاج اليومى على قطاعات مدينة السـويس وعلى قواتنا بشرق القناة ·

ونجـح المشروع تماما بفضل جهود الصيادين السـويسيين وأمانتهم ، مئات الكيلوجرامات من أفضل أنواع السمك يتم صيدها كل يوم ٠ ويتم توزيعها على الجنود ، كل يوم قطاع ٠ وكان الجنود يبتهجون بنصيبهم من السمك مهما كان قليلا لأن قناتهم عادت اليهم وأن سمك القناة رمز لانتصارهم على العدو ٠٠ فقد كان أفراد العدو قبل أكتوبر يتسلون بصيد الأسماك أصبحنا اليوم نتنزه فوق قوارب الصيد فى القناة ونعبر الى الضفة الأخرى حيث نضع شباكنا فى بركة لسان بور توفيق حيث النقطة الحصينة التى كانت للعدو ٠

قام الصيادون بعملهم هـذا متطوعين ٠ كما سـعد الجنـود الصيادون بالمشروع ينزلون بالقوارب فجرا ليجمعوا الغزل ويخلصوا الأسماك من الشباك ويغسلونها وينشرونها ٠ عمل متواصل دائب٠ أنساهم العمل مشكلاتهم وبعدهم عن أبنائهم وذويهم ولمعت عيونهم وقويت سواعدهم ، ورد ماء البحر وهواؤه وخيره الى الوجوه الحيوية والصحة أحبوا عملهم ، ولما فتح الطريق وجاء موعد اجازتهم اعتقدوا أن المشروع مستمر ، ولكنهم عادوا الى وحداتهم الأصلية ٠ وعادت الشباك وأدوات الصيد والقوارب الى أصحابها ، وعاد اليهم رزق البحـــــر ٠٠

بطل رغم أذنه

رأيته يبكي في الشارع ·· بملابسه الممزقة ، سألته عما به فلم يرد ، ألححت في السؤال فعلمت أنه فقد سمعه وبصعوبة عرفت منه أن قائده أهانه ·· ألحقته بمعسكر الايواء ، وبعد يوم عرفت قصته من ضابط يعرفه · انه مهندس مجند كان يعمل ضمن احدى كتائب الصواريخ المضادة للطائرات ، أسقط وحده ثلاث طائرات فانتوم ، قادته وزملاؤه يشهدون له بالكفاءة ، انفصل عن وحدته في معارك غرب القناة قبل قرار وقف اطلاق النار ثم دخل مدينة السويس واشترك في عمليات المقاومة ببسالة ، وفي يوم ٢٤ أكتوبر انطلقت احدى قذائف صواريخ دبابات العدو بجوار أذنه فاستشهد أحد الجنود كان يقف خلفه وأصيب هو بالصمم ·

وقد جلست معه لأعرف سبب بكائه ، وفعلا علمت أنه انضم الى جماعة جديدة لا يعلمون عنه شيئا ، وأن صممه كان يعوقه في تنفيذ الأوامر ، وظن قائده أنه يدعي المرض ليهرب من الخدمات

فذجره وأهانه ، ونظرا لأنه كان معتزا بنفسه وما قام به من بطولات فقد تأثر بشدة لما أصابه ، وهو أيضا حزين لأنه أصم وصممه يمنعه من المشاركة الايجابية فيالخدمات،ثم قابلت قائده وشرحت لهحكايته فاعتذر له ، وتم عرضه على الطبيب المختص ، فاتضح ان علاجه لم يكن متيسرا بالمستشفى ، وأدرج اسمه فى قائمة المرضى المنتظر نقلهم الى القاهرة • وكنت أراه كثيرا يحمل سلاحة ويقف فى مكان قريب من مواقع العدو لا يسمع شيئا مما يدور بجـانبه ، لـكن مصريته وارادته جعلته يدرك ما حوله من غير سمع • وأعطى لنفسه واجبات وبات ساهرا فى خدمات حراسة أعفاه الطبيب منها • وجاءنى فى يوم ومعه وجبة غـذاء تسلمها من المعسكر • فقـد تناول طعامه فى المستشفى استعدادا لنقله الى القاهرة ، وهو يرى أن الطعام الذى معه ليس من حقه وجاء ليعيده • وكان مهذبا رقيقا فى شكره لما قدمته له ••• ونسى أنه هو الجدير بالشكر والامتنان ليس ممن حوله فقط بل من كل مواطن مصرى •

وللفن مكان

كنت كلما سرت في طرقات المدينة ليلا وصلت الى سمعي أنغام وأصوات قوم يطربون ، ولم أعر الأمر أهمية الى أن جاءني يوما في زيارة • شاب نوبي أسمر الوجه ، الابتسامة لا تفارق وجهه ، كنت أعرفه ضـابطا مهندسـا في الحـرب الالكترونية – وكان بصحبته جندي ربما كان أقصر جندي في الجيش وبيده جيتار • رحبت بهما، وعندما طلبت الشاي قال ببساطة ومرح وعشم أنه لا يشرب الشاي قبل تناول العشـاء • وأكلنا معـا ، ويبدو أنهما لم يتناولا طعاما طوال اليوم •

عرفت منه أنه فنان يؤلف الأغاني النوبية ويلحنها ويغنيها أيضـا • وفي الرقص – يؤلف التابلوهات الراقصـة السـودانية والنوبية ويرقص أيضا ، وفي التمثيل يكتب الروايات وله أدوار يؤديها فوق خشبة المسرح ••• كل ذلك بجانب عمله الفني الدقيق• قام بدوره في العمليات الحربية واشترك في أعمال المقاومة وتوزيع

الأسلحة والذخيرة على أفراد الكمائن ، بل انه يقوم بأعمال ضـــد أفراد العدو حول المدينة ويكبدهم خسائر .

انسان مصرى ، نموذج صادق للطاقات الجبـارة الخلاقـــة المتأصلة فى نفوسنا وهذا الذى يصحبه بجيتاره جندى فنـان من شارع محمد على ، التقطه الشاب الأسمر من احدى النقط المواجهة للعدو . أما الجيتار فقد عثروا عليه تحت أنقاض أحد البيوت المهدمة ... وعثروا أيضا على بيانو وآلات موسيقية مختلفة !!

وبدأ الفتى ذو الجيتار يعزف ويغنى وسمعت . صوتا رخيما شجيا لأغانى أم كلثوم وعبد الوهاب القديمة ، ثم أخذ يغنى أغانى وأناشيد وطنية ظهـرت بعد أكتوبر ... سمعنا وطربنا وأنسـانا النغم الجميل مشاغلنا .

عرفت انهم يكونون فرقا للغناء والرقص والتمثيل والفكاهة ... ودعانى لحضور الحفلة القادمة فى أحد القطاعات ، وحضرت معظم الحفلات ، ورأيت الفرقة مكونة من جميع النوبيين السمر الذين بالمدينة ، ومن راقصين مجندين من فرق الفنون الشعبية ، ومطربين وممثلين وزجالين . جنود ومدنيين من مهن مختلفة .

وجاء يوم العـرض الـكبير ، ووضـع برنامج ترفيهى شامل للموسيقى والغناء والتمثيل والرقص والزجل ... وتم اختيار احدى دور العرض السينمائى (سينما شنتكلير) لاقامة الحفل ، وقام الفتى الأسمر الطويل بوضع برنامج الحفل والاشراف على التدريب وبروفات الموسيقى والرقص والغناء والتمثيل .

وفى المسرح قام جنـدى مهندس ديكور بعمـــل الديكورات المسرحية بامكانيات محلية محدودة ـ وجاءوا بالملابس من مصـادر

مختلفة ـ ومنها ملابس جرسونات ملونة من بعض فنادق المدينة ـ وآلات موسيقية ٠

وبدأ الحفل ظهرا ـ وكانت دور العرض مغلقة منذ سنوات ـ وكان الجو الداخلى للدور رطبا باردا متربا ، وأحدث ذلك حالة من العطش الشـديد انتابت المشـاهدين ومن فوق خشبة المسرح على السواء ٠ وكان مشهدا فكاهيا أن يعطش الجميـــع ٠ المطرب أثناء الغناء ، وأفراد الفرقة الموسيقية والراقصون أثناء تابلوهات الرقص، والممثلون أثناء تمثيل الأدوار الكوميدية، فضلا عن مئات المشاهدين، وأثار الموقف كله عاصفة شديدة من الضـحك النابع من القلب ٠ وقضينا أكثر من ثلاث ساعات ولم ينفذ نصف البرنامج حيث ضاع نصف الوقت فى العطش والاعادة ٠

وفى معسكر الايواء قام الجنود باحياء حفـلات سـمر ، كل جماعة تقدم ما تشتهر به مدنهم وقراهم من فنون شعبية ٠ ولم تقلل الاشتباكات اليومية من معنويات الجنود وطبيعتهم المرحة ٠

وقد لاحظ أفراد العدو المتحصنين وراء سواتر وداخل الأدوار السفلى بالمبانى المحيطة بمدينة السـويس ـ لاحظوا فرح الجنـود وتحركاتهم أمامهم دون خوف أو قلق ٠ ولم تكن معنوياتهم فى حالة تسمح بتقليد أصحاب الأرض ، وكيف يمرحون وهم يخشون اظهار رؤوسهم خارج حصونهم ، فماذا يفعلون ؟

فى أحـد الأيام ، لاحظ جنودنا الرابضون عند أحـد المواقع المتاحة لموقع للعدو ، ظهور بعض علامات اقامة حفلة عند العدو ـ ستائر ملونة ، وخلفها اضاءة ساطعة ، ثم سمعوا أصواتا صاخبة وموسيقى راقصة ، وبدا واضحا تماما أن العدو يقيم حفلا ساهرا راقصـــا !!

وأثار هذا المشهد النخوة عند جنودنا ، هل وصل غرور أفراد العدو الى حد اقامة حفلة فوق أرضنا ، وبسرعة تلقائية أطلق جنودنا وابلا من رصــاص رشاشاتهم في اتجاه مواقع العــدو مما أدى الى حدوث خسائر واصابات وحرائق في موقعهم .

وظهرت تحركاتهم لنقل جرحاهم ، وشوهدت الستائر الملونة تحترق بينما ما زالت الاضاءة الباهرة خلف الستائر المحترقــــة والأصوات الصاخبة كما هي لم توقف بعد أن أوقف جنودنا طلقاتهم

واتضحت الخدعة بعد ذلك ... فقد استمرت الحفلة ولــم ينتبه أحد اليها اما لأنهم انشغلوا بنقل جرحاهم ، أو لأنهم خشوا الوصول الى مكان جهاز التسجيل لايقاف الحفل المزعوم .

الحنان فى الصدور

يسرى المهاجر عن نفسه فى غربته بخطاب يصله من أسرته . والخطاب يحمل معه الأخبار وأحوال أهله وذويه وقد يحمل صورة فوتوغرافية حديثة • واذا زاد شوقه أو أراد أن يطمئن بسرعة فانه يرسل برقية ، أو يطلب (ترنك) تليفونى • وقد يصله قريب أو صديق بنبأ عن أهله أو رسالة أو هدية • وأمامه أنواع المواصلات المختلفة يمكنه استخدامها اذا شاء • أو يمكنه أرجاء السفر وتحديد وقته •

أما أن يقضى المرء وقتا يمتد الى أكثر من ثلاثة شهور ، وهو لا يعلم ، أى شىء عن مصيره ، لا يستطيع الاتصال التليفونى بأهله وأصدقائه ، لا يعلم أى شىء عن ذويه ، أبنائه ، أمه وأبيه ، عشيرته، جيرانه فالأمر يختلف كثيرا •

قطع العدو خطوط التليفون بين السويس وخارجها ، سواء كان ذلك مقصودا أو ان ضرب الطيران أصاب الأسلاك والأجهزة الفنية بغرفة السنترال فان النتيجة واحدة وكذلك بالنسبة للبرق

فقد ضربت أعمدة البرق والأسلاك هذا فضلا عن أن قطع الطريق أبطل عمل البريد ومنع المواصلات ٠

وكان هناك اتصـال بالأجهزة اللاسـلكية خصص للاستخدام الضرورى لأن العدو كان يدخل بأجهزته على موجة الهجاز اللاسـلكى ويتصنت ٠

ومما لا شك فيه أن الناس فى المدينة كانوا يشعرون بحنين الى أسرهم وأبنائهم ٠ مثلما كان أقاربهم وذويهم لا يعلمون شيئا عنهم ويعانون قلقا زائدا لانقطاع أخبارهم ٠

وكنت كلما عانيت مرارة هذا الشعور تذكرت ظروف الآخرين من حولى ، ممرضات المستشفى ، منهن الزوجة والأم والخطيبـة ، وتذكرت الآباء ممن تركوا ، عائلاتهم وهـم فى أشد الحاجة اليهـم لمرضهم أو لاعالتهم ٠ تذكرت الأطفال الذين كانوا مع آبائهـم فى المدينة وأمهاتهم خارجها ٠

ومن مظاهـر الحنين الى البيت والزوجة والابن أذكر بعـض مشاهداتى فى هذا الصدد :

كانت احدى الممرضات تعمل فى المستشفى بمدينة السويس ، كان زوجها فى القاهرة وقت الحصار ولديها طفلان فى سن الخامسة والسابعة ٠ ووجد الأطباء والممرضات والمرضى وزائرو المستشفى ضالتهم المنشودة فى هذين الطفلين ٠ كنا نتسابق للفوز بمداعبتهما واغرائهما بالحلوى طمعا فى مشاهدة مرحهم والفرح فى عيونهـم وكأنما نرى فيهما أبناءنا ٠

وأثناء الحصار وضعت بعض السيدات أطفالا ٠ وكن فى حاجة الى غذاء كاف فى وقت كان الطعام فيه قليلا ومحدد الكمية ٠ وكان الناس يقدمون مساعدتهم طواعية لهن وكأنهن زوجاتهم ٠

وداخل معسكر الايواء سمعت أغنية عيد ميلاد سعيد يرددها الجنود ، وكان الوقت ليلا ، دخلت الغرفة ، وجدت أحد الجنود يحمل رغيفه بين يديه وقد غرس فوقه خمس شمعات مضاءة ـ كما لو كان الرغيف تورتة ، وحوله زملاؤه فى المعسكر يحتفلون معه ، فاليوم بلغ أحد أبنائه عامه الخامس فى القرية وهو يحتفل بعيد ميلاده هنا ٠

قامت الممرضات بالمستشفى بأعمال بطولية فى خدمة المصابين والمرضى ٠ ومن بقسم الأمراض النفسية ٠ وكن رسل رحمة ومحبة فقمن بأعمال وخدمات أكثر من طاقتهن عشرات المرات ، وخبروا تجارب لن تحدث لهن فى مدة خدمتهن السابقة ويبدو أنها لن تتكرر طول مدة خدمتهن المقبلة ٠

ورغم قسوة الحياة فقد وجد منفسا نبيلا لعواطفهن ٠ وتقرب الشباب اليهن فى نادى المستشفى حيث اشتركوا فى الهوايات المختلفة والرياضة ـ ولم تحدث خلال فترة الحصار حادثة مشينة واحدة ٠ بل ان الاختلاط بين الجنسين فى هذه الظروف خلق شكلا فريدا من تسامى الغرائز ، وتحولت الى عطف ورحمة ومودة ٠ وكان التعاطف بين الفتيات والشباب يتم فى الضوء فلم يكن هناك ما يدعو الى الاختباء فى الظلام ٠

ومن المواقف (الانسانية) الرائعة تعاطف الناس مع الحيوانات ٠٠ فى الأيام الأولى كان الطعام قليلا نادرا بالنسبة لمعظم الناس ٠٠ ولم يكن هناك بقايا طعام ، فخرجت القطط والكلاب للبحث عن شىء، ومرت أيام لم تذق فيها هذه الحيوانات طعاما ، أنستهم المحنة المشتركة عداوتهم اللدود ، كنت أرى عشرات القطط والكلاب يبحثون معا عن بقايا طعام ٠ وقد نحفت أجسامهم وهزلت ٠٠٠ وقد أثارت حالتهم عاطفة الناس فى الحصار وكان كثير منهم يقتطعون

لقيمات من خبزهم ويلقونه للحيوانات فليقفونه كما لو كان قطعة لحم ٠

وعند استخدام الدواب فى نقل المواد التموينية من مكان الى آخر توفيرا للوقود كان أحد أصحاب العربات يملك فرسة تجر عربة وبجوارها وليدها مهرا صغيرا عمره شهور يجرى وراءها ، وكلما حاول الرضاعة لا يجد فى ثديها لبنا ٠ فيتركها باحثا عن بعض الأعشاب فى الطريق ثم يعود اليها لاهثا ٠٠ وكان الناس فى الطريق يستوقفون المهر ويربتون عليه ويقبلونه ويبحثون له عن حشائش يأكلها وكأن العطف عليه عطفا على أبنائهم البعيدين عنهم وتعويضا عن حرمانهم من رؤية أبنائهم ٠

هذه المواقف الانسانية وغيرها كثير توضح طبيعة الانسان المصرى ، كيف يتصرف فى الأزمات ، الجندى ، المواطن المصرى ، يتعاطف مع الضعيف ويشعر بغيره وينسى نفسه ، ويقدم العون لجيرانه وزملائه ، وللأطفال بل تمتد محبته وعاطفته لتشمل الحيوان أيضا ٠ هذه الطبائع البشرية الخيرة ظهرت وقت الشدة بلا حدود ـ تعبير صادق للصفات التى يتميز بها الشعب المصرى ، الطبع غلاب وهذه طبائعنا غلبت علينا وسادت تصرفاتنا وسلوكنا ٠

فماذا عن تصرفات العدو ؟

فرحتهم أعظم

لا يختلف الجندى الاسرائيلى عن غيره من البشر ، الجندى فى فرنسا وفى أمريكا وفى اسرائيل وفى مصر ‥ فى نهاية الامـــر انسان يضم بين جنبيه طبائع البشر ، ونوازع الخير والشر ، ويعمل تراث الأمة الثقافى وما يمتصه الفرد فى بيئته من تنشئة اجتماعية وتأثيرات نفسية ، على تشكيل صفات الأفراد والجماعات وتعميق بعض الصفات على حساب غيرها فتظهر الفروق المتباينة بين الشعوب أو التجمعات البشرية ٠

وللانســان المصرى صــفات أصيلة ، امتصــها خـلال تاريخه الحضــارى ومن بيئته الجغــرافية ، وطبيعة أرضه ومناخه ، عبر التاريخ ، وقد حاولنا اظهار بعض ملامحها فى هذا الكتاب ، اذ أن موقف الشدائد والمحن خير مجال لاظهار طبائع البشر ٠٠٠ وهــل هناك شدائد ومحن أعظم من الحروب ؟

والانسان المصرى معروف بطبيعته وشهامته وميله الى المحبة

والخير والسلام ... بعض صفاته الغالبة . وقد أظهرت الحرب صفات أخرى كانت كامنة .

وليس مجالنا هنا هو مقارنة شخصية الانسان المصرى بنظيره الاسرائيلى فهذا عمل ضخم يحتاج الى أدوات علمية فى الملاحظة والقياس والمقارنة .. بل والأهم - أن تكون مادة البحث بين أيدينا متوافرة . ومادة البحث هذه نادرة - ولم يكن أمامنا غير ملاحظات سلوكية حاولنا تسجيل بعضها فى هذا الكتاب .

ويأتى وقت يتلاشى فيه كل ما تعلمه الانسان فى مجتمعه وحضارته ، عندئذ يسلك كما كان يعيش أجداده فى العصور القديمة ، لا يدارى انفعالاته ورغباته ، ويصبح سلوكه وتصرفاته تعبيرا صادقا عن مشاعره الحقيقية .

وهذا ما لاحظناه فى حرب أكتوبر فى سلوك جنودنا وأفراد العدو، اذ ظهرت المشاعر الانسانية سافرة عند الفريقين ، ولم تتمكن أدوات الحضارة والتمدن من قمع ما فى أعماق النفس البشرية من نوازع ورغبات ، وأصبح الصراع بين الجندى المصرى ونظيره الاسرائيلى وجها لوجه وبغير قشرة الحضارة المادية كما سبق شرحه فى المراحل السابقة .

وفى المرحلة الثانية من محادثات الكيلو ١٠١ تم الاتفاق يوم ١٨ يناير سنة ١٩٧٤ على انسحاب اسرائيل من غرب القناة من الجنوب الى الشمال وعلى خطوات .

وفى مواقعنا حول مدينة السويس .. كان أفراد العدو قبل هذا الاتفاق ، لا يخرجون من مواقعهم الحصينة الا عند الضرورة القصوى .. وقد أقاموا سواتر ترابية يختبئون وراءها ، أما من كان منهم داخل بعض المبانى خارج المدينة ، وكانوا يختبئون فى الأدوار

السفلى منها ، بعيدا عن عيون المصريين ، وقد فتحوا (مزاغل) فى جدران الأدوار العليا وضعوا خلفها خوذة فوق عصا ، حتى يعتقد جنودنا أنهم متيقظون وراء الجدران !! وقد انكشفت هـذه الحيلة لجنودنا منذ اليوم الأول ، واستمروا هم فى اعتقادهم بأنهم يخدعوننا حتى آخر يوم ٠

وعند ما يأتى المساء تضـاء مواقعهم بالكشافات والأضـواء الساطعة خوفا من تسلل أفرادنا اليهم ليلا ٠٠٠ كما استمر أفراد العدو حتى أواخر شهر ديسمبر يطلقون المشاعل المضيئة فوق مدينة السويس وفى منطقة المعابر الى الشرق ٠

وقد وضعوا جهازا أوتوماتيكيا فى المبانى المواجهة لمواقع قواتنا فى مدينة السويس ، وهذا الجهاز موصل بمصابيح كهربائية داخل الحجرات الشاغرة يجعلها تضىء وتطفىء كل فترة من الوقت ، حتى يعتقد جنـودنا أن هذه الحجـرات مشـغولة بالقوات ٠ ولم تكن كذلك ٠

بينما ٠٠٠ الجنود المصريون فى مواقعهم المواجهة لأفراد العدو حول المدينة ، ينتقلون من مكان الى آخر دون سواتر ترابية ، رائحين غادين من غير خوف أو رهبة ٠

وعندما تم الاتفاق النهائى على الانسحاب ظهر يوم ١٨ يناير لم يسـتطع الجندى الاسرائيـلى أن يدارى عواطفه وفرحته بفـك الحصار ، وأخذوا يطلقون أعيرة نارية فى الهواء الى أعـلا ابتهاجا بفرحتهم ، وفى الليل أطلقوا أيضا طلقات فسعورية ملونة تعبيرا عن مشاعرهم الحقيقية ٠٠٠ وزد جنودنا بالمثل ٠

وفى صباح اليوم التالى ٠٠ جاءت عربات الصليب الأحمر لاخلاء المستشفى من بقية الجرحى ، وقد أطلق جنودهم أيضا الأعيرة النارية ابتهاجا بدخول سائقين مصريين مباشرة الى المدينة ٠

وخرجوا من حصونهم ومن خلف السواتر الترابية يمرحــون ويلعبون ، فقد حرموا من هذه المتعة منذ ظهر السادس من أكتوبر ، وعادت الابتسامة الى وجوههم وبدأوا فى محاولة جذب انتباه جنودنا لهم . وعندما رآنى أحدهم وكان يستمع الى برنامج عبرى فى جهاز راديو ، حول المؤشر الى محطة مصرية ، وارتفع صوت الراديو ثــم نادى زميلين له وأخذوا جميعا يرقصون مع أنغام الاناشيد الوطنيــة المصرية ، ثم أخذ أحدهم يمزح مع زميله قائلا هذا من تركيا . وهذا من العراق . وبعد أيام سنذهب الى تل أبيب ، وستذهبون الى القاهرة .. خلاص مفيش حرب فيه سلام .. مصرى ويهودى سوا أخوة .

وقد سألت الجنود فى المواقع المواجهة لقوات العدو عن ظاهرة المرح عندهم فعلمت أنهم هكذا منذ قرار الانسحاب بل ان بعضهم كانوا يقدمون علب السجائر لأفرادنا فى الموقع وعندما يتجاهلهم جنودنا فيعرضون عليهم تبادلها بأخرى مصرية .. وعندما وجدوا عدم استجابة لندائاتهم ، قال أحدهم انهم لا يحبون الحرب وانمــا دفعهم الى ذلك ديان ومائير .. وكأنهم يعتذرون عما اقترفوه .

وعندما قابل القائد الاسرائيلى بمنطقة مشارف المدينة السويس أحــد القادة العســكريين المصريين ، وكان معهــا وسيط عن قوات الطوارئ الدولية ، لمناقشة بعض تفاصيل فض الاشتباكات ، لاحظ الضابط المصرى ان الاسرائيلى متلعثم فى حديثه ، وظن أنه يعــانى حالة (مرض كلام) وأنها (لازمة تهتهة) ولكن بعد استمرار الحديث اطمأن الرجل وعاد كلامه طبيعيا ، ويبدو أنه شعر بالارتياح عندمــا قال للقائد المصرى .. انها كانت غلطة قاتلة (يقصــــد الجيب الاسرائيلى) .

ثم بدأوا فى الانسحاب ...

جمعوا معداتهم ، وأدواتهم .. خرجوا لأول مرة من مواقعهم الحصينة يجمعون الاسلاك الشائكة ، ويفضون شكائر الرمل من محتوياتها ، ثم يرصون أكياس الخيش ويحزمونه وينقلونه (ولولا تكاليف النقل لأخذوها بما فيها !) .

وأخذوا معهم أيضا معدات وأجهزة فنية دقيقة من شركات البترول المختلفة فى منطقة الزيتيات ، ولم ينسوا أن يأخذوا معهم محتويات المساكن والفيلات هناك من فراش وأثاث !!

ثم زرعوا الأرض الغاما ، مئات الآلاف ، وكأنهم يخشون أن يلحق جنودنا بهم ، أو يلحق صاحب الحق بالسارق قبل أن يتمكن من الفرار .

هذه بعض طبائعهم البشرية .. عكست ما تعلموه وما أمروا به .. وعكست أيضا ما يعتقدونه فى قضية الحرب والسلام .. وهذا ما كشفت عنه أيضا حرب أكتوبر .

الباب التاسع

مع الفلاحين

- المفاجأة •
- الأرض •
- الخوف •
- اغراء •
- المختار •

المفــــاجأة

اقتحم جنودنا الساتر الترابى وتسلقوه وفاجأوا أفراد العـدو وراء السور الشاهق ·· وترك معظمهم أسلحتهم ، رأيناها داخـــل ملاجئهم وحصونهم المنيعة لم تستخدم ، كانوا فى حالة استرخـــاء عندما فاجأتهم قواتنا العابرة · تغيرت نظرة الجندى الاسرائيـــلى الى الجندى المصرى عندما واجهه ، وتجمع الاسرى بالمئات · وتمت لقاءات معهم لمعرفة انطباعاتهم عن المصريين وكانت غالبية الآراء تدور حول الاتجاهات الآتية حسب تقديراتهم ·

الدهشة والمفاجأة :

- لم يستطع الأسرى أخفاء دهشتهم بعبور قواتنا القناة ،ومفاجأتهم بالجنود المصريين وهم ينقضون عليهم · فقد كانوا يعتقدون أن القوات المصرية غير قادرة على اقتحام القناة لعدم قدرتهم ركفاءتهم القتالية ·

- اعتقدوا أيضا بأنه فى حالة امكان تنفيذ العبور فان القوات المصرية سوف تفاجأ بحجم وجحيم خط بارليف ٠

- عندما واجهوا الجندى المصرى (صدموا) - لم يصدقوا الأمر فترة طويلة دهشوا عندما وجدوا الجندى المصرى يقاتل بكفاءة نادرة ولا يهرب أمام نيرانهم ٠

- المثقفون من الجنود الاسرائيليين يلقون المسئولية مسئولية الحرب على عاتق قادتهم وساستهم لأنهم لم يبادروا باتخاذ موقف ايجابى لحل المشكلة سلميا ٠

- الجنود العاديون ومعظمهم شرقيون كانت معلوماتهم عن القضية ناقصة ويدهش بعضهم عندما يعلم أن مصر تريد السلام ولاتبغى غير اعادة الأراضى المحتلة وحلا عادلا للفلسطينيين ٠ وعبر بعضهم عن اعتقادهم ان مصر والدول العربية تبغى القضاء التام على الاسرائيليين ونزعهم من المنطقة (الالقاء فى البحر وغير ذلك من اتجاهات الاعلام المضلل) ٠

- أبدى الكثير منهم دهشتهم عندما قدم لهم وجبات طعام الجنود المصريين (فراخ - لحم - فاكهة ٠٠ الخ) فقد كانوا يعتقدون أن الجندى المصرى لا يأكل غير الفول والعدس ٠

- اندهشوا من المعاملة الحسنة - وعندما كان يفتح الباب عليهم فى بادىء الأمر كانوا يفزعون كما لو كانوا يؤخذون الى غرفة الاعدام ٠ وكان بعضهم يصرخ ويبكى أو يلتصق بالحائط ٠

العدو غرب القناة :

فى الساعة ١٨٥٢ يوم ١٢ أكتوبر بدأ سريان قرار وقف اطلاق النار وأصبحت قوات العدو المتسللة محصورة بين ترعة الاسماعيلية

شمالا ، والنطاق الدفاعى الثانى غربا ومنطقـــة جبال شبراديت والشبابى وشمال جبل جنيفة وجبل القط جنوبا .

وبعد سحب عناصر صواريخ الدفاع الجوى من المنطقة الملاصقة للقناة فى قطاع الجيش الثالث وأصبحت هناك ثغرة فى نظام الدفاع الجوى عرضت قوات رأس الكوبرى فى الجيش الثالث لهجمات العدو الجوية .. وتشجع طياروه بعد أن ابتعد الخطر الذى كان يردعهم .. ورغم ذلك فقد تمكنت قوات الدفاع الجوى من اسقاط حـــوالى ٧٠ طائرة خلال هذه المرحلة (١) .

أصبح وضع قوات العدو غرب القناة محفوفا بالمخاطر ... وبعد وقف اطلاق النيران أخذ يدفع قوات جديدة عبر القناة الى الغرب لتدعيم قواته المحصورة هناك مستغلا احترام القوات المصرية لقرار وقف اطلاق النار وعدم تهديد المعابر .

وأصبح الوجود الاسرائيلى فى المنطقة الممتدة من جنـــوب الاسماعيلية شمالا الى ميناء الادبية جنوبا فى الشريط الســـاحلى لقناة السويس .. والذى يهمنا هنا هو سلوك وتصرفات ضـــباط وجنود العدو مع المدنيين فى هذه المنطقة خلال فترة وجوده .وتمت لقاءات مع بعض الاهالى الذين كانوا فى هذه المنطقة خلال فترةالوجود الاسرائيلى ، وخلصنا بالمعلومات الآتية عن العدو لعلها تلقى بعض الضوء على جوانب شخصية الجندى الاسرائيلى .

ويجدر بالذكر أنه بقدر ما كان العدو يعتقد أنه يحاصرقواتنا فى هذه المنطقة بقدر ما كان يعانى من الشعور بأنه محاصر وأنقوتنا تستطيع الضغط عليه من كل جانب وتكبده خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات .

---

١ ـ حرب رمضان .. لواء حسن البدرى وآخران ص ١٧٠ .

الأرض

يعيش الأهالى فى المنطقة الممتدة غرب القناة ، جنوب الاسماعيلية حتى شمال مدينة السويس ، فى شريط زراعى ضيق على جـانبى ترعة السـويس لم يهاجـروا قراهم منذ عدوان ١٩٦٧ ٠ ولهم مع الجنود المصريين علاقات انسانية وطيدة بل ان أعمالهم الوطنية تمتد الى فترة الاحتلال الانجليزى فى المنطقة حيث ساهموا فى العمليـات التى كان يقوم بها الفدائيون داخل معسكرات الانجليز فى سـنة ١٩٥٠ وما بعدها ٠

وأثناء حرب الاستنزاف عاش هؤلاء الفلاحون الحرب وعانوا آثارها ودمارها يفلحون الارض ويزرعونها وينتظرون الحصـاد تحت وابل من نيران الطيران والمدفعية والحياة مستمرة ٠

وبعد وقف اطلاق النيران بدأت مرحلة جديدة من هذه الاحداث فى هذه المنطقة ـ التجهيزات الهندسية واقامة السواتر الترابية فى الضفة الغربية للقناة ـ وبدأ العمل بهمة ونشاط ٠ الارض الزراعية

تضيق يوما بعد يوم بينما تشق الانفاق والطرق ، تغيرت معـــالم الأرض تماما حولهم،وهم راضونقانعون برزقهم ٠الدباباتوالمدرعات المصرية حولهم ٠جنودنا يعيشون معهم فىالسراء والضراء يشاركونهم أفراحهم وأحزانهم ، اندمجوا بعضهم ببعض ولم تعد تعرف منالفلاح ومن الجندى ، كثير منهم كان يرتدى الزى الكاكى ٠ وكان الوجود العسـكرى فى هـذه المنطقة قد أحـدث تغييرا ثقافيا عند الأهـالى الفـــلاحين ٠

الأهالى هنا يعلمون الكثير عن التجهيزات والتحركات العسكرية ويرون كيف تتم التدريبات والمشروعات ٠ بل انهم حينمـــا يطلون برؤوسهم الى أعلى يرون قوات العدو أمامهم فى نقطهم القوية ، هناك منذ زمن طويل يزدادون زهوا وغرورا كلما مرت الايام وتلاحقت السنوات ٠

وقبل تحديد ساعة الصفر وبدء العمليات ، شعر الفلاحـــون بتحركات غير عادية ليلا ونهارا ، ورأوا مئات الدبابات والعربـــات المصفحة وآلاف الجنود واستمروا فى عملهم وسعيهم للرزق ، يعملون فى حقولهم تراهم فوق دوابهم ينتقلون هنا وهناك بين الدبابات وحاملات الصواريخ ٠

وعند عبور قواتنا القناة ، ومنذ الساعات الاولى شاهدوا عن قرب اللحظات الحاسمة لتحول التاريخ ٠٠ اليسمنحقهم أن ينالوا هذا الشرف العظيم ، كنت أراهم فى الصباح والمساء ينتقلون من مكان الى آخر فى منطقة الجناين ٠ وداخل حقولهم تكمن الدبابات المصرية اسـتعدادا للعبور ـ والجندى المصرى حينما يجـد الأرض الزراعيــة أمامه منبسطة يحن الى بلدته ، يفترش الأرض مع زملائه ويأكلون مما تنبت الأرض وما يقدمه لهم الفلاحون من جبن وخبـــز وأذرة يشوونها ٠

وأصوات المدافع تهدر فى كل مكان . والطائرات الاسرائيلية تمرق بين حين وآخر الى أن يصيبها صاروخ مصرى فتسقط مشتعلة وكم من طائرة سقطت فى حقول هؤلاء الفلاحين الشرفاء .

لم يتركوا أرضهم عندما اشتد سعير الحرب ، أحسوا أن واجبهم البقاء يقدمون ثمار الأرض دون مقابل للجنود ، ورزقهم على الله .

الخوف

قامت القوات الاسرائيلية بالتسلل بعد السادس عشر من أكتوبر وتسربت صوب مواقع الصواريخ المضادة للطائرات،وهاجمتها بالنيران من بعد واسكتت البعض منها ، وأحدثت بذلك ثغرة فى نظام دفاعنا الجوى ، استغلتها قوات العدو الجوية فى مهاجمة مؤخـــرة قواتنا وستر أعمال القوات المدرعة المتسللة ، التى اصطدمت ببعض القوات المصرية فتمكنت من تدمير جزء من دبابات العــدو . وأجبرت الباقى على الاختفاء من منطقة الأحراش حول الدفرزوار (١) .

وأحس الأهالى بهذا التسلل فى حينه ـ ونشط الطيران المعادى يوم ٢٢ أكتوبر ـ وكان العدو يقصد تطهير المنطقة من القوات المصرية

ثم بدأ قصف مدفعية العدو ودباباته بعد الظهر – وأخـــذ العدو يطلق النيران فى المزارع والمساكن ، واستشهد عشرات المدنيين والعسكريين وأصيب بعض الاطفال .

(١) المرجع السابق ص ١٥٨ .

انتابت العدو حالة من هستيريا القتال بدون مبرر فاخـذوا يطلقون نيران دباباتهم فوق المزارع وقتلوا ما بها من مواش ، ولم تسلم حتى الكلاب من نيرانهم ، وكأن الخوف والهلع جعلهم يخشون الحيوانات • أشعلوا النيران في المزروعات خشية أن يختبىء بداخلها المقاتلون والفلاحون •

استطاع الاهالى نقل عشرات الجرحى من المقاتلين تحت وابل من نيران مدفعيته والدبابات والطيران •• وخبأوهم فى آكواخهـــم وأماكن أخرى • وقاموا باسعافهم وعلاجهم ، وقد علمت فيما بعـــد أن معظم ســكان القرى فى هــذه المنطقة أمضوا دورات تدريبية على عمال الاسعاف والتمريض • وقد تمرسوا على هذا العمل منذ سنوات طويلة •• وجاء يومهم ودورهم فى اسعاف المقاتلين •

العدو يبحث عن الجنود والضباط :

لم يجرؤ العدو على ترك الدبابات حتى يوم ٢٦/١٠ ، ثم خرجوا بعد ذلك للبحث على الجنود المصريين ، واتبعوا أسلوبا يدل على خوفهم الذى لا يتناسب مع الموقف ، يسير كل جندى اسرائيلى وظهـــره ملاصق لظهر جندى آخر ، وبأيديهم رشاشاتهم سريعة الطلقـــات، يطلقون النيران اذا سمعوا أى صوت حتى لو كان مواء قطة أو عواء كلب •

ولم يتمكن العدو من التمييز بين الجنود والفلاحين كما سبق شرحه •

العدو يوجه نداء :

الأهالى والجنود لا يتركون الأرض :

أحيطت المنطقة بالدبابات الاسرائيلية التى زودتها بها أمريكا أعلن العدو أن الطريق مفتوح لمن يريد الخروج على الطريق الاسفلت الى الاسماعيلية • ولكن الاهالى والجنود رفضوا التخلى عن الارض • واستمروا فى حياتهم العادية متجاهلين العدو تماما •

منع التجول :

ولما يئس العدو من خروج المواطنين من قراهم استمر قرار حظر التجول من الساعة الخامسة مساء حتى الساعة السادسة صباحا • وعندما يأتى المساء تضاء القرى والمناطق الزراعية المجاورة جميعها بالمشاعل خشية التحركات الليلية •

ورغم حظر العدو التحرك فقد كان أفراده خائفين ، وظهر ذلك فى سلوكهم وقد أكتشف الاطفال من الاهالى خوفهم فكانوا يقذفون بحجارة صغيرة بالقرب منهم ويتسلون بمشاهدتهم عندما يفرون مزعورين داخل دباباتهم ووراء حصونهم •

اغراء

أحس أفراد العدو أن المواطنين المدنيين يتكتمون سر علاجهم للجنود الجرحى ويخبئونهم فى مكان لا يستطيع أن يتوصل اليه العدو .. فتم القبض على بعض المدنيين منهم حلاق الصحة . وهو رجل جاوز الستين ولكنه يحتفظ بصحة وافرة وقوة ظاهرة .. وكان الرجل يشرف بنفسه على تخبئة الجنود الجرحى وتمريضهم واعاشتهم ، أغروهم بالمال فلم يأبهوا ، لم يقبلوا المال ، ولم يدلوهم على أحد .

لجأ العدو الى أسلوب آخر . أرسلوا امرأة لتقضى ليلة مع حلاق الصحة ويقول الرجل انه رفض العرض ، ثم عرضوا المرأة على ابنه الشاب فعارض الرجل بشدة .

ومهما كان الامر فقد استدعوا الرجل الحلاق فى الصباح وأعادوا سؤاله عن مكان الجنود الجرحى ، وفوجئوا بتجاهله واصراره على عدم معرفة شىء . واستمر على موقفه بعد أن القوه أرضا

وأشبعوه ركلا وضربا شاهدت آثاره على وجهه ورقبته وجسده ٠ واشتد غيظهم باصراره فنقلوه معصوب العينين الى قرية أبو رمانة هو وابن له لا يتجاوز العاشرة ، وأخذوا يهددون الرجل باطلاق النـار على ابنه وأطلقوا عدة أعيرة حول رأس الطفل أمام والده ٠ ولم يعترف الرجل بمكان الجنود الجرحى ٠ بل ارتمى فوق الارض مغمضا عينه استغفر ربه ثم تلى الشهادة ٠ وقال لهم اقتلونى ٠٠ ولم يبح بالسر ٠

استطاع الاهالى فى منطقة كبريت وما حولها اسعاف وعلاج الضباط والجنود المصابين ، ولم يعلم العدو عنهم شيئا ، ولم يلبث بعض الضباط والجنود الناقهين أن قاموا بجمع الاسلحة وتوزيعهـا على الأفراد للدفاع وأعمال المقاومة ٠ وفى يوم ٣ نوفمبر حدث اشتباك بين جنودنا وقوات العدو قتل ٤ أسرائيليين وأصيب سبعة واستشهد اثنان من جنودنا ٠

العدو لا يثق فى الأهالى :

أصبح كل المواطنين بعد اشتباك ٣ نوفمبر موضع شـك القوات المعادية وقد أذاع العدو بيانات باللغة العربية بأن من يأوى جنديا سيقتل ٠ وأحس الجنود بالخطر المحيط بالمواطنين فانتشروا شمالا وجنوبا للالتحاق بوحداتهم الاصلية ٠

ومن مظاهر خوف العدو من الاهالى ، أنه منعهم من حيـازة أجهزة الاذاعة وحظر تجمع ثلاثة أو أكثر منهم ، وكذلك العمل على ترويج شائعة أنهم يريدون السلام ٠

العدو يغير أسلوب معاملته :

ورغم أن قوة العدو العسكرية فى المنطقة كانت فائقة الا أنهم كانوا يشعرون بالخوف واستمر خطر وحظر التجول واضـاءة المدينة ليلا بالمشاعل فترة طويلة من الوقت ٠

وبعد بدء تنفيذ اتفاقية البنود الست بدأ العدو فى محـــاولة لاستقطاب الاهالى ومعاملتهم معاملة طيبة ، والواقع أن هذا التغير فى السلوك كان يرجع الى خوف العدو من الأهالى عندما لم يستجيبوا لهم وتجاهلوهم واتخذوا موقفا سلبيا حيالهم · وبدأ تغيير الاسلوب عندما سمحوا لهم بالبحث عن جثث الشهداء ودفنهم ·

وعند مقابلتهم كانوا يتلطفون فى الحديث معهم ، ويسألونهم لماذا يحاربونهم وهم دعاة السلام ! وكان الأهالى يستفزونهم بذكر العبور وتحطيم خط بارليف ·

المختار

اختيار المختار :

ولأول مرة فى هذه المنطقة – عرف الناس اسم المختار – ومعناه العمدة . فقد عين العدو مختارا ليتولى بنفسه الاشراف على توزيع المواد التموينية على الأهالى ويكون مسئولا عن أحوالهم الاجتماعية .

وقد توفى المختار ، قبل الاتفاق على فصل القوات – وقد كان شابا قويا معافى ويقول الأهالى ان الرجل مات حزنا وكدرا لأنه كان يقابل أفراد العدو كل يوم ويتعامل معهم وهو مكره .

الحياة فى القرى :

كانت الكآبة والحزن يخيمان فى نفوس الناس ذلك لأن العدو أمامهم وبينهم لا يفصله عنهم قوات طوارىء دولية مثل الحال فى مدينة السويس وعند قواتنا شرق القناة . ورغم أن قوات العدو

فى المنطقة كلها كانت معرضة لمخاطر جسيمة الا أن الاهـــالى المدنيين كانوا معزولين عن القوات المصرية ، ولم يعرفوا ذلك .

وظهرت حالة الكآبة فى سلوك المواطنين وتلاشى مرحهم ، حتى أنه اذا مات واحد منهم أقاموا مراسم الدفن بدقة . وبالغوا فى حدادهم وتستمر تلاوة القرآن عدة أيام . وكأنهم وجدوا فى المتوفى متنفسا لأحزانهم لوجود العدو بينهم .

وقد تم عقد قران واحد من الأهالى وبتقصى الأسباب اتضـح أن الدافع وراء هذا الزواج عمل انسانى .. فالعريس كان يعيش مع أمه التى مرضت واشتد مرضها وكانت بجوارها احدى الفتيـات من القرية تخدمها وتسهر عليها ، وعقد عليها الفتى حتى يكون هناك مبرر لوجودها ولم يدخل بها الا بعد فصل القوات .

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٦٢

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٦/٢٨٩٣

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ١٢٠ ٤

كتاب الساعة

٦٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب